

شرح وتقديم

د. سليم مجاعص

رسالة الغفران

لأبي العلاء المعري



دار أمواج

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

رسالة الغفران

إن قيمة رسالة الغفران، تكمن في ما هو أهم من غناها اللغوي وغزارتها الأدبية وتجديدها الجمالي، قيمتها أنها تحمل في ثناياها أصداء موقف فلسفي من الدين والدنيا وضعه صاحبه في إناء أدبي كثرت ثناياه حتى كادت تضيع ملامحه. فرسالة الغفران في معناها الأخير موقف فلسفي من الدين والدنيا ومن الأدب والحياة.

د. سليم مجاعص

- مواليد الشوير، لبنان
- خريج الجامعة الأميركية في بيروت
- مؤلفاته:

* سعادة طبعاً، 1988 (تحت إسم هيثم)
* انطون سعادة والإكليروس الماروني، 1992
* الذائقة العشقية، 1993
* انطون سعادة والشيوعية، 1995
* بعل هدد، دراسة في التاريخ الديني السوري، 1992 (بالإشتراك مع د. حسني حداد)
* أناشيد البعل، قراءة جديدة للأساطير الأوغارينية، 1995 (بالإشتراك مع د. حسني حداد)

Designed & Printed by Idea Adv. 01/815420

المحتويات

www.lilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

1 ـ تمهيد عام

رسالة الغفران من أثمن روائع الأدب النثري العربي القديم، تكمن قيمتها في مزايا عديدة ليس أقلها أن كاتبها هو أبو العلاء المعري. هي في البدء نموذج رائع للتخيل الغني بالتفاصيل، المجدد في الجماليات، المتنوع في التصاوير، الحافل بالمعاني الفكاهية والفلسفية. وهي ثروةٌ لا تحد بغناها اللغوي، وتوسعها الأدبي، حوت نماذج من شعر ما يزيد على ثلاثين شاعر وأديب، ومباحث في اللغة والصرف والنحو، وأتت على بحر من المفردات ليس له مثيل في أي عمل أدبي سابق أم لاحق.

لكن قيمة رسالة الغفران، تكمن في ما هو أهم من غناها اللغوي وغزارتها الأدبية وتجديدها الجمالي. قيمتها أنها تحمل في ثناياها أصداء موقف فلسفي من الدين والدنيا وضعه صاحبه في إناء أدبي كثرت ثناياه حتى كادت تضيع ملامحه. فرسالة الغفران في معناها الأخير موقف فلسفي من الدين والدنيا ومن الأدب والحياة. فموضوعها كرحلة في الماوراء الغرض منه تسفيه التصور الديني عبر إبراز ضعف إسناده وتضخيم تفاصيل رؤيته. فلا يفتأ أبو العلاء يتبحر في الوصف المادي للجنّة والنار حتى يحمل القارىء على موافقته أن التخيل الديني لتفاصيل الجنة والنار سراب مضحك مبكي. ولا مجال هنا لتخفيف هذا القول بالإشارة إلى أن ما يصفه المعري يتفق مع ما جاء في كتب الدين بل إن هذا الاتفاق يؤكد ما ذهبنا إليه. فالمعري نفسه يكثر من الاستشهاد بالآيات التي تصف الجنة والنار ثم يتابع متبحراً بالتفاصيل من عنده حتى يبلغ مرامه من الصورة التي يبغي تقديمها.

يتبحر أبو العلاء في إدماج حالات في الجنة لا يسوغها عقل ولا منطق حتى يصل

بالقارىء إلى تقرير عبث التخيل الديني لأحوال الدنيا ونتائج هذه الأحوال على مجاري الأمور في الجنة. ولا يهدف المعري برأينا إلى إفلاس التخيل الديني بذاته فحسب بل يسعى عبر ذلك إلى وضع أسس للشك بالدين إجمالاً. إن سخرية المعري من التخيل الديني هي مدخله إلى الشك بالدين وأسسه ومراميه. وما على القارىء سوى أن يتبصر في تفاصيل قصة دخول ابن القارح إلى الجنة، أو ما هو في ثنايا شعر الجن، أو الغمز من مصير بعض الأولياء كما سيجيء تفصيله.

وموقف المعري في رسالة الغفران من الدين والتخيل الديني متوافق مع موقفه منهما في تراثه عامة، إذ نجد في لزومياته أصداء سخرية رسالة الغفران من التصورات الدينية التي يرينا المعري أن لا مكان لها في شريعة العقل. فحديث المعري في رسالة الغفران عن الحيوانات التي أنعم عليها بدخول الجنة (الأسد الذي التهم أبا لهب مثلا) يذكرنا بسخريته من اعتقاد البعض أن الحمام يدين بالإسلام فهو يقول في ذلك في اللزوميات:

عيدان قيناتنا من تحت أرجلها ... وعود قينتكم في حجرها باتا
وما حكين النصارى في لباسهم ... ولا بغين كأهل السبت إسباتا
لكنهن حنيفات بمزعمنا ... ذكرننا الله تمجيداً وإخباتا
يثبتن رباً قديراً لا كفاء له ... وما عمدنا لغير الله إثباتا

وأليس وصفه للثمار التي تخرج منها الجواري في رسالة الغفران مشابه لسخره من أسطورة ولادة النساء من الشجر في اللزوميات:

شر الشجار علمت بها ... شجرات أثمرت ناسا

ووجود الجن في رسالة الغفران ووجود جنة خاصة بهم وصياغتهم للأشعار (ويورد نماذج منها هي ولا شك من نظمه) من نوع الهزء من وجودهم إجمالاً كما من وجود الملائكة والأبالسة. يقول في ذلك في اللزوميات:

فاخش المليك ولا توجد على رهب ... إن أنت بالجن في الظلماء خشيتا
فإنما تلك أخبار ملفقة ... لخدعة الغافل الحشوي حوشيتا

وقوله أيضاً:

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به ... حساً يحس لجني ولا ملك

www.liilas.com/vb3
A RAYAHEEN

والأعمال الخارقة التي ترد في رسالة الغفران تحمل في ثناياها آثار شكه بها كما وردت في قصص الأنبياء والرسل إذ نجد في اللزوميات قوله:

زعم الناس أن قوماً من الأبرار عولوا بالجو بالطيران
ومشوا فوق صفحة الماء هذا الأفك هيهات ما جرى العصران

وهو ينكر المعجزات إجمالاً، وما تبحُره في وصفها في رسالة الغفران إلا من قبل تسفيهها عبر إكثار إيرادها. فالذي في لزومياته ينكر زلزلة العرش يمتع قارئيه بقصص الأوز المستحيل قياناً:

لا يكذب الناس على ربهم ما حرك العرش ولا زلزلا
فليت من يغري أحاديثه مات فصيلاً قبل أن يبزلا

ولا نستفيض في هذه المقارنة ونكتفي بإحالة القارىء إلى ملحق «أبيات الشك والتحدي» الذي أثبتنا فيه مختارات من اللزوميات تفيد في موضوع موقف أبي العلاء من الدين وتساعد القارىء على إقامة المقارنة بينها وبين رسالة الغفران.

وفي رسالة الغفران يمارس أبو العلاء التصوير الكاريكاتوري الساخر نفسه الذي مارسه في رسالة الملائكة، التصوير الذي يمثل المستحيل المستحب عند الصغار وعند الكبار الذين يفهمون ما وراء تصوير المستحيل. فكما نرى في الأفلام الكاريكاتورية كيف يقتل الحيوان ثم ينتصب حالاً حياً كما كان، كذلك نرى في رسالة الغفران كيف أن أهل الجنة يأكلون أوزة ويستمتعون بطعمها، ثم تقوم هذه الأوزة تسعى كأن شيئاً لم يكن (من هذا النوع أن حوريات الجنة يقين أبكاراً بعد الجماع، أو أن شرب الخمرة لا يسكر). وقد أثبتنا بعض المختارات من رسالة الملائكة في ملحق خاص لتسهيل المقارنة. وفي كلا الرسالتين الكثير من الطرافة في التصور والفكاهة في الحوار والسخرية اللاذعة في مجاري الأحداث.

وفي رسالة الغفران موقف من الأدب والأدباء نجده واضحاً في نوعية الأدباء الذين اختارهم أبو العلاء لأدوار في مسيرة رسالته، وفي من أقام منهم في الجنة، ومن وضع منهم في النار، كما في تفاصيل المباحث الأدبية واللغوية التي يدور حولها الحوار. فليس من النافل الملاحظة أن معظم الشعراء هم من الجاهلية (حوالى عشرين منهم) ومع توزعهم المساوي بين الجنة والنار إلا أنهم يمثلون الأكثرية الساحقة من أهل النار (ما

عدا بشار بن برد!). ثم إن الحطيئة لا يسكن حقاً في الجنة بل على أطرافها وأن هناك جنة خاصة بالرجز! وعلى الرغم من أن أهل النار يُصْلَوْن العذاب المرير، إلا أن المعري يسبغ عليهم أجمل المديح لإشعارهم أمراً هو قنين به مع الشعراء القابعين في الجنة. وهو يكثر مع هؤلاء الإشارة إلى عيوب أشعارهم أو روايتها.

لكن المعري يمارس أيضاً نوعاً جديداً من النقد الأدبي في رسالة الغفران. فهو إلى جانب أمور الصرف والنحو يقوم بنوع من الدرس المقارن في الموضوع الواحد. فإذا مرت مثلاً فكرة أباريق الخمر في وصفه للجنان أشفعها بذكر كثير من أبيات الشعراء في الموضوع ذاته مقدماً لنا فرصة مقارنة بعضها مع البعض الآخر. ففي موضوع الأباريق مثلاً أبيات لأبي زبيد، وابن الأحمر، وابن عبدة، وعدي بن زيد، والأقيشر الأسدي، وإياس بن الارث والعجاج، وقس على ذلك. وقد تنبه كل من طه حسين ولويس عوض إلى هذه الناحية ووصفا رسالة الغفران أنها من البدايات الخلاّقة للأدب المقارن في العربية وأسلوب فذ في المقاربة النقدية للتراث الأدبي. وفي حوارات ابن القارح في الرسالة مع الشعراء بذور نقد للأدب المنحول وأنواع الأشعار ومواضيعها وأوزانها. فالمعري يهزأ بالرجز في الحوار مع امرىء القيس كما في وصفه لجنة الرجز، وهو ينتقد العدد المحدود للأوزان في حديث الجن ومثل ذلك كثير.

في رسالة الغفران نجد صورة عن المعري غير ما صورته الكتب وأظهرته التقاليد. فهي لا تترك مجالاً للشك في أن موقف المعري من الدين والدنيا موقف نقدي شديد يصل إلى حدود الشك التام بالدين والأسف لحال الدنيا. لكنها تظهر لنا أيضاً رجلاً ذا مخيلة خلاّقة قادرة على تشييد بناء خيالي قصصي ممتع، وذا فكاهة ودعابة أكثر مما يمكن تكهنه عند من لقب دوماً برهين المحبسين. ففي رسالة الغفران الكثير من الطرافة التي تحمل على الابتسام، والدعابة التي تحمل على الضحك، والسخرية التي تقود إلى التبصر. فكيف لا نبتسم من أحداث الحياة في الجنة، ولا نضحك من تفاصيل قصة دخول ابن القارح إلى الجنة والتفاصيل الصغيرة التي تضيف جواً درامياً هزلياً لتلك القصة (فقدان ابن القارح لصك التوبة لانشغاله بمسائل لغوية، أو تأخر قاضي حلب بالإعلان عن نفسه لتثبيت توبة ابن القارح ونتائج هاتين الحادثتين على أعصاب ابن القارح المرتعد من ضياع فرصة دخول الجنة!). والمعري يمارس سخرية راقية مخففة

مع ابن القارح. فكلما وصف في الرسالة أن ابن القارح هم بقول شيء أو فعل شيء أشفع ذلك بدعاء له من مثل قوله:

- «تثمر من مودة مولاي الشيخ الجليل، كبت الله عدوه، وأدام رواحه إلى الفضل وغدوه...».
- «وكأني به، أدام الله الجمال ببقائه،...».
- «فيقول الشيخ، حسّن الله الأيام بطول عمره،...».
- «ثم أنه، أدام الله تمكينه،...».
- «وهو، أكمل الله زينة المحافل بحضوره،...».
- «فإذا سمع الشيخ، ثبت الله وطأته،...».
- «قال، كت الله أنف مبغضه،...».
- «فيقول، ثبت الله كلمته على التوفيق...».
- «ويقول الشيخ، كتب الله له مثوبة المتقين،...».
- «فيقول مولاي الشيخ الأديب المغرم بالعلم...».
- «ويقول، رفع الله صوته...».
- «ويخطر له، جعل الله الإحسان إليه مربوباً...».
- «فيقول، أصلح الله به وعلى يديه،...».
- «فيريد، بلّغه الله إرادته...».
- «فيكره، جنبه الله المكاره...».
- «فيقول، ما زال مقولاً للخير...».
- «فيقول الشيخ، بلغه الله الأماني...».

فإذا اعتبرنا أن هذه الأدعية تتردد كل صفحة أو نيف من الرسالة وقعنا على أسلوب المعري في هذه السخرية الراقية. فهو لو استعمل من هذه الأدعية قليلاً في رسالته لعد ذلك من حسن الأدب، لكن التكرار والإصرار هو ما يجعل هذا الأسلوب مضحكاً.

2 ـ حول موقف المعري من الدين

قلنا فوق أن في ثنايا رسالة الغفران موقفاً فلسفياً من الدين والدنيا، وهو موقف متوافق مع ما ورد من المعري في لزومياته وفي أعماله الأخرى من مثل رسالة الملائكة.

ولا بد هنا من التداول في مسألة موقف المعري من الدين واختلاف الكُتّاب في هذا الشأن. لقد زعم أمين الريحاني، وقد يكون زعمه حقاً، في مقدمة ترجمته لمختارات من اللزوميات إلى اللغة الإنكليزية، أن المحافظين من أهل الدين والأدب اجتهدوا في التعتيم على موقف الشك والرفض عند المعري لدرجة تصويره بأنه ما شكّ قط. فالكثير من المحاولات لتعيين مذهب المعري تجهد جهداً يائساً أن تبقي على سمعة الدين والتقوى عند شيخ المعرة، فالشيخ الضرير قد أصبح رمزاً أدبياً وشعرياً ولغوياً، يرفع سمعة الحضارة العربية، ويؤكد فذاذتها، فإمكانية كفره تعني خسارته للتراث المحافظ.
وإذا تطرقت هذه المحاولات إلى الكشف عن شطحات المعري إلى مناطق التحدي الديني الذي قد يصل معه أحياناً إلى الكفر الصريح، حاولت جاهدة أن تجد له الأعذار من أحداث عصره أو صعوبات حياته لتبرير هذه المزلات الطفيفة الحَرِيّة بالنسيان. فإليك مثلاً ما كتبه الدكتور يسري سلامة في كتابه «النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري». يقول تعليقاً على أبيات أبي العلاء:

دين وكفر وأنباء تقص وفرقان ينص وتوراة وإنجيل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

على أن المعري «يأسى لدخول الأباطيل على الأديان ويرجو لو جاء يوم يسود الهدى فيه جيل بأكمله». لكننا لا نرى في البيت الأول ما يعبر عن الأسى لدخول الأباطيل إلى الأديان بل نصاً صريحاً هو بمثابة قائمة بأحوال البشر الدينية يجعلها في صنف الأباطيل المذكورة في البيت الثاني. ولا نعلم كيف يمكن تخفيف ما في هذه الأبيات واللزوميات تعج بأبيات مثلها نثبت بعضها في ملحق «أبيات الشك والتحدي».

وإذا لم يستطيعوا إيجاد الأعذار والتبرير عمد المحاولون إلى الإنكار. فعند إيراد أبيات أبي العلاء التالية:

عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضام ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب رشاش الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجبي من مقالاتهم أيعمى عن الحق كل البشر

يكتب الدكتور سلامة (ص 291): «فإذا كان القائل محقاً في نقده الفرس أو النصارى أو اليهود ببيان بعض عاداتهم الغريبة فليس محقاً في نقده للحج عند المسلمين وهذه دسيسة يراد بها الإساءة إلى المعري عند كل الطوائف والملل». فالدكتور سلامة لا يرفض نسبة هذا القول إلى المعري (على رواية أبي الفدا) لو أن القول اقتصر على الفرس والنصارى واليهود لأنه يعتبر أن القائل محقٌ في نقده، لكن متى تعدى القول إلى نقد الإسلام فالحل المناسب هو إنكار كون هذا القول للمعري واتهام أبي الفدا بالدس!

وقد اتخذ بعضهم موقفاً ضبابياً من المعري كما مع طه حسين فبينما في المقدمة التي كتبها لرسالة الغفران، تحقيق كامل كيلاني، سنة 1925، ص 7 يقول: «أليس غريباً أن كتاباً كرسالة الغفران ينشر أيام أبي العلاء، فلا يحدث ثورة في الرأي ولا اضطراباً في العقيدة بل ولا حركة في الأدب؟». نراه في كتابه «تجديد ذكرى أبي العلاء» (ص 271) يحاول أن يتملص من كفر أبي العلاء فيقول:

«وليس لنا أن نتناول الرد على أبي العلاء والدفاع عن النبوات، فإننا لم نضع هذا الكتاب في الكلام وإنما وضعناه في التاريخ. إنما يعنينا أن نتعرف المصادر التي ألقت أبا العلاء في هذا الجحود. فإن الرجل لم يختر الخروج على الأنبياء وإنما تلك عقيدة لزمته كارهاً، لأسباب ما نظن أنها خفية أو غامضة. فقد بيّنا أن الحياة الدينية كانت في عصر أبي العلاء سيئة شديدة القبح، وكذلك الحياة الخلقية وغيرها من ألوان الحياة العامة. . [و] الحياة الخاصة لأبي العلاء كانت مملوءة بالهموم والأحزان، وأن الناس ما كانوا يقصرون في الإساءة إليه. فلا جرم سحره ما اتفقوا عليه من سياسة ودين، ومن أخلاق وعادات. وهو بعد أن قرأ فلسفة اليونان والهنود وهم لا يؤمنون بالنبوات ولا يعترفون بالأنبياء. غير أن الخطأ الذي وقع فيه كارهاً من غير شك، هو أنه حمل على الدين ذنب أهله، وعاب الشرائع بآثام أصحابها».

هكذا نرى أن طه حسين، سيد الفكر النقدي، يقع فريسة مأزق تكفير المعري فيسعى جاهداً كي يتعرف إلى «المصادر التي ألقت أبا العلاء في هذا الجحود»، وهذه كلها مصادر خارجية قبل بها وبنتائجها المعري «كارهاً من غير شك». وهنا نسأل، لقد اجتمعت هذه «المصادر» في عصور كثيرة قبل عصر المعري وبعده. فلا تزال الفوضى الأخلاقية ضاربة أطنابها ولدينا الآن ما يزيد عما كان له من الكتب اليونانية والهندية

www.liilas.com/vb3 ARAYAHEEN

والشيء الكثير من كتب المفكرين شرقاً وغرباً. فإذا كانت هذه العوامل قد «أجبرت» المعري على تطرفه في البحث في الدين ورفضه النبوات والأنبياء، فإنها ولا بد أن تؤدي إلى «إجبار» طه حسين بالذات في إبداء آراء مماثلة، فإنه أقرب إلى أبي العلاء في فقدان بصره، وأقرب إليه في تعمقه في دراسة كتب الفلسفة والدين في العصور والأمكنة كافة! وإذا كان ما يعيبه البعض في المعري «إجبار» فهل كل ما يحتفل به «اختيار»! هل من الصعب إلى هذا الحد القبول بأن المعري عبر عن رأيه بتجرد فلسفي دون «إجبار» هذه العوامل له حتى قبل «كرهاً» ما كان أولى به أن يرفض؟ لقد كانت لدى طه حسين شجاعة أدبية كبيرة عندما أظهر إعجابه الكبير بشيخ المعرة، وعند كشفه عن تحديه للإسلام الذي وصل به إلى الكفر في بعض أبياته، فلماذا يعود ويحاول أن يدفع عن الشيخ الضرير تهمة الكفر؟

وكاتب نقدي آخر هو الأديب اللبناني مارون عبود يقول في كتابه «زوبعة الدهور» (ص 32): «وإني أجل صدقه فهو أسمى من أن يكون ملحداً معطلاً، كما سماه ابن الجوزي في تلبيس إبليس». ويعني ذلك له، وللكثيرين غيره على ما يبدو، أن الإلحاد يخرج أبا العلاء من إنسانيته ويسلمه إلى «محاكم التفتيش» الكامنة في نفوس الناس في العالم العربي للحكم عليه بالموت أدبياً، بعد أن تمكن من التملص في حياته من الهلاك جسدياً بلباقته ونسكه وزخرف كلامه! ففي المشرق العربي وجب إعطاء كل مفكر هوية دينية؛ أما من تفلسف فتزندق، ومن كفر خان وخرج عن إنسانيته، وحكم عليه بالمروق شرعاً وعرفاً وأخلاقاً.

يقول الكاتب كامل سمعان: «في صحبة أبي العلاء» ص 106: «هكذا مجّد أبو العلاء رسول الله محمداً، ومجّد قرآنه في كتبه التي أملاها في صميم عزلته، وفي قمة نضجه، فكيف بنا لا نضع هذا التمجيد قاعدة نفسر بها العبارات الموهومة (كذا) أو نتجاوز بها عن العبارات المتجاوزة، على قاعدة: أن نحكم بإيمان ألف كافر خطأ خير من أن نكفر مؤمناً واحداً». هذا إذا كنا نعتقد أن الكفر خيانة ومن يكفر يكون جزاؤه النفي أو القتل. وبعد فكيف نتجاوز إلى هذه القاعدة ولدينا ما لدينا من رفض أبي العلاء للكثير من أصول الدين والكثير من أشكاله. في القرآن نجد أن الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر مقرونان في أكثر من ثلاثين آية لكأن الإيمان باليوم الآخر شرط ملازم

للإيمان بالله ونرى أن أبا العلاء ينفي البعث واليوم الآخر في لزومياته ويسخر منهما في رسالته فكيف نتجاوز هذه «العبارات المتجاوزة»؟ وفي الكثير من آيات القرآن نجد أن الإيمان بالملائكة والرسل والكتب هي شروط أخرى للإيمان ﴿. . . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾ (سورة النساء، الآية 136) وهذه الآية تتناقض مع الكثير من «العبارات الموهومة» فكيف السبيل؟

رأينا أن نتوسع في الأمثلة السابقة لتنبيه القارىء إلى ضرورة مقاربة كتابات المعري بذهن منفتح وموقف متحرر من ضرورة التعيين المذهبي. ففي رسالة الغفران يدخل المعري كما لم يدخل من قبل في صلب معالجة أمور أساسية في الدين كمواضيع التوبة والحشر والجنة والنار وأصول الغفران وأسباب اللعنة وأحوال الأولياء ودور الله في أحوال أهل الجنة وغيره. وإذا كان المعري قد ألمح إلى هذه الأمور في شعره فهو يواجهها مباشرة في نثره. وسوف يلقى القارىء عند تبحره في الرسالة حالات من الهزء من التصور الديني تصل إلى حد الكفر وأمثلة قصوى من السخرية من أوصاف الجنة وما يلقى فيها المغفور لهم وإن كان إيراد هذه الحالات والأوصاف ضمن سرد مغامرة أدبية، إلا أنها كما نظن تعبر عن موقف فلسفي من الدين نراه أوضح ما نراه في نثر المعري أكثر منه في شعره.

3 ـ هذه الطبعة من رسالة الغفران

قلنا إن في رسالة الغفران موقف فلسفي من الدين والدنيا وأن فيها نظرة خاصة إلى الأدب والأدباء، وإنها تعبر عن صورة جديدة نضرة لشاعر طغت على صورته صفات النسك والتزهد حتى لاعتباره عديم الفكاهة. فإذا كانت رسالة الغفران هي كل هذه الأمور، ويقيننا أنها كل هذه الأمور، فلماذا لم تحظ باهتمام العامة كما حظيت باهتمام الخاصة؟ لقد ربط البعض هذا الأمر بلغة الرسالة التي قد تستعصي على العامة والكثير من الخاصة. ولعل في هذا الرأي الكثير من الصواب، إذ يصعب تدبر فكاهة رسالة الغفران وطرافتها، دعك من موقفها الفلسفي، بسبب كثافة الحجب اللغوية. وفي الأشكال المتوفرة من رسالة الغفران حجب من الصعوبات اللغوية والأدبية يضيع فيها خيط السرد القصصي والصورة الخيالية الممتعة.

ولقد قامت في الماضي محاولات لتصحيح هذه الأمور تمثلت في أقلها في لوم

المعري على إفساد السرد القصصي بإدخاله مسائل مطولة في النحو والأدب (الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطىء) أو في وضع هذه المطولات بين أهلة حتى يتجنبها القارىء إن أراد (الأستاذ محمد عزت نصر الله)، أو في حذف هذه المطولات، أو حتى في إعادة كتابة وصياغة الرسالة بأجمعها. ولكل من هذه الاتجاهات مشاكل ومحاذير. فلوم المعري لا يحل المشكلة للقارىء العصري ولا يبدل امتناع الاستمتاع بالنص عنه. ووضع هذه المطولات بين أهلة حل له فضيلة تمييز النص المحوري عن الاستطرادات والشروح التي تتخلل المتن وكان الأحرى بها أن تكون في الحواشي. لكن هذا الحل، على جودته، ليس بحل كاف لأن بعض هذه المطولات والاستطرادات يستمر على صفحات عديدة، مما يشكل انقطاعاً في التركيز على القراءة ولا سيما أن في هذه المطولات أشعار ومباحث لغوية ونحوية قد تلهي القارىء عن تتبع السرد الأساسي، وإعادة صياغة لغة الرسالة ليس بالأمر المستحب أو المعقول (إلا حين تسهيلها للاحداث والشباب) لأنها بذلك تبطل أن تكون كلمات أبي العلاء. يبقى برأينا أن الحل الأنسب لمسألة تقديم نص يحافظ على السرد القصصي دون انقطاع هو في رفع هذه الاستطرادات من المتن وإما وضعها بشكل حواشي في آخر الكتاب أو الاستغناء عنها. وليس هذا بالأمر المستهجن كما يبدو للوهلة الأولى، فهناك طبعات عديدة لرسالة الغفران كاملة ومن أراد من الخاصة أو العامة مراجعتها بشكلها التقليدي يمكنه ذلك بسهولة تامة. أما إذا كان الغرض تقديم نص متكامل الخط السردي، متتابع التصوير الخيالي، ومحافظ على النص المحوري، فيجوز عندها رفع هذه الاستطرادات من المتن. ولما كنا نرى أن في النص المحوري من الغنى الفكري والأدبي ما يعوض أضعافاً عن رفع الاستطرادات من المتن، رأينا أيضاً أنه لا حاجة لوضعها كحواشٍ في آخر الكتاب لأن الغاية من ذلك قليلة الفائدة ومن أراد مراجعتها من الخاصة يمكنه ذلك في طبعات أخرى.

أثناء إعدادنا للطبعة الحالية وضعنا نصب أعيننا ضرورة إبراز ما نسميه النص المحوري في رسالة الغفران دون الحواشي، لاقتناعنا أن هذا النص هو الذي يسمح للخاصة والعامة الإقبال على الرسالة بسهولة أكبر وهو الذي يبرز غرضها الأساسي والمقصد النهائي منها. فليس غرض رسالة الغفران الأول، برأينا، هو إظهار وفرة معرفة المعري بأمور اللغة والأدب ومستعصيات المفردات وأحاجي تفاصيل النظم والأوزان

والقوافي. غرضها كما نظن هو التعبير عن نظرة إلى الدين والحياة والأدب بأسلوب أدبي شيق، وعبر تمظهر مخيلة خلاقة ذات حساسية جمالية مرهفة. إخراج النص بشكل يسمح بالتعبير عن هذه النظرة الخاصة إلى الدين والحياة والأدب هو ما سعينا إليه في تحضيرنا للطبعة الحالية. وقد استعنا في عملنا بمعظم ما تسنى لنا الوقوع عليه من الطبعات السابقة لرسالة الغفران، وهي في مجملها قريبة من بعضها تفرقها اختلافات طفيفة.

تقع الرسالة الكاملة في جزأين: الجزء الأول هو وصف رحلة إلى الماوراء، والجزء الثاني بحث في أدب بعض الشعراء من مثل أبي نواس والمتنبي وأخبارهم وغيرهم من الأدباء في موضوع الرد على رسالة ابن القارح إلى المعري. والقسم الذي يعنينا في هذه الطبعة هو القسم الأول الذي أعطى هذه الرسالة اسمها من سؤال ابن القارح لسكان الجنة: بما غفر لكم؟ أما القسم الثاني فهو على أهميته الأدبية لا علاقة له بالقسم الأول وأهميته محظورة بأمور اختصاصية في الأدب والسيرة فلم ندرجه في هذه الطبعة.

ولتبين موقع رسالة الغفران في تراث التخيل والتصور الديني في المشرق العربي وجبت الإضاءة على نماذج سابقة من قصص الرحيل إلى الماوراء. فإننا نجد في ملحمة جلقامش بدايات تصور الماوراء، كما نجد ذلك في أساطير أنانا السومرية وعشتار الأكادية ونزولهن إلى الجحيم. لكن المثل الأوضح للمقارنة هو ولا شك في محاورات لوقيان السميساطي، الكاتب السوري الذي سبق المعري ببضعة قرون. فقد اشتهر لوقيان بتصوير مشاهد من حياة الآلهة والفلاسفة على شكل حوارات ويصلح الكثير من كتابات لوقيان في معرض المقارنة مع رسالة الغفران.

ففي قطعة «النزول إلى العالم الأسفل» يصف لوقيان مصير الغني الطاغية وما آل إليه، وكيف أن مصير الإسكافيين أفضل من مصير الأغنياء عبر حوار طريف مضحك. وفي «عودة الموتى إلى الحياة» يصف لوقيان حوار مجموعة من الفلاسفة وانتقادهم للسفسطات التي علقت بأفكارهم تماماً كما يشتكي أدباء رسالة الغفران من المنحولات والتبديلات في شعرهم. ولعل القطعة الأقرب إلى رسالة الغفران هي قصة منيبوس Menippus الذي نزل إلى العالم الأسفل وعاد يقص رحلته على أحد خلانه ويخبره عن

مشاهداته. فقد كان منيبوس يحتار في آراء بعض الفلاسفة والشعراء التي وصلت إليه فرأى أن أفضل حل لحيرته هو مقابلة هؤلاء وسؤالهم مباشرة. ويخبر صديقه كيف أنه استعان بأحد العرافين في بابل لدخول العالم الأسفل، ومغامرة عبور البحيرة الفاصلة (قارن مع عبور ابن القارح للسراط) ومصير طبقات الشعب كافة في العالم الأسفل، ومن ثم وصفه للفلاسفة والأدباء السابقين، وما آلت إليه أحوالهم في العالم الأسفل. وفي قطعة أخرى عنوانها «حوارات الموتى» نجد منيبوس من جديد في حديثه مع الفلاسفة بحيث يصح الظن أن القطعتين هما في الواقع عمل واحد متكامل. لكن يبدو أن أحداً من دارسي لوقيان لم يعمد إلى جمع هذه القطع في عمل واحد. فأنت إن أخذت عمل لوقيانس وأبدلت منيبوس بابن القارح وفلاسفة اليونان وأدباء الإغريق بشعراء العرب واللغويين حصلت على نسق وروح رسالة الغفران. ولا يجب أن يحمل ذلك إلى القول إن المعري نقل عن لوقيان، إذ ليس من دليل إطلاقاً أن أعمال لوقيان كانت معروفة في المشرق العربي بعد الفتح أو أن هذه الأعمال ترجمت إلى العربية قبل القرن العشرين. ولعل المقارنة بين أعمال لوقيان ورسالة الغفران وبين لوقيان والمعري عموماً أمر حري بالدراسة.

4 ـ خاتمة

لتسهيل تدبر القارىء لرسالة الغفران قمنا بقسمة النص إلى فصول والفصول إلى مقاطع لتبيان مسرى القصة بوضوح أكثر. وقد قدمنا في التمهيد الذي يلي هذه المقدمة بملخص لأحداث الرسالة مع بعض التعليق للغاية ذاتها. وقد أضفنا بعض الحواشي في شرح ما صعب فهمه من المفردات مكتفين بذلك بما هو ضروري لكلمات لا يتضح معناها من مسار النص. وأشرنا أيضاً في الحواشي إلى مصادر الآيات القرآنية.

وقد رأينا أن نثبت في آخر الكتاب بضعة ملاحق لها علاقة وثيقة بموضوعه، ومنها، خصوصاً ملحق «أبيات الشك والتحدي» وهو مجموعة من أبيات المعري في موضوع الدين والدنيا، رأينا أنها تساعد القارىء على تدبر التوافق بين ما يجده في رسالة الغفران وما ورد في اللزوميات. ومنها ملحق «رسالة الملائكة» وأوردنا من هذه الرسالة مقاطع على سبيل المثال لشبهها الكبير برسالة الغفران أسلوباً ومعنىً.

وقد استفاد الكاتب من نصح ومساعدة وعناية صديقه الراحل الدكتور حسني

حداد، لذلك كان إهداء الكتاب إليه. وقد كانت مساهمة الدكتور حداد الكبرى في اختيار كثير من الأبيات الواردة في ملحق «أبيات الشك والتحدي».

في اعتقادنا أن رسالة الغفران مدخل ممتاز لتدبر نظرة أبي العلاء الفلسفية إلى الدين والحياة والأدب. ولكي تكون رسالة الغفران هذا المدخل وجب إخراج النص المحوري ووضعه بشكل متكامل وغير متقطع السرد بين يدي القارىء وتوفير مواد أخرى من تراث المعري تلقي أضواء على هذه الناحية. هذا مرادنا من هذا الكتاب، وعسانا توفقنا إلى ذلك.

د. سليم مجاعص

شيكاغو، أميركانية، آب 1998

يمكن قسمة النسق السردي في رسالة الغفران إلى ستة فصول هي:

1 ـ ابن القارح في الجنة.

2 ـ قصة دخول ابن القارح إلى الجنة.

3 ـ ابن القارح في الجنة أيضاً.

4 ـ في الطريق إلى أهل النار.

5 ـ ابن القارح مع أهل النار.

6 ـ ابن القارح في الجنة أيضاً وأيضاً.

في الفصل الأول نجد ابن القارح يلتقي ويحاور عدداً من الشعراء والأدباء والنحويين الذين أنعم عليهم فدخلوا الجنة. وبين هؤلاء الكثير من مشاهير الشعراء من مثل الأعشى وزهير بن أبي سلمى والنابغة الذبياني. ويتبع الحوار شكلاً متكرراً إذ يسأل ابن القارح الشاعر بما غفر له (إن كان يحتاج إلى الغفران!) ثم يعمد إلى سؤال كل شاعر عمّا غمض من شعره أو ما قد يكون قد حصل له في حياته. وفي سؤاله عن الشعر يعمد غالباً إلى الإشارة إلى أغلاط في الصرف أو النحو أو النظم قد يكون وقع فيها الشاعر. إلا أن هذه الإشارات هي غالباً في شكل أسئلة بريئة المظهر فلا تثير غضب الشاعر. إلا أن ذلك لا يمنع من قيام الشغب في الجنان بين الشعراء أنفسهم وخصامهم كما نرى في مسألة خلاف النابغة الجعدي مع الأعشى. فالجنة ليست كلها سلام ووئام. ويطرّز المعري سرده لهذه الحوارات بمشاهد يصف فيها ما يرتع فيه أهل الجنة من نعيم من مثل تحول الأوز إلى قيان مغنيات.

في الفصل الثاني نجد ابن القارح يقص على سامعيه من أهل الجنة تفاصيل دخوله إلى الجنة، مبتدئاً بفشله مع رضوان خازن الجنة ثم مع زفر خازن الجنة إذ إن أي منهما لا يقدر الشعر الذي ينظمه ابن القارح في مديحهما! ولولا توسط عم النبي ثم الإمام علي لما استطاع ابن القارح أن يقرب من النبي. وفي هذه القصة يدرج أبو العلاء حوادث فكاهية من مثل أن ابن القارح أضاع صك توبته لشرود ذهنه عند سماعه مبارزة لغوية، وتأخر قاضي حلب بالظهور للشهادة له ولاستحالة عبور ابن القارح للسراط لو أن إحدى جواري فاطمة الزهراء لم تحمله على ظهرها!

في الفصل الثالث يعود المعري إلى وصف مسيرة ابن القارح في الجنة ويتوسع في هذا الفصل بتعداد فوائد الحياة في الجنة. فابن القارح يقيم مأدبة في الجنان لأهل العلم والأدب هي من عجائب الأمور ويتخلل المأدبة رقص وغناء. ولا يكتفي ابن القارح بمشروبات الجنة بل يشتهي الجعة فتنتج له على أفضل ما يكون. ثم يصل إلى منتهى سعادته في لقاء الحور عين وكيف أن الله يقوم بتحويلهن مكرراً لموافقة ذوق ابن القارح.

في الفصل الرابع يسعى ابن القارح إلى إطراف الجنة ليرى من مِنَ الشعراء والأدباء كان نصيبه النار وليشفي غليله بسؤالهم عن بعض الأمور في شعرهم. وفي طريقه إليهم يمر بجنة العفاريت ويدور حوار مشوق بينه وبين سيد الجن، ويلقي هذا الأخير على مسمعه قصيدتين حول مآتي الجن وتاريخهم. وهاتان القصيدتان من نظم المعري ولا شك، وفيهما من السخرية والنقد الشيء الكثير. وبعد ذلك يلتقي ابن القارح ببعض حيوانات الجنة ومنها الأسد الذي التهم أبا لهب! وعلى أطراف الجنة كوخ حقير يسكنه الحطيئة!

في الفصل الخامس يحاور ابن القارح أهل النار وهو مشرف عليهم من أطراف الجنة حيث لا يستطيع إبليس أو زبانيته الإمساك به. وبين هؤلاء معظم أصحاب المعلقات. وإذا استثنينا بشار بن برد والأخطل وجدنا أن معظم شعراء أهل النار ينتمون إلى الجاهلية. ويتحدث ابن القارح مع بشّار بن برد وامرىء القيس وعنترة وطرفة والأخطل وتأبط شراً وغيرهم. وعلى الرغم من أن حواره مع كل منهم قصير (فهو يحادث خمسة عشر شاعراً)، إلا أن فحواه كان غالباً في المديح وأقل منه في النقد.

في الفصل السادس يعود ابن القارح يتجول في الجنة، فيصادف آدم ويحادثه في أمر الشعر المنسوب إليه فيبلغه هذا الأخير أنه تكلم العربية في الجنة أصلاً، ثم لما طرد منها انقلبت لغته إلى السريانية ثم مجدداً إلى العربية عند عودته إلى الجنة بعد موته، فالعربية هي لغة الجنة الوحيدة! ولما كان آدم قد لهج بالسريانية في حياته فقد استحال عليه أن ينظم الشعر بالعربية. فكل ما نسب إليه ولا شك منحول. وبعد آدم يصادف ابن القارح الحيات ويحادثهن ثم يهرب منهن عندما يتوددن إليه ويعود إلى الحور عين. وإذ يمضي مع إحداهن في نزهة يمر بجنة الرجز، ويقوم خصام بينه وبين رؤبة أحد شعراء الرجز ينتهي بتدخل شاعر رجز آخر هو العجاج. وبعد هذه الحادثة ينهي المعري قصته بتصور ابن القارح راتلاً في نعيم من السندس ومحاطاً بالحور عين، ثم يعود إلى الإجابة على الرسالة.

وقد وضعنا في ما يلي هذا التمهيد، فهرساً لهذه الفصول مع عناوين فرعية للمقاطع لتسهيل تدبر النص.

فهرس الرسالة ومقاطعها

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

I

في الجنّة

مدخل

وصف عام للجنة

وقد وصلت الرسالةُ[1] التي بحرُها بالحِكَم مسجورٌ، ومَنْ قرأها مأجورٌ، إذ كانت تأمُرُ بتقبُّل الشرعِ، وتعيبُ من ترك أصلاً إلى فرعٍ. وغَرِقتُ في أمواجِ بِدَعِهَا الزاخرَةِ، وعجبتُ من اتّساقِ عقودِها الفاخرة، ومثلُها شَفَعَ ونَفَعَ، وقرّبَ عند الله ورفَعَ. وألفيتُها مُفتَتَحةً بتمجيدٍ، صَدَر عن بليغٍ مُجيد، وفي قدرةِ ربِّنا، جَلّت عَظَمتُهُ، أن يجعلَ كلّ حرفٍ منها شَبَحَ نُورٍ، لا يمتزجُ بمقالِ الزُّورِ؛ يستغفرُ لمن أنشأها إلى يومِ الدين، ويذكرُهُ ذِكرَ مُحبٍّ خَدين. ولعلّه، سبحانه، قد نَصَبَ لسطورِها المُنجِيةِ من اللَّهَبِ، معاريجَ من الفِضّةِ أو الذَّهبِ، تَعرجُ بها الملائكةُ من الأرضِ الراكدةِ إلى السماءِ، وتكشِفُ سجوفَ الظّلماءِ، بدليل الآية: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[2].

وهذه الكلمةُ الطيبةُ كأنّها المعنيّةُ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[3].

وفي تلك السطور كلِمٌ كثيرٌ، كلّه عند الباري، تقدّسَ، أثيرٌ. فقد غُرِسَ لمولايَ

(1) رسالة ابن القارح إلى أبي العلاء.

(2) سورة فاطر، الآية 10.

(3) سورة إبراهيم، الآية 24 ـ 25.

الشيخِ الجليلِ، إن شاءَ الله، بذلك الثناءِ، شجرٌ في الجَنّةِ لذيذُ اجتناءٍ، كلُّ شجرةٍ منه تأخذُ ما بين المشرق إلى المغرِب بظلٍّ غاطٍ، ليست في الأعْيُنِ كذاتِ أنواطٍ.

والوِلدانُ المخلَّدون في ظِلال تلك الشجر قيامٌ وقعود، وبالمغفِرةِ نِيلَتِ السُّعودُ؛ يقولون، والله القادرُ على كلِّ شيءٍ عزيز: نحنُ وهذه الشجرُ صِلَةٌ من الله لعليِّ بنِ منصور[1]، نُخبأُ لهُ إلى نفخِ الصُّور.

وتجري في أصول ذلك الشجرِ، أنهارٌ تُختَلَجُ من ماءِ الحيوان، والكوثرُ يمدُّها في كلِّ أوانٍ؛ مَن شرِبَ منها النُّغبةَ فلا موتَ، قد أَمِنَ هنالك الفَوتَ. وسُعُدٌ[2] من اللبنِ متخرِّفاتٌ[3]، لا تُغيَّرُ بأن تطولَ الأوقاتُ. وجعافرُ[4] من الرحيقِ المختوم، عَزَّ المقتدرُ على كلِّ محتوم. تلك الراحُ الدائمةُ، لا الذميمةُ ولا الذائمةُ[5]، بل هي «عَلْقمةُ» مفترياً، ولم يكن لعفوٍ مقترياً[6]:

تشفي الصُّداعَ ولا يُؤذيهِ صالبُها، ولا يُخالطُ منها الرأسَ تَدْويمُ

ويعمِدُ إليها المغترفُ بكؤوسٍ من العَسجدِ، وأباريقَ خُلِقت من الزبرجد، ينظر منها الناظرُ إلى بَدِيّ، ما حَلَمَ به أبو الهنديّ، رحمهُ الله، فلقد آثرَ شرابَ الفانيةِ، ورَغِبَ في الدَّنيّةِ الدّانية.

ولو رأى تلك الأباريقَ «أبو زُبَيْدٍ» لَعَلِمَ أنّه كالعبدِ الماهنِ[7] أو العُبَيْد، وأنّه ما تشبّث بخيرٍ، ورضيَ بقليلِ المِيَرِ[8]، وهزِىء بقوله:

وأباريقُ مِثْلُ أعناقِ طَيرِ الـ ـماءِ قد جِيبَ فوقَهُنَّ خَنِيفُ[9]

هيهات! هذه أباريقُ، تحملُها أباريقُ، كأنّها في الحسنِ الأباريقُ[10].

---

(1) ابن القارح.
(2) نهر صغير.
(3) متسعات.
(4) أنهر.
(5) المحتقرة.
(6) طالباً.
(7) الخادم.
(8) المؤونة.
(9) الكتان الرديء.
(10) أي أن جارية حسناء تحمل إبريقاً وهي لجمالها تبرق!

ولو نظر إليها «علقمةُ» لَبرِقَ وفَرِق، وظَنّ أنّه قد طُرِقَ، وأين يراها المسكينُ علقمةُ، ولعلّهُ في نار لا تَخِير، ماؤها للشاربِ وغِير[1]؟ ما «ابْنُ عَبْدَةَ» وما فريقُهُ؟! خَيرَ وَكُبيرَ إبريقُهُ! أليس هو القائل:

كأنّ إبريقَهُمْ ظبيٌ بِرابِيَةٍ مُجَلّلٌ، بسَبَا الكتّانِ مَفدومُ
أبيضُ أبرزَهُ للضِحِّ[2] راقِبُهُ، مُقَلَّدٌ قُضُبَ الرَّيحانِ، مَفغُومُ[3]

نظرةٌ إلى تلك الأباريقِ، خيرٌ من بنتِ الكَرْمةِ العاجليةِ، ومن كلّ ريقٍ، ضَمِنَتْهُ هذه الدارُ الخادعةُ، التي هي لكلّ شَمَمٍ جادعةٌ[4].

ويعارضُ تلك المُدامَةَ أنهارٌ من عسلٍ مصفًى ما كَسَبَتْهُ النحلُ الغاديةُ إلى الأنوارِ[5]، ولا هو في مُومٍ[6] مُتَوارٍ، ولكنْ قال له العزيزُ القادرُ: كن فكان، وبكرمِهِ أعطي الإمكان. واهاً لذلكَ عسلاً، لم يكن بالنار مُبسَلا لو جعله الشاربُ المحرورُ غذاءه طولَ الأبدِ ما قُدِرَ له عارضُ موم، ولا لَبِسَ ثوبَ المحموم؛ وذلك كلُّه بدليلِ قولِهِ: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾[7].

ولوْ خالط من عسل الجِنانِ، ما خلقَهُ الله، سبحانَه، في هذه الدارِ الخادعة، كالصابِ[8]، والمَقِرِ[8]، والسَّلَعِ[8]، والجَعْدَةِ[8]، والشّيحِ[8]، والهَبِيدِ[8]، لعاد ذلك كلُّه، وغيرُهُ من المُغْقِيات[8]، يُعَدُّ من اللذائذِ المرتقيات، فآضَ[9] ما كُرِهَ من الصّابِ، كأنّه المُعْتَصَرُ من المُصاب[10].

---

(1) حار ساخن.
(2) الشمس.
(3) ممتلىء رائحة طيبة.
(4) قاطعة.
(5) الزهور.
(6) شمع.
(7) سورة محمد، الآية 15.
(8) أنواع من النبات المر الطعم.
(9) فأصبح.
(10) قصب السكر.

وأمسى الحَدَجُ[1] وكأنَّهُ المتَخَذُ «بالأهواز»، إلاَّ يَكُن السُّكَرَ، فإنَّهُ مُوَازٍ؛ ولصارت الراعيةُ في الإبل، إذا وجدت الحنظلةَ أتحفت بها السيدةَ المُحظَلَةَ.

وانقطعت معايشُ أرباب القَصَبِ في ساحِلِ البحر، وصُنعَ من المُرِّ الفالوذُ المُحْكَمُ بلا سِحْر.

وإذا مَنَّ الله تَبَارَكَ اسمُهُ بورودِ تلكَ الأنهار، صادَ فيها الواردُ سَمَكَ حَلاَوَةٍ، لم يُرَ مِثْلُهُ في مِلاوَةٍ[2]؛ لو بَصُرَ به «أحمدُ بنُ الحُسَيْنِ» لاحْتَقَرَ الهَدِيَّةَ التي أهْدِيَتْ إليه فقال فيها:

أَقَلُّ مَا فِي أَقَلِّهَا سَمَكٌ، يَلْعَبُ فِي بِرْكَةٍ مِنَ العَسَلِ

فأمّا الأنهارُ الخمريةُ، فَتَلْعَبُ أسماكٌ هي على صُوَر السَّمَكِ بَحريَّةٌ ونَهريَة، وما يَسكُن منهُ في العُيونِ النَّبْعِيَّة، ويَظفَرُ بضُرُوبِ النَّبْتِ المَرعِيَّة، إلاَّ أنّه من الذَّهَبِ والفِضَّة وصُنوفِ الجواهر، المقابَلَةِ بالنُّور الباهر. فإذا مَدَّ المُؤمنُ يَدَه إلى واحدةٍ مِن ذلك السَّمَك، شَرِبَ منْ فيها عَذْباً لو وَقَعَتِ الجُرعةُ منه في البحر الذي لا يستطيع ماءَهُ الشاربُ، لَحَلَتْ منه أسافِلُ وغَوارِبُ؛ ولَصَارَ الضَّمَرُ[3] كأنّه رائحة خُزامى[4] سَهْلٍ، طَلَّتْهُ الدّاجنَةُ بدَهْل، أو نشرُ مُدامٍ خَوّارَةٍ، سَيّارَةٍ في القُلَل سَوّارة.

اللغويون في الجنة

وكأنّي به، أدامَ الله الجمالَ ببقائه، إذا استحقَّ تلك الرُّتبة، بيَقين التَّوبة، وقد اصطفى له نَدَامى من أدباء الفِرْدوس[5]: «كأخي ثُمالة»، و «أخي دَوْس»، و «يونُسَ بن حبيب الضَّبّيِ»، و «ابنِ مسعدةَ المُجاشعيِّ»، فهم كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿ونَزَعْنا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إخواناً على سُرُرٍ مُتَقابِلين، لا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ وما هم منها بمُخْرَجين﴾[6]: فصَدْرُ «أحمدَ بنِ يحيَى» هنالك قد غُسِلَ من الحقد على «محمد بن

---

(1) أنواع من النبات المر الطعم.

(2) برهة أو لحظة.

(3) الرائحة النتنة.

(4) زهر طيب الرائحة.

(5) الأسماء في هذا المقطع هي لِلُغَوِيّين اشتهروا بمخاصماتهم مع بعضهم البعض.

(6) سورة الحجر، الآية 47 ـ 48.

يزيد»، فصارا يَتصافيان ويَتَوافَيان، كأنّهما نَدْمانا جَذيمة، مالكٌ وعَقيل، جَمَعَهُمَا مَبيتٌ ومَقيل. و «أبو بِشْرٍ، عمرو بنُ عُثمانَ سيبويه» قد رُحِضَتْ[1] سُويداءُ قلبه من الضِّغْنِ على «عليّ بن حمزة الكسائيّ» وأصحابه، لِما فعلوا به في مجلس البرامكة. و «أبو عُبَيدة» صافي الطويّة «لعبد الملك بن قُرَيْب»، قد ارتَفَعَتْ خُلّتُهُما عن الرّيبِ؛ فهُما «كأرْبَدَ ولَبيدٍ» أخَوان، أو «ابني نُوَيْرَةَ» فيما سَبَقَ من الأوان، أو «صخرٍ ومُعاوية: وَلَدَيْ عَمْرو»، وقد أخْمَدا منَ الإِحَنِ كُلَّ جَمر. «والملائكة يَدْخلون عليهم من كلّ باب، سَلامٌ عليكم بما صبرتم فَنِعْمَ عُقْبَى الدّار»[2]. وهو، أيّدَ ٱللّهُ العِلمَ بحياته، معهم كما قال «البكريّ»:

نازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرّيحانِ مُرْتَفِقاً، وَقَهْوَةً مُزّةً، رَاوُوقُها خَضِلُ
لاَ يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهْيَ رَاهِنَةٌ إلاّ بِهاتِ، وإنْ عَلّوا وإن نَهِلُوا
يَسْعَى بها ذو زُجاجاتٍ لهُ نُطَفٌ مُقَلِّصٍ أسفَلَ السِّرْبالِ، مُعتَمِلُ
ومُسْتَجيبٍ لصَوْتِ الصَّنْجِ يَسْمَعُهُ إذا تُرَجِّعُ فيهِ القَيْنَةُ الفُضُلُ

وأبو عُبيدَةَ يُذاكرهم بوقائعِ العربِ ومقاتِلِ الفُرسانِ، و «الأصمَعيُّ» يُنشدهم من الشعر ما أحسَنَ قائلُهُ كلّ الإحسان.

وتَهَشّ نُفوسُهُم للّعِبِ فيَقذِفونَ تلك الآنِيَةَ في أنهارِ الرّحيقِ، ويُصَفّقُها الماذيُّ[3] المُعترِضُ أيّ تصفيق، وتَقترعُ تلك الآنيةُ، فيُسمَعُ لها أصواتٌ، تُبْعَثُ بمثلها الأمواتُ. فيقول الشيخ، حَسّنَ الله الأيّامَ بِطُولِ عُمْرِهِ: آهٍ لِمَصرَعِ «الأعشى ميمون»، وكم أعْمَلَ من مطيّةٍ أمُون!! ولقد وددْتُ أنّه ما صدّته قُرَيشٌ لمّا توجّهَ إلى النبيّ ﷺ. وإنّما ذكرتُهُ الساعةَ لمّا تَقارَعَتْ هذه الآنيةُ بقوله في الحائيّة:

وشَمُولٍ[4] تَحْسَبُ العينُ، إذا صُفِّقَتْ، جُنْدُعَها نُورَ الذُّبَحْ[5]
مثلِ ريحِ المِسكِ ذاكٍ ريحُها، صَبّها الساقي إذا قيلَ: تَوَحْ[6]

---

(1) غسلت.

(2) سورة الرعد، الآية 23 ـ 24.

(3) العسل.

(4) الخمر.

(5) نبات قشره أسود ولبه أبيض.

(6) أسرع.

من زِقاقِ التَّجْرِ[1] في باطِيَةٍ[1] جَوْنَةٍ، حارِيَّةٍ، ذاتِ رَوَح

ذاتِ غَوْرٍ، ما تُبالي يَوْمَها، غَرَفَ الإبريقُ منها والقَدَح

وإذا ما الرّاحُ فيها أُزْبِدَتْ أَفَلَ الإزْبادُ عنها، فَمَصَخ

وإذا مَكْوكُها[1] صادَمَهُ جانِباها، كَرَّ فيها فَسَبَخ

فَتَرامَتْ بِزُجاجٍ مُعْمَلٍ يُخْلِفُ النّازِحَ مِنْها ما نَزَح

وإذا غاضَتْ رَفَعْنا زِقَّنا طُلُقَ الأوْداجِ فيها فانسَفَح

ولو أنه أسلَمَ، لجاز أن يكون بيننا في هذا المجلس، فيُنشدَنا غَريبَ الأوزان، ممّا نَظَمَ في دار الأحزان، ويُحدِّثنا حَديثَه مع «هَوْذَةَ بن عليّ»، و «عامِرِ بنِ الطُّفَيْل»، و «يَزيد بنِ مُسْهِرٍ»، و «عَلْقَمَةَ بنِ عُلاثَة»، و «سَلامَةَ بن ذي فائِش»، وغيرهم ممّن مَدَحَه أو هَجاه، وخافَه في الزمن أو رجاه.

ثمّ إنه، أدامَ الله تَمكينَه، يَخْطِرُ له حديثُ شيءٍ كان يسمّى النُّزهَةَ في الدار الفانية، فيركَبُ نَجيباً من نُجُبِ الجَنّةِ خُلِقَ من ياقوتٍ ودُرٍّ، في سَجْسَجٍ بَعُدَ عَنِ الحَرّ والقُرّ، ومعه إناء فَيْهجٍ[2]، فيَسيرُ في الجَنّةِ على غيرِ مَنْهَجٍ؛ ومعه شيء من طعامِ الخُلودِ، ذُخِرَ لوالدِ سَعدَ أو مولودٍ، فإذا رأى نَجيبَه يُمْلِعُ[3] بين كُثْبانِ العَنْبر، وضَيْمُرانٍ[4] وُصِلَ بِصَعْبَرٍ[4]، رفعَ صوتَه مُتَمثِّلاً بقول «البَكْريّ»:

لَيتَ شِعري متى تَخُبُّ[5] بنا النّا قَةُ نحوَ العُذَيْبِ فالصَّيْبُونِ

مُحْقِباً زُكْرَةً، وخُبْزَ رُقاقٍ، وحِباقاً، وقِطْعَةً مِنْ نُونِ[6]

اللقاء مع الأعشى

فيهتِف هاتفٌ: أتَشعُر أيها العبدُ المغفورُ له لمن هذا الشعرُ؟ فيقولُ الشيخُ: نعم، حدَّثَنا أهلُ ثِقَتنا عن أهلِ ثِقَتِهم، يَتَوارثونَ ذلك كابراً عن كابِرٍ، حتى يَصِلُوه «بأبي عمرو

---

(1) أسماء لآنية الخمر.
(2) خمر.
(3) يسرع.
(4) أنواع من الشجر.
(5) تسرع.
(6) البيت وصف ما تحمله الناقة إبان الترحال.

ابن العلاء»، فيرويَه لهم عن أشياخ العرب، حَرَشَةِ الضِّبابِ في البلادِ الكَلَدات، وجُناةِ الكَمأةِ في مغاني البُداة، الذين لم يأكلوا شِيرازَ الألبان، ولم يجعلوا الثمرَ في التُّبانِ، أنّ هذا الشعرَ «لمَيمونِ بنِ قيسِ بن جندلٍ أخي بني ربيعةَ بن ضُبَيعةَ بن قيس بن ثعلبةَ بن عُكابة بن صعب بن عليّ بن بكر بن وائلٍ». فيقول الهاتفُ: أنا ذلك الرجلُ، مَنّ الله عليّ بعدما صِرْتُ من جهنّمَ على شَفير، ويئستُ من المغفرة والتّكفير. فيلتفِتُ إليه الشيخُ هَشّاً بَشّاً مرتاحاً، فإذا هو بشابٍ غُرانِقٍ[1]، غَبَرَ في النّعيمِ المُفانِقِ[2]، وقد صار عَشاه[3] حَوَراً مَعروفاً، وانحناءُ ظهره قَواماً موصوفاً، فيقولُ: أخبِرني كيف كان خلاصُك من النار، وسَلامتُك من قَبيحِ الشنار؟ فيقول: سَحَبتني الزبانيَةُ إلى سَقَر، فرأيتُ رجلاً في عَرَصاتِ القيامةِ يَتلألأ وجهُهُ تلألُؤ القمر، والنّاسُ يهتفون به من كلّ أوْبٍ: يا محمّد يا محمّد، الشّفاعةَ الشّفاعةَ! نَمُتُّ بكذا ونَمُتُّ بكذا. فصرختُ في أيدي الزبانيَة: يا محمّد أغِثْني فإنّ لي بكَ حُرْمةً! فقال: يا عليّ بادِرْه فانظُرْ ما حُرْمَتُهُ؟ فجاءني عليّ بن أبي طالب، صلوات الله عليه، وأنا أُعتَلُ[4] كي أُلقَى في الدّرَكِ الأسفَلِ من النّار، فزَجَرَهم عني، وقال: ما حُرْمتُك؟ فقلتُ: أنا القائل:

ألا أيُّهذا السّائلي أينَ يَمّمَتْ، *** فإنّ لها في أهلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا
فآلَيتُ لا أرْثي لها من كَلالَةٍ، *** ولا من حَفًى، حتى تُلاقي محمّدَا
متى ما تُناخي عندَ بابِ ابْنِ هاشِمٍ *** تُراحي، وتَلْقَيْ من فَواضِلِهِ نَدَى
أجِدَّكَ لم تَسْمَعْ وَصَاةَ محمّدٍ *** نبيِّ الإلَهِ حينَ أوْصَى وأشْهَدَا
إذا أنتَ لم تَرْحَلْ بزادٍ منَ التّقَى *** وأبصَرْتَ بعدَ الموتِ مَنْ قد تَزَوّدَا
نَدِمتَ على أن لا تكونَ كَمِثْلِهِ، *** وأنّكَ لم تُرْصِدْ لِما كانَ أرْصَدَا
فإيّاكَ والمَيْتَاتِ لا تَقْرَبَنّها! *** وَلاَ تَأخُذَنْ سَهماً حَديداً لتُفصِدَا
ولا تَقْرَبَنّ جَارَةً إنّ سِرّها *** عليكَ حَرامٌ، فانكِحَنْ أوْ تَأبّدَا
نَبيٌّ يَرَى مَا لاَ يَرَوْنَ، وذِكْرُهُ *** أغارَ لَعَمري في البلادِ وأنجَدَا

ويقول «الأعشى»: قلتُ لعليّ: وقد كنت أُومِن بالله وبالحساب وأُصَدّق بالبعثِ

---

(1) شاب جميل.

(2) الأنيق.

(3) مرض العينين الذي هو سبب لقبه.

(4) اسحب.

وأنا في الجاهليّة الجَهلاء، فمن ذلك قَوْلي:

فَمَا أيْبُلِيٌّ[1] على هَيْكَلٍ، بَنَاهُ وَصَلَّبَ فِيهِ وَصَارَا
يُراوِحُ من صَلَوَاتِ المَلِيكِ طَوْراً سُجوداً وطَوْراً جُؤَارَا
بأعظَمَ منكَ تُقىً في الحِسابِ إذا النَّسَمَاتُ نَفَضْنَ الغُبَارَا

فذهَبَ عليّ إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، هذا «أعشى قَيسٍ» قد رُوِيَ مَدْحُهُ فيكَ، وشَهِدَ أنّكَ نبيّ مُرْسَلٌ. فقال: هَلاّ جاءني في الدّارِ السّابقةِ؟ فقال عليّ: قد جاءَ، ولكنْ صَدّتْهُ قُرَيشٌ وحُبُّه للخمر. فشفَعَ لي، فَأُدْخِلْتُ الجنّةَ على أن لا أشرَبَ فيها خَمراً؛ فَقَرّتْ عينايَ بذلك، وإنّ لي مَنادِحَ[2] في العَسَلِ وماءِ الحَيَوانِ[3]. وكذلك مَنْ لم يَتُبْ مِنَ الخمرِ في الدار الساخِرَةِ، لم يُسقَها في الآخِرَةِ.

اللقاء مع زهير بن أبي سلمى

ويَنظُر الشيخُ في رِياضِ الجنّةِ فيرَى قَصرَينِ مُنيفَينِ، فيقول في نفسه: لأبْلُغَنّ هذَينِ القَصرَينِ فأسألَ لمن هما؟ فإذا قَرُبَ إليهما رأى على أحدِهما مكتوباً: «هذا القصرُ لزهير بن أبي سُلْمَى المُزَنيّ» وعلى الآخَر: «هذا القصرُ لعَبيدِ بن الأبرَصِ الأسَديّ» فيَعْجَبُ من ذلك ويقول: هذانِ ماتا في الجاهليّة، ولكنّ رحمةَ ربّنا وَسِعَتْ كلّ شيءٍ؛ وسَوْفَ ألتَمِس لِقَاءَ هذينِ الرّجُلَينِ فأسألهما بِمَ غُفِرَ لهما. فيبتدىء بزهيرٍ فيَجِدُهُ شاباً كالزهرَةِ الجَنِيّةِ، قد وُهِبَ له قصرٌ من وَنِيّةٍ[4]، كأنّه ما لَبِسَ جِلْبَابَ هَرَمٍ، ولا تأفّف مِنَ البرَمِ. وكأنّه لم يقل في الميميّة:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً، لا أبَاً لَكَ، يَسْأَمِ!

ولم يَقُلْ في الأخرى:

ألَمْ تَرَني عُمِّرْتُ تِسْعِينَ حِجّةً، وَعَشْراً تِباعاً عِشْتُها، وثَمَانِيَا؟

فيقول: جَيرِ جَيرا أنت أبو كَعْبٍ وبُجَير؟ فيقول: نَعَم. فيقول، أدامَ الله عِزّه: بِمَ

---

(1) كاهن.
(2) سعة.
(3) الحليب.
(4) لآلىء.

www.lilas.com/NRAYAHEEN

غُفِرَ لكَ وقد كنتَ في زمانِ الفَترَةِ والنّاسُ هَمَلٌ، لا يحسُن منهم العَمَلُ؟ فيقول: كانت نَفْسي من الباطلِ نَفوراً، فصادفتُ مَلِكاً غَفُوراً، وكنت مُؤمناً بالله العظيم، ورأيتُ فيما يرى النّائمُ حَبْلاً نزلَ من السّماء، فمنْ تَعَلّقَ به من سكّانِ الأرض سَلِم، فعلمتُ أنّه أمرٌ من أمرِ الله، فأوصيتُ بَنيّ وقلت لهم عندَ الموت: إن قامَ قائمٌ يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه. ولو أدركتُ محمّداً لكنتُ أوّلَ المؤمنين. وقلتُ في الميميّةِ، والجاهليّةُ على السّكِتَةِ والسّفَهُ ضاربٌ بالجِرَانِ:

فلا تَكْتُمُنّ اللّهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى، ومهما يُكتَمِ اللّهُ يَعْلَمِ
يُؤخّرْ، فيُوضَعْ في كتابٍ، فيُدّخرْ ... ليومِ الحسابِ، أو يُعَجّلْ فيُنتَقَمِ

فيقول: ألستَ القائل؟:

وقَدْ أغْدُو علَى ثُبَةٍ كِرامٍ ... نَشَاوَى واجِدينَ لِما نَشاءُ
يَجُرّونَ البُرُودَ وقد تَمَشّتْ ... حُمَيّا الكأسِ فيهم والغِناءُ

أفأُطلِقَتْ لك الخمرُ كغيرِكَ من أصحابِ الخلودِ؟ أم حُرّمتْ عليك مثلما حُرّمت على «أعشَى قَيس»؟ فيقول زهيرٌ: إن أخا بكرٍ أدرَكَ محمّداً فوَجَبَتْ عليهِ الحُجّة، لأنّه بُعِثَ بتَحريمِ الخَمر، وحَظْرِ مَا قَبُحَ من أمر؛ وهَلَكْتُ أنا والخمرُ كغيرها من الأشياء، يَشرَبُها أتباعُ الأنبياء، فلا حُجّةَ عليّ.

فيدعوه الشيخُ إلى المُنادمة؛ فيَجدُهُ من ظِرافِ النُّدماء، فيسألُهُ عن أخبارِ القُدماء.

اللقاء مع عبيد بن الأبرص

ثمّ ينصرفُ إلى «عُبَيْدٍ» فإذا هو قد أُعطِيَ بقاءَ التأييد، فيقول: السلامُ عليك يا أخا بني أسَد. فيقول: وعليك السلام، وأهلُ الجنّة أذكياء، لا يُخالِطُهُمُ الأغبياء، لعلّك تريد أن تسألني بِمَ غُفِرَ لي؟ فيقولُ: أجلْ، وإنّ في ذلك لَعَجَباً! أألفَيتَ حُكماً للمغفرة مُوجِباً، ولم يكن عن الرّحمةِ مُحجُباً؟ فيقول عبيدٌ: أُخبرُكَ أنّي دخلتُ الهاوية، وكنتُ قلتُ في أيّام الحياة:

مَنْ يَسْألِ النّاسَ يَحْرِمُوهُ، ... وسائِلُ اللّهِ لاَ يَخِيبُ

وسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل يُنشَدُ ويَخِفُّ عنّي العذابُ حتى أُطلِقْتُ من القيودِ والأصفاد، ثمّ كُرّرَ إلى أن شمِلَتْني الرحمةُ ببركَةِ ذلك البيت، وإنّ ربّنا لَغفورٌ رَحيم.

فإذا سَمِعَ الشّيخُ، ثَبّتَ اللّهُ وطأتَهُ، ما قال ذانك الرجلانِ، طَمِعَ في سلامةِ كثيرٍ من أصناف الشّعراء.

اللقاء مع عدي بن زيد

فيَقول لعبيدٍ: ألكَ عِلْمٌ بعَديّ بن زيدٍ العِباديّ؟ فيقول: هذا منزلُهُ قريباً منك. فيَقِفُ عليه فيقولُ: كيف كانت سلامتُكَ على الصّراطِ ومَخلَصُكَ من بعدِ الإفْرَاط؟ فيقولُ: إنّي كنتُ على دينِ المسيحِ ومَن كان من أتباعِ الأنبياء قبلَ أن يُبعَثَ مُحمّدٌ فلا بأسَ عليه، وإنّما التّبِعةُ على مَنْ سَجَدَ للأصنام، وعُدّ في الجَهَلَةِ من الأنام. فيقول الشيخُ: يا أبا سَوَادَةَ، ألا تُنشدُني الصاديّةَ، فإنّها بَديعَةٌ من أشعار العرب؟ فيَنبعثُ مُنشِداً:

أبلِغْ خَليلي عَبْدَ هِنْدٍ فَلاَ ... زِلْتَ قَريباً من سَوادِ الخُصُوصْ[1]

مُوازيَ القَرّةِ[1]، أو دونَها، ... غَيرَ بَعيدٍ مِن عُمَيرِ اللُّصُوصْ[1]

تُجنَى لَكَ الكَمأةُ رِبْعِيّةً، ... بالخبّ تَندى في أُصُولِ القَصِيصْ[2]

تَقْنِصُكَ الخيلُ، وتَصطادُكَ الـ ... ـطَيرُ، ولا تُنكَعُ لهوَ القَنيصْ

تأكُلُ ما شئتَ، وتَعتَلُّها ... حمراءَ مِلحُصْ[3] كلَوْنِ الفُصُوصْ

غُيِّبْتَ عَنّي عَبدُ في ساعةِ الـ ... ـشَرِّ وجُنِّبْتَ أوَانَ العَوِيصْ

لا تَنْسَيَنْ ذِكْرِي على لَذّةِ الـ ... ـكاس وطوْفٍ بالخَذُوفِ[4] النَّحُوصْ

إنّكَ ذو عَهْدٍ وذو مَصْدَقٍ ... مُخالفاً هَديَ الكَذُوبِ اللَّمُوصْ

يا عَبْدُ هل تَذكُرُني ساعةً ... في مَوْكبٍ، أو رائداً للقَنيصْ

يوماً مَعَ الرَّكْبِ، إذا أوْفَضُوا ... نَرْفَعُ فيهم من نَجاءِ القَلُوصْ

قد يُدرِكُ المبطِئُ من حَظّهِ، ... والخيرُ قد يَسبِقُ جُهدَ الحَريصْ

فلا يَزَلْ صَدرُكَ في رِيبَةٍ، ... يَذكُرُ منّي تَلَفي أو خُلُوصْ

يا نفسِ أبقي، واتّقي شَتمَ ذي الـ ... ـأعراض، إنّ الحِلمَ ما إن يَنُوصْ

---

(1) أسماء أماكن.

(2) نوع من الشجر.

(3) نوع من الخمر.

(4) أنثى حمار الوحش.

فيقول الشيخ: أحسنت والله أحسنت، لو كنتَ الماء الراكدَ لما أسنت. وقد عملَ أديبٌ من أدباء الإسلام قصيدةً على هذا الوزن، وهو المعروف بأبي بكر بن دُرَيْدٍ، قال:

يَسْعَدُ ذو الجَدّ ويَشْقَى الحَرِيصْ، لَيسَ لِخَلْقٍ عن قَضاءٍ مَحِيصْ

ويقول فيها:

أينَ مُلوكُ الأرضِ من حِمْيَرٍ أكرَمُ مَنْ نُصَّتْ إليهم قَلُوصْ؟

«جَيْفَرُ الوَهَّابُ»، أوْدَى بِهِ، دهرٌ على هَدْمِ المَعالي حَرِيصْ

إلاّ أنّكَ يا أبا سَوادةَ أحرَزتَ فَضيلةَ السَّبْق.

وما كنتُ أختارُ لك أن تقول:

يا لَيتَ شِعري وأنَا ذو عَجّةٍ

لأنك لا تخلو من أحد أمرين:

إمّا أن تكون قد وصلتَ همزةَ القطع وذلك رديء.

فيقولُ عَديّ بنُ زيد: إنّما قلتُ كما سمعتُ أهلَ زمني يقولون، وحدَثَتْ لكم في الإسلام أشياء ليس لنا بها عِلْمٌ. فيقول الشيخ: لا أراكَ تَفْهَمُ ما أريدُهُ من الأغراض، ولقد هممتُ أن أسألَك عن بيتك الذي استشهد به سيبَوَيه، وهو قولك:

أرَواحٌ مُوَدِّعٌ أمْ بُكُورُ، أنتَ، فانْظُرْ لأيّ حالٍ تَصِيرُ

فإنّهُ يَزْعُمُ أنّ (أنتَ) يجوز أن يرتفع بفعلٍ مُضمَرٍ يُفَسِّرُهُ قولُك: فانظرْ، وأنا أستبعدُ هذا المذهَبَ ولا أظنّكَ أردتَه. فيقول عَديّ بْن زيدٍ: دعني من هذه الأباطيل، ولكني كنتُ في الدار الفانية صاحبَ قَنَصٍ، ولعلّه قد بَلَغَكَ قولي:

وَلَقَدْ أغْدوا بِطِرْفٍ[1] زَانَهُ وَجهُ مَنْزُوفٍ، وَخَدٌّ كَالمِسَنّ

فهل لك أن نركبَ فرَسين من خيلِ الجنّة فنَبعثهما على صيرانِها[2]، وخيطانِ[3] نَعامِها، وأسرابِ ظِبائِها، وعاناتِ[4] حُمُرِها، فإنّ للقَنيص لَذّةً قد تَنَغّصتُ لك بها؟

(1) حصان.

(2) قطيع البقر.

(3) جماعة.

(4) قطيع.

فيقول الشيخ: إنّما أنا صاحب قَلَم وسلَم، ولم أكن صاحبَ خيل، ولا ممّن يسحب طويلَ الذَّيل، وزرتُكَ إلى منزلِكَ مُهنئاً بسلامتك من الجحيم، وتَنَعّمِكَ بعفوِ الرحيم. وما يؤمِنُني إذا ركبتُ طِرْفاً زَعِلاً[1]، رَتَعَ في رياضِ الجنّة فآضَ من الأشَرِ مُستَعِلاً، وأنا كما قال القائل:

لم يَرْكَبُوا الخَيلَ إلاّ بَعدَما كَبِرُوا فَهُمْ ثِقالٌ على أكْتافِها عُنُفُ

ويجوزُ أن يَقذِفَني السابحُ على صُخُورِ زُمُرّدٍ فيَكسِرَ لي عَضُداً أو ساقاً، فأصيرَ ضُحْكَةً في أهلِ الجِنانِ.

فَيَتَبَسّمُ عَدِيّ ويقول: وَيحَكَ! أما علمتَ أنّ الجنّة لا يُرهَبُ لَديها السَّقَمُ، تنزِلُ بسكّنِها النِّقَمُ؟ فيركبانِ سابحينِ من خَيلِ الجَنّة، مَركَبُ كلّ واحدٍ منهما لو عُدِلَ بممالك العاجلَةِ الكائنة من أوّلها إلى آخرها لَرَجَحَ بها، وزاد في القيمة عليها. فإذا نظر إلى صِوارٍ[2] تَرتَعُ في دَقاريَ الفِردَوس، صَوّبَ مولاي الشيخُ المِطرَدَ، لأخنَسَ ذَيّال، قد رَتَعَ هناك طويلَ أيّام وليالٍ؛ فإذا لم يبقَ بينَ السّنانِ وبينَه إلاّ قِيدُ ظُفرٍ، قال: أمسِكْ، رَحِمَكَ اللّهُ، فإنّي لَستُ من وحشِ الجنّة التي أنشأها اللّهُ سُبحانَهُ ولم تكن في الدار الزائلة، ولكني كنتُ في مَحلّةِ الغرورِ أرُودُ في بعضِ القِفار، فمرّ بي رَكْبٌ مؤمنونَ قد كَرِيَ[3] زادُهم، فصرَعوني واستَعانوا بي على السّفَر، فعوّضَني اللّهُ، جَلّتْ كَلِمَتُهُ، بأن أسكَنَني في الخلود. فيَكُفّ عنه مولايَ الشيخُ الجَليل.

ويَعمِدُ لِعِلْجٍ وحْشِيّ، ما التّلَفُ عنده بمَخْشِيّ، فإذا صار الخِرْصُ[4] منهُ بقَدْرِ أُنمُلَةٍ قال: أمسِكْ يا عبد الله، فإنّ اللّهَ أنعَمَ عليّ ورَفَعَ عني البُؤسَ، وذلكَ أنّي صادَني صائدٌ بمخلَب، وكانَ إهابي له كالسّلَبِ، فباعَهُ في بعضِ الأمصار، وصَرّاهُ للسّانِيَةِ صارٍ، فاتُّخِذَ منهُ غَرْبٌ، شُفِيَ بمائِهِ الكَرْبُ، وتَطَهّرَ بنزيعِهِ[5] الصّالحون، فشَمِلَتني بركةٌ من أولئك، فدخلتُ الجنّةَ أُرزَقُ فيها بغير حساب. فيقول الشيخ: فينبغي أن تتميّزَنَ، فما

(1) الفرس النشيط.

(2) قطيع من البقر.

(3) نقص.

(4) الرمح.

(5) ماءه.

كانَ منكنّ دخَلَ الفانيةَ فما يجبُ أن يَختَلِطَ بوُحوشِ الجنّة. فيقول ذلك الوَحشيُّ: لقد نَصحتَنا نُصْحَ الشفيق، وسوفَ نَمْتَثِلُ ما أمَرْتَ.

اللقاء مع أبي ذؤيب الهذلي

وينصرفُ مولايَ الشيخُ الجليلُ وصاحبُهُ عَديٌّ، فإذا هما برَجُلٍ يَحتَلِبُ ناقةً في إناءٍ من ذَهَب، فيقولان: مَنِ الرّجُلُ؟ فيقول: أبو ذُؤيبِ الهُذَليّ. فيقولان: حُيّيتَ وسَعِدْتَ، لا شَقِيتَ في عَيشِكَ ولا بَعدت، أتَحتَلِبُ مع أنهارِ لبن؟ كأنّ ذلك من الغَبَن. فيقولُ: لا بأس! إنما خَطَرَ لي ذلك مثلَما خَطَرَ لكُما القَنيصُ، وإنّي ذكرتُ قولي في الدّهر الأوّل:

وإنّ حَديثاً منكِ، لَوْ تَعلَمينَهُ، جنى النحل في ألبانِ عُوذٍ مَطافِلِ[1]

مَطافيلَ أبكارٍ، حديثٍ نِتاجُها، تُشابُ بِماءٍ مثلِ ماءِ المَفاصِلِ

فَقَيّضَ اللهُ بِقُدرَتِهِ لي هذِهِ النّاقةَ عائِذاً مُطفِلاً، وكان بالنّعَم مُتكفّلاً؛ فقُمتُ أحتلِبُ على العادةِ، وأريدُ أن أشوبَ ذلك بضَرَبِ[2] نَحل، تَبعَنَ في الجنّةِ طريقةَ الفَحلِ.

فإذا امتلأ إناؤهُ من الرِّسْلِ[3]، كوّنَ الباري، جلّتْ عظَمَتُهُ، خَليّةً من الجوهر، رَتَعَ ثَوْلُها[4] في الزّهَرِ، فاجتنى ذلك أبو ذُؤَيب، ومَزَجَ حليبَهُ بلا رَيب، فيقولُ: ألا تَشرَبانِ؟ فيَجرَعانِ من ذلك المِحلَبِ جُرَعاً لو فُرّقَتْ على أهلِ سَقَرَ لَفازوا بالخُلد شَرَعاً. فيقول عَدِيّ: ﴿الحَمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتديَ لولا أن هدانا الله. لقد جاءتْ رُسُلُ رَبّنا بالحقّ، ونُودوا أن تِلكُمُ الجنّةُ أورِثتُمُوها بما كنتم تَعمَلونَ﴾[5].

ويقولُ، أدامَ تَمكينَه، لعَديّ: جئتَ بشيئين في شِعْرك، وَدِدْتُ أنّكَ لم تأتِ بهما: أحدُهما قولك:

فَصافَ يُفَرّي جُلّهُ عن سَراتِهِ يَبُذّ الرِّهانَ فارِهاً مُتَتابِعَا

والآخرُ قولُك:

---

(1) الناقة المرضعة.

(2) عسل.

(3) اللبن.

(4) نحلها.

(5) سورة الأعراف، الآية 43.

فلَيتَ دَفَعتَ الهَمّ عَنّيَ ساعةً، فتُمْسي على ما خيّلَتْ ناعِمَيْ بالِ

فيقولُ عديّ بعباديّته: يا مَكبور، لقد رُزِقتَ ما يَجِبُ أن يشغلك عن القريض، إنّما ينبغي أن تكون كما قيلَ لك: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تَعْمَلونَ﴾[1]. فيقول: زادَ اللّهُ في أنفاسه: إني سألتُ ربّي عزّ سُلطانُهُ، ألاّ يحرِمَني في الجنّةِ تَلَذُّذاً بأدبي الذي كنتُ أتلَذَّذُ به في عاجلتي، فأجابني إلى ذلك، ﴿ولهُ الحمد في السموات والأرضِ وعَشِيّاً وحينَ تُظهِرون﴾[2].

اللقاء مع النابغة الذبياني والنابغة الجعدي

ويَمضي في نُزهَتِهِ تلك بشابّين يَتحادَثان، كلّ واحدٍ منهما على بابِ قَصْرٍ من دُرّ؛ قد أُعفيَ من البؤسِ والضُرّ. فيُسلّمُ عليهما ويقول: من أنتما، رَحِمَكما الله، وقد فَعَلَ؟ فيقولان: نحن النابغَتان، نابغةُ بني جَعْدة ونابغةُ بني ذُبيان. فيقول: ثَبّتَ اللّهُ وطأتَه: أمّا نابغَةُ جَعْدَةَ فقد استَوجبَ ما هو فيه بالحنيفيّة، وأمّا أنت يا أبا أُمامة فما أدري ما هَيّانُك؟ فيقول الذُبيانيُّ: إني كنتُ مُقِرّاً بالله، وحَجَجْتُ البيتَ في الجاهليّة، ألَم تَسمع قولي:

فلا لَعَمْرُ الذي قد زُرْتُهُ حِجَجاً، وما هُرِيقَ على الأنصابِ من جَسَدِ
والمؤمِنِ العائذاتِ الطّيرِ تَمسَحُها رُكبانُ مكّةَ بينَ الغَيلِ والسَّنَدِ

وقولي:

حَلَفْتُ فلَمْ أترُكْ لِنَفسِكَ رِيبَةً، وهل يأثَمَنْ ذو إمّةٍ وهوَ طائِعُ

ولم أُدرِكِ النّبيّ ﷺ، فتقومَ الحُجّةُ عليّ بخلافِهِ. وإنّ اللّهَ تقدّسَتْ أسماؤه، عَزّ مِلكاً وجلّ، يَغفِرُ ما عَظُمَ بما قَلّ. فيقول، لا زالَ قولُهُ عالياً: يا أبا سَوادةَ، ويا أبا أُمامةَ، ويا أبا ليلى اجعلوها ساعةَ مُنادَمةٍ، فإنّ من قولِ شيخنا العِباديّ:

أيُّها القَلبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ إنّ هَمّي في سَماعٍ وأذَنْ
وشَرابٍ خُسْرُوانيّ، إذا ذاقَهُ الشيخُ تَغَنّى وارْجَحَنْ

وقال:

وسَماعٍ يأذَنُ الشيخُ لَهُ وحَديثٍ مِثْلِ ماذِيّ مُشارْ

(1) سورة الطور، الآية 19.

(2) سورة الروم، الآية: 18.

فكيف لنا بأبي بَصير؟! فلا تَتمّ الكَلمةُ إلاّ وأبو بَصيرٍ قد خَمَسَهم، فيُسبّحونَ اللّهَ ويُقدّسونه ويحمَدونه على أن جَمَعَ بينهم، ويتلو، جَمّلَ الله بِبَقائِهِ، هذه الآيةَ: ﴿وهو على جَمْعِهِمْ إذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾[1].

فإذا أكلوا من طَيّباتِ الجَنّةِ، وشربوا من شَرابها الذي خَزَنَه الله لعباده المتّقين، قال، كَتَّ اللّهُ أنْفَ مُبْغِضِهِ: يا أبا أمامةَ إنّكَ لحَصيفُ الرأيِ لَبيبٌ، فكيفَ حَسَّنَ لكَ لُبّكَ أن تقول للنّعمان بن المنذر:

زَعَمَ الهُمامُ بأنّ فاها بارِدٌ　　عَذْبٌ، إذا ما ذُقْتَهُ قُلتَ ازْدَدِ
زَعَمَ الهُمَامُ، ولم أذُقْهُ، بأنّهُ　　يُشفَى بِبَرْدِ لِثاتِها العطِشُ الصّدي

ثم استمرّ بكَ القولُ، حتى أنكرَه عليك خاصّةٌ وعامّةٌ؟

فيقولُ النابغة بذكاءٍ وفَهْم: لقد ظَلَمَني مَن عابَ عليّ، ولو أنصفَ لَعَلِمَ أنّني احترزتُ أشدّ احترازٍ. وذلك أنّ النعمانَ كان مُستَهتَراً بتلك المَرأة، فأمرني أن أذكرها في شعري، فأدَرْتُ ذلك في خَلَدي فقلْتُ: إن وصفتُها وصفاً مطلَقاً، جاز أن يكون بغيرها معلّقاً. وخَشيتُ أن أذكر اسمها في النّظم، فلا يكون ذلك موافقاً للملك، لأنّ الملوك يأنفون من تسمية نسائهم، فرأيتُ أن أسنِدَ الصّفَةَ إليه فأقول: زَعَمَ الهُمامُ، إذ كنتُ لو تركتُ ذِكرَه لَظَنّ السّامعُ أنّ صِفَتي على المشاهدة، والأبياتُ التي جاءت بعدُ، داخلةٌ في وصفِ الهُمام، فمَن تأمّلَ المعنى وجدَه غير مختلّ. وكيف يُنْشِدون:

وإذا نَظَرْتَ رأيتَ أقْمَرَ مُشْرِقاً

وما بعدَهُ؟ فيقول، أرغم اللّهُ أنفَ شانِئِهِ: نُنشِدُ: وإذا نَظَرتَ، وإذا لَمَستَ، وإذا طَعَنْتَ، وإذا نَزَعتَ، على الخِطاب، فيَقول النابغة: قد يسوغُ هذا، ولكنّ الأجودَ أن تجعلوه إخباراً عن المُتكلّم، لأنّ قولي: زَعَمَ الهُمامُ، يؤدّي معنى قولنا: قال الهُمام، فهذا أسلَمُ، إذ كان الملك إنّما يحكي عن نفسه. وإذا جعلتموه على الخطاب قَبُحَ: إن نسبتموه إليّ فهو مُنْدِيَةٌ، وإن نسبتموه إلى النعمان فهو إزراءٌ وتَنَقّصٌ. فيقول، أيّدَ اللّهُ الفضلَ بزيادةِ مُدّته: لِلّهِ دَرُّكَ يا كوكبَ بني مُرّةَ، ولقد صَحّفَ عليك أهلُ العِلْمِ من الرواة، وكيفَ لي بأبَوَيْ عَمْرو: المازنيّ والشّيبانيّ، وأبي عُبيدَة، وعبدِ المَلِكِ، وغيرِهم

---

(1) سورة الشورى، الآية: 29.

من النَّقَلة لأسألهم: كيفَ يَرْوُونَ، وأنتَ شاهدٌ، لتَعلَمَ أنّي غيرُ المُتَخَرِّصِ ولا الوَلاغ؟ فلا يَقِرّ هذا القولُ في حُذُنَةِ[1] أبي أُمامةَ إلاّ والرواةُ أجمعون قد أحضرهم اللّهُ القادرُ، من غير مَشَقّةٍ نالَتهم، ولا كُلفةٍ في ذلك أصابتهم، فيُسلّمونَ بلُطفٍ ورفق. فيقول: أعلى ٱللّهُ قولَه: مَنْ هذه الشخوصُ الفِرْدَوسيّة؟ فيقولون: نحنُ الرّواةُ الذين شِئتَ إحضارَهم آنِفاً. فيقول: لا إلهَ إلاّ اللّهُ مُكوِّناً مُدَوِّناً، وسُبحانَ ٱللّهِ باعِثاً وارثاً، وتبارَكَ ٱللّهُ قادراً لا غادِراً! كيف تَرْوُونَ أيّها المرحومون قولَ النابغةِ في الداليّة: وإذا نظرْت، وإذا لمست، وإذا طَعَنْت، وإذا نَزعت، أبفتح التاء أم بضمّها؟ فيقولون: بفتحها. فيقول: هذا شيخُنا أبو أمامةَ يختارُ الضمّ، ويُخبرُ أنّه حكاهُ عن النعمان. فيقولون: هو كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿والأمرُ إليكِ فانظُري ماذا تأمرين﴾[2] فيقول: ثبّتَ ٱللّهُ كَلِمَتَهُ على التوفيق: مضى الكلامُ في هذا يا أبا أُمامة، فأنشِدْنا كلمتَكَ التي أوّلُها:

أَلِمّا على المَمْطورَةِ المُتَأبِّدَهْ، أقامَتْ بها في المَرْبَعِ المُتَجَرِّدَهْ
مُضَمَّخَةً بِالمِسْكِ مَخضُوبَةَ الشَّوَى[3] بِدُرّ وياقوتٍ لَهَا مُتَقَلِّدَهْ
كأنّ ثَنَاياها، وما ذُقتُ طَعمَها، مُجاجةُ نحلٍ في كُمَيْتٍ مُبَرَّدَهْ
ليَفْرِزْ بها النعمانُ عيناً فإنّها له نِعمَةٌ، في كلّ يومٍ مُجدَّدَهْ

فيقول أبو أمامة: ما أذكر أنّي سلكتُ هذا القَرِيَّ قطّ. فيقول مولايَ الشيخُ، زَيَّنَ الله أيّامَهُ ببقائه: إن ذلك لَعَجَبٌ، فَمَنْ الذي تطوّعَ فنسبَهَا إليك؟ فيقول: إنها لم تُنسبْ إليّ على سبيل التطوّع، ولكن على معنى الغَلط والتوهّم، ولعلّها لرجلٍ من بني ثعلبة بن سَعد. فيقول نابغةُ بني جَعْدة: صَحِبني شابٌ في الجاهليّة ونحن نريد الحِيرةَ، فأنشدني هذه القصيدةَ لنفسه، وذكرَ أنّه من ثَعْلَبَةَ بنِ عُكابة، وصادفَ قُدومُهُ شَكاةً من النعمان فلم يصلْ بها إليه. فيقول نابغةُ بني ذُبيانَ: ما أجدَرَ ذلك أن يكون!

ويقول الشيخُ، كَتَبَ الله له مَثوبةَ المُتقينَ، لنابغةِ بني جَعْدَة: يا أبا لَيلى، أنشِدْنا

---

(1) أذن.

(2) سورة النمل، الآية: 33.

(3) الأطراف.

(4) عسل.

(5) خمر.

كلمتك التي على الشين التي تقول فيها:

وَلَقَد أغدو بِشَرْبٍ أُنُفٍ، قبلَ أن يظهرَ في الأرضِ رَبَشْ
مَعَنا زِقٌّ إلى سُمْهَةٍ، تَسِقُ الآكالَ من رَطْبٍ وَهَشْ
فنزلنا بِمَلِيعٍ[1] مُقْفِرٍ مَسُّهُ طَلٌّ مِنَ الدَّجْنِ وَرَشّ
ولَدَيْنا قَيْنَةٌ مُسمِعَةٌ ضَخمةُ الأرْدافِ مِن غيرِ نَفَشْ

فيقول نابغة بني جَعْدة: ما جَعلتُ الشينَ قَطُّ رَوِيّاً، وفي هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قطّ: رَبَش، وسُمْهة، وخُشَش.

فيقول مولايَ الشيخُ الأديب المُغرَم بالعِلم: يا أبا ليلى، لقد طال عَهْدُكَ بألفاظ الفُصحاء، وشَغَلَكَ شَرابٌ ما جاءتكَ بِمِثْلِهِ بابلُ ولا أذرعاتُ، وتَنْتُكَ لُحومُ الطيرِ الرّاتعةِ في رياضِ الجَنّة، فنسيتَ ما كنتَ عرفتَ. ولا مَلامةَ إذا نسيتَ ذلك، ﴿إنّ أصحابَ الجَنّةِ اليومَ في شُغُلٍ فاكِهُونَ، هم وأزواجُهم في ظِلالٍ على الأرائكِ مُتّكِئونَ، لهمْ فيها فاكِهةٌ ولَهم ما يَدّعُونَ﴾[2].

أما رَبَش، فمن قولهم: أرضٌ رَبشاء إذا ظهرتْ فيها قِطَعٌ مِنَ النّباتِ، وكأنّها مقلوبةٌ عن بَرْشاء، وأمّا السُّمْهَةُ فشبيهةٌ بالسُّفْرَةِ تُتّخَذُ من الخُوص؛ وأمّا خُشَش فإنّ أبا عمرو الشّيبانيّ ذَكَرَ في كتاب الخاء أنّ الخُشَش وَلَدُ الظّبيَة.

فكيف تُنشِد قولَك:

ولَيسَ بِمَعروفٍ لَنا أن نَرُدَّها صِحاحاً، ولا مُستنكَراً أن تُعَقَّرا

أتقول: ولا مُستَنكَراً، أم مُستنكَرٍ؟ فيقول الجَعْديُّ: بل مُستنكَراً. فيقول الشيخُ: فإن أنشد مُنشِدٌ: مُستَنكَرٍ، ما تصنَع به؟ فيقول؛ أزجُرُه وأزبُرُه[3]، نَطَقَ بأمرٍ لا يَخْبُرُهُ. فيقول الشيخُ، طَوّلَ اللّهُ له أمَدَ البقاء: إنّا لِلّهِ وإنّا إليهِ راجعون، ما أرى سيبَويه إلاّ وهِمَ في هذا البيت، لأنّ أبا ليلى أدركَ جاهليّةً وإسلاماً، وغُذيَ بالفصاحةِ غُلاماً.

ويثني إلى أعشى قيسٍ فيقول: يا أبا بَصيرٍ أنشِدْنا قولَك:

---

(1) متسع من الأرض.
(2) سورة يس، الآية: 54 ـ 57.
(3) أردعه.

أَمِـنْ قَـتْـلَـةَ بـالأنْـقـا ءِ دارٌ غَـيْـرُ مَـحْـلُـولَـهْ
كـأنْ لـم تَـصْـحَـبِ الـحَـيَّ بـهـا بَـيْـضـاءُ عُـطْـبُـولَـهْ[1]

فيقول أعشى قيس: ما هذه ممّا صدرَ عنّي، وإنّكَ منذ اليوم لَمُولَعٌ بالمنحولات.

اللقاء مع الأوز المغني (المغنيات):

ويَمرّ رَفٌ من إوَزِّ الجنّة، فلا يلبثُ أن ينزل على تلك الرّوضةِ ويقفَ وقوفَ مُنتظِرٍ لأمر، ومن شأنِ طيرِ الجَنّةِ أن يتكلّم، فيقول: ما شأنُكُنّ؟ فيقلنَ: أُلهِمنا أن نسقُطَ في هذه الرّوضة فَنُغنّيَ لمن فيها من شَرْبٍ. فيقول: على بَرَكةِ الله القدير. فينتفِضنَ، فيَصِرْنَ جَوَارِيَ كَواعبَ يَرْفُلنَ في وشيِ الجنّة، وبأيديهنّ المَزاهرُ[2] وأنواعُ ما يُلتمَس به المَلاهي. فيَعجَبُ، وحُقّ له العَجَب، وليسَ ذلك ببَديعٍ من قُدرةِ الله جَلّتْ عَظَمَتُهُ، وعَزّتْ كلمَتُهُ، وسَبَغَتْ على العالمِ نعمَتُهُ، ووَسِعَتْ كلّ شيءٍ رَحْمَتُهُ، ووَقَعتْ بالكافِرِ نِقمتُهُ. فيقول لإحداهنّ على سبيل الامتحان: اعمَلي قولَ أبي أمامةَ، وهو هذا القاعد:

أمِـنَ آلِ مَـيّـةَ رَائِـحٌ أوْ مُـغْـتَـدِ، عَـجْـلانَ ذَا زَادٍ وغَـيْـرَ مُـزَوَّدِ؟

ثقيلاً أوّل. فتصنَعُهُ، فتجيءُ به مُطرِباً، وفي أعضاء السامعِ مُتسرّباً. ولو نُحِتَ صَنَمٌ من أحجار، أو دَفُّ أُشِرَ عند النّجّار، ثم سَمِعَ ذلك الصوتَ لرَقَصَ، وإن كان مُتعالياً هَبَطَ ولم يُراعِ أن يُوقَص. فيردُ عليه، أوْرَدَ اللّهُ قلبَهُ المَحابَّ، زَوْلٌ[3]، تَعجِزُ عنه الحِيَلُ والحَوْل، فيقول: هَلُمّ خَفيفَ الثّقيلِ الأوّل! فتنبعث فيه بنَغَمٍ لو سمعَه الغَرِيض، لأقَرّ أنّ ما ترنّمَ به مريضٌ. فإذا أجادَتْهُ، وأعطتْه المِهْرَةَ[4] وزادتْه، قال: عليكِ بالثقيلِ الثاني، ما بينَ مثالِثِ والمَثاني؛ فتأتي به على قَرِيٍّ لو سمعه عبدُ الله بن جعفر لَقَرَنَ أغانيَّ بُدَيحِ إلى هَديرِ ذي المِشْفَرِ[5]. فإذا رأى ذلك قال: سُبحانَ الله! كلّما كُشِفَتِ القدرةُ بَدَتْ لها عجائبُ، لا تُثْبَتُ لها النجائبُ؛ فصيري إلى خفيفِ الثقيلِ الثاني، فإنّكِ

(1) الفتاة الجميلة.
(2) آلات موسيقية.
(3) عجب.
(4) أحسنت صنعه.
(5) الجمل.

لَمُجِيدَةٌ مُحسِنة، تُطرِد بِغِنَائِكِ السِّنَة[1]. فإذا فعلتْ ما أمرَ به، أتتْ بالبُرَجِين[2]، وقالت للأنفُس: ألا تَمْرَحين؟ ثمّ يَقترح عليها: الرَّمَلَ وخَفِيفَه، وأخاه الهَزَجَ وذَفِيفَه؛ وهذه الألحانُ الثمانيةُ، للأذُنِ تَمْنيها المائيَةُ.

فإذا تَيَقَّنَ لها حَذاقةً، وعرف منها بالعُودِ لَباقةً، هَلّلَ وكبّر، وأطالَ حَمْدَ رَبِّهِ واعتَبر. وقال: ويحكِ! ألم تكوني السّاعة إوَزّةً طائرة، واللّهُ خَلَقَكِ مَهْدِيَةً لا حائرة؟ فمن أين لكِ هذا العِلْم، كأنّكِ لجَذَلِ النفس خِلْم؟ لو نَشأتِ بينَ مَعبَدٍ وابنِ سُرَيْج، لما هِجْتِ السامعَ بهذا الهَيْج، فكيفَ نَفَضْتِ بَلَهَ إوَزّ، وهَزَزْتِ إلى الطَّرَبِ أشَدَّ الهَزّ؟ فتقول: وما الذي رأيت من قُدرة بارئك؟ إنّك على سِيف بحرٍ، لا يُدرَك له عِبرٌ، سُبحانَ مَن يُحيي العِظامَ وهي رميم.

اللقاء مع لبيد بن ربيعة

فبينا هم كذلك، إذْ مَرّ شابٌّ في يده مِحْجَنُ ياقوت، مَلَكه بالحُكم الموقوت، فيُسلّم عليهم فيقولون: مَن أنت؟ فيقول: أنا لبيدُ بن ربيعةَ بنِ كِلابٍ. فيقولون: أُكْرِمتَ أُكْرِمتَ! لو قلتَ: لَبيدٌ وسكتّ، لشُهِرْتَ باسمِكَ وإن صَمَتّ. فما بالُكَ في مغفرةِ رَبّك؟ فيقول: أنا بحمدِ الله في عَيشٍ قَصُرَ أن يَصِفَه الواصِفون، ولَدَيّ نَواصِفُ وناصِفون، لا هَرَمَ ولا بَرَمَ. فيقول الشيخ: تَبَارَكَ الملكُ القُدُّوس، ومَن لا تُدرِكُ يَقِينَه الحُدوسُ، كأنّكَ لم تَقُلْ في الدارِ الفانية:

ولقد سَئِمتُ من الحياةِ وطولِها ... وسُؤالِ هذا النّاسِ: كيفَ لَبيدُ

ولم تَفُهْ بقولِكَ:

فَمَتى أهلِكْ فَلا أحفِلُهُ ... بَجَلي الآنَ منَ العَيشِ بَجَلْ

مِنْ حَياةٍ قد مَلِلْنا طُولَها ... وجَديرٌ طولُ عَيشٍ أن يُمَلّ؟

فأنشِدْنا ميميّتَك المُعلّقةَ. فيقول: هَيهاتَ! إنّي تركتُ الشِّعرَ في الدارِ الخادعة، ولن أعودَ إليهِ في الدار الآخرة، وقد عُوِّضتُ ما هو خيرٌ وأبرّ.

فيقول: أخبِرْني عن قولك:

---

(1) النعاس.

(2) العجيب.

تَــرّاكُ أمــكِــنَــةٍ، إذا لــم أرْضَــهَــا، أو يَــرتَــبِــطْ بــعــضَ الــنــفــوسِ حِــمَــامُــهــا

هل أردتَ ببعضٍ معنى كلّ؟ فيقول لبيدٌ: كلاّ، إنّما أردتُ نفسي، وهذا كما تقول للرّجُلِ: إذا ذهبَ مالُكَ، أعطاكَ بعضُ الناسِ مالاً. وأنتَ تَعني نفسكَ في الحقيقة، وظاهر الكلام واقعٌ على كلّ إنسان، وعلى كل فِرقةٍ تكون بعضاً للناس. فيقول، لا فَتىء خَصمُهُ مُفْحماً: أخبرني عن قولك: أو يرتبطْ، هل مَقصدُكَ: إذا لم أرضَها أو يرتبطْ، فيكون: لم يرتبطْ؟ أم غرضك: أتركُ المنازلَ إذا لم أرضَها، فيكون يرتبط كالمحمول على قولك: تَرّاكُ أمكنَةٍ؟ فيقول لبيدٌ: الوَجهَ الأوّلَ أردتُ.

فيقولُ، أعظَمَ ٱللّهُ حَظّهُ في الثواب: فما مَغزاك في قولك؟

وَصَــبُــوحِ صــافــيَــةٍ وجَــذْبِ كَــريــنَــةٍ[1] بِــمُــوَتَّــرٍ تــأتــالُــهُ إبــهــامُــهَــا؟

فإنّ الناسَ يَروُونَ هذا البيتَ على وجهين: منهم من يُنشدُهُ تأتالُهُ، يجعلُهُ تفتعلُهُ، من آلَ الشيءَ يؤولُهُ إذا ساسَه، ومنهم من يُنشد: تأتالَهُ من الإتيان. فيقول لبيدٌ: كِلا الوَجهين يحتملُهُ البيتُ، فيقول: أرغمَ ٱللّهُ حاسِدَهُ: إنّ أبا عليّ الفارسيّ كان يدّعي، في هذا البيت، أنّهُ مثلُ قولهم: استَحَى يَستَحي، على مَذهب الخليل وسيبَويه لأنّهما يَريانِ أنّ قولهم: استَحَيْتُ، إنما جاءَ على قولهم استحايَ، كما أن استَقَمْتُ على استَقَامَ، وهذا مَذهبٌ ظَريفٌ، لأنه يَعتَقِدُ أنّ تأتى مأخوذةٌ من أوَى، كأنّهُ بُنِيَ منها افتعل، فقيل: ائتَايَ، فأُعِلّتِ الواوُ كما تُعَلّ في قولنا: اعتانَ من العَوْن، واقتالَ من القول. ثمّ قيل: ائتَيتُ، فحُذِفت الألف، كما يقال: اقتَلْتُ. ثمّ قيل في المستقبل: يأتَى، بالحذف، كما قيل: يَستَحي. فيقول لبيدٌ: مُعترضٌ لعَنَنٍ لم يَعْنِهِ، الأمرُ أيسَرُ ممّا ظَنّ هذا المُتَكلّف.

ويقول لبيد: سبحانَ ٱللّهَ يا أبا بَصير! بعدَ إقراركَ بما تعلَمُ، غُفِرَ لك وحصَلتَ في جنّة عَدْن؟ فيقول مولاي الشيخُ مُتكلّماً عن الأعشى: كأنّك يا أبا عَقيل تَعني قولَه:

وأشْــرَبُ بــالــرّيــفِ حــتــى يُــقــا لَ: قــد طــال بــالــرّيــفِ مــا قــد دَجَــنْ
صَــريــفــيّــةً طَــيّــبــاً طَــعْــمُــهــا، تُــصَــفَّــقُ مــا بــيــنَ كُــوبٍ ودَنّ
وأقْــرَرْتُ عــيــنــي مــنَ الــغــانــيــا تِ، إمّــا نِــكــاحــاً وإمّــا أُزَنّ

وقولَه:

(1) مغنية.

فَبِتُّ الخليفةَ من بَعلِها، وسَيِّدَ تَيّا ومُسْتادِها

وقولَه:

فَظَلِلْتُ أرعاها، وظَلّ يَحوطُها حتى دنَوْتُ، إذِ الظَّلامَ دنا لَها
فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عن شاتِهِ، فأصَبْتُ حَبّةَ قَلبِها وطِحالَها

ونحو ذلك ممّا رُوِيَ عنه؛ فلا يخلو من أحدِ أمرَين: إمّا أن يكون قالَه تحسيناً للكلام على مذهب الشعراء، وإمّا أن يكونَ فعَلَه فغُفِرَ له. ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]. ﴿إنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾[2].

ويخطِرُ له، جعلَ اللّهُ الإحسانَ إليه مربوباً، ووُدّهُ في الأفئدةِ مشبوباً، غِناءُ القِيانِ بالفُسطاطِ ومدينةِ السّلام. ويذكُرُ ترجيعهنّ بميميّةِ المُخَبّلِ السّعدي، فتندفع تلك الجواري التي نَقَلَتْهُنّ القُدرةُ من خِلَق الطّيرِ اللاقِطةِ، إلى خِلَقِ حُورٍ عِينٍ مُتساقِطة، تُلَحّنُ قولَ المُخَبّل السّعديّ:

ذَكَرَ الرّبابَ وذِكْرُها سُقْمُ، وصَبا، وليسَ لِمَن صَبا عَزْمُ
وإذا ألَمّ خَيالُها طَرَفَتْ عَيني، فَماءُ شُؤونِها سَجْمُ
كاللُّؤلُؤِ المَسجورِ تُوبِعَ في سِلْكِ النّظامِ، فَخانَهُ النّظْمُ

فلا يَمُرّ حَرْفٌ ولا حركةٌ، إلاّ ويُوقِعُ مَسَرّةً لو عُدِلَتْ بِمَسَرّات أهل العاجِلةِ، منذُ خلقَ اللّهُ آدَمَ إلى أن طَوَى ذُرّيّتَه من الأرض، لَكانت الزّائدةَ على ذلك، زيادةَ اللُّجِّ المُتموّج على دمعةِ الطّفل، والهَضْبِ الشامخِ على الهَباءةِ[3] المُنْتَفِضَةِ من الكِفْلِ[4].

ويقولُ لنُدَمائه: ألا تَسمَعونَ إلى قول السّعديّ؟:

وتَقولُ عاذِلَتي، وليسَ لَها بِغَدٍ، ولا ما بَعدَهُ عِلْمُ
إنّ الشّواءَ هُوَ الخُلُودُ، وإ نّ المَرءَ يَكرُبُ يومَهُ العُدْمُ

---

(1) سورة الزمر، الآية 53.

(2) سورة النساء، الآية 116.

(3) الغبار.

(4) كساء يوضع على ظهر البَعير تحت الرجل.

وَلَئِنْ بَنَيْتَ لِيَ المُشَقَّرَ في عَنْقَاءَ، تَقْصُرُ دونَها العُصْمُ
لَتُنَقِّبَنْ عَنِّي المَنِيَّةُ إ نَّ اللهَ لَيسَ كَحُكْمِهِ حُكْمُ

فيقول: إنه المسكين، قال هذه الأبيات، وبنو آدمَ في دار المِحَنِ والبَلاء، يقبِضونَ من الشَّدائدِ على السُّلاَّء[1]؛ والوالدةُ تَخافُ المَنيَّةَ على الولَد، ولا يزالُ رُعبُها في الخَلَد؛ والفَقْرُ يُرْهَبُ ويُتقى، والمالُ يُطْلَبُ ويُستَبْقَى؛ والسَّغَبُ موجودٌ والظَّماء، والكَمَهُ معروفٌ والكَماء؛ ولم يُكفَفْ للغيرِ عِنان، ولا سُكِنت بالعفو الجِنان. فـ ﴿الحمدُ لله الذي أذهبَ عنّا الحَزَنَ إنّ ربّنا لَغَفورٌ شكور. الذي أحَلّنا دارَ المُقامةِ من فضلِهِ، لا يَمَسُّنا فيها نَصَبٌ ولا يَمَسُّنا فيها لُغُوبٌ﴾[2]. فتَبارَكَ اللّهُ القدّوس! نَقَلَ هؤلاء المُسمِعاتِ من زيّ رَبّاتِ الأجنحة، إلى زِيّ ربّات الأكفالِ المُترجِّحة؛ ثمّ ألهمَهُنّ بالحكمةِ حِفظَ أشعارٍ لم تَمرُرْ قبلُ بمسامعهنّ، فجِئْنَ بها مُتقَنَة، محمولةً على الطّرائقِ مُلَحَّنَةً، مُصيبةً في لحنِ الغناء، منزّهةً عن لحنِ الهُجَناء. ولقد كانت الجاريةُ في الدار العاجلة، إذا تُفُرِّستْ فيها النّجابةُ، وأُحضِرَتْ لها المُلَحِّنَةُ لتُلقيَ إليها ما تعرف من ثقيلٍ وخفيف، وتأخُذَها بمأخذٍ غير ذَفيف؛ تُقيمُ معَها الشّهرَ كَريتاً[3]، قبلَ أن تُلقَّنَ كَذِباً حَنبريتاً: بَيتاً من الغَزَلِ أو بَيتين، ثمّ تُعطَى المائةَ أو المائتَين. فسُبحانَ القادر على كلّ عزيز، والمُمَيِّزِ لِفَضْلِهِ كلّ مزيز.

الخلاف بين النابغة الجعدي والأعشى

ويقولُ نابغةُ بني جَعْدَة، وهو جالسٌ يَستمع: يا أبا بَصيرٍ أهذه الرَّبابُ التي ذكرَها السَّعديُّ، هي ربابُكَ التي ذكرتَها في قولِك:

بعاصي العَواذِلِ، طَلْقِ اليَدَيْـ ـنِ يُعطي الجزيلَ، ويُرْخي الإزارا
فَمَا نَطَقَ الدّيكُ حتى مَلا تَ كُوبَ الرَّبابِ لَهُ فاسْتَدارا
إذا انْكَبَّ أزهَرَ بَينَ السُّقا ةِ تَرامَوْا بِهِ غَرَباً[4] أو نُضارا؟[5]

(1) الشوك.
(2) سورة فاطر، الآية 33 ـ 35.
(3) كاملاً.
(4) فضة.
(5) ذهب.

فيقول أبو بَصيرٍ: قد طالَ عمرُكَ يا أبا ليلى، وأحسَبُكَ أصابَكَ الفَنَدُ، فبقيتَ على فَنَدِكَ إلى اليوم! أما علِمتَ أنّ اللّواتي يُسَمّينَ بالرّبابِ أكثرُ من أن يُحصَينَ؟ أفتظنّ أنّ الرّبابَ هذه، هي التي ذكرها القائل:

مـا بـالُ قـومِـكِ يـا رَبـابُ　　خُـزراً كـأنّـهُـمُ غِـضـابُ
غـاروا عـلـيـكِ، وكـيـفَ ذا　　كِ ودونَـكِ الـخَـرْقُ الـيَـبـابُ؟

أو التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

دارٌ لـهـنـدٍ، والـرّبـابِ، وفَـرْتَـنَـى،　　ولَـمـيـسَ، قـبـلَ حـوادِثِ الأيّـامِ

ولعلّ أُمّها أُمّ الرّباب المذكورة في قوله:

وجـارَتِـهـا أُمّ الـرّبـابِ بِـمَـأسَـلِ

فيقولُ نابغةُ بني جَعْدَةَ: أتُكلّمني بمثلِ هذا الكلام يا خليعَ بني ضُبيعةَ، وقد مُتَّ كافراً، وأقررتَ على نفسِكَ بالفاحشةِ، وأنا لقيتُ النبيّ، صلّى الله عليهِ وسلّم، فأنشدتُهُ كلمتي التي أقول فيها:

بَلَغنا السّماءَ مَجدَنا وسَناءَنا،　　وإنّا لنَبغي فوقَ ذلكَ مَظهَرا!

فقال: إلى أين يا أبا ليلى؟ فقلتُ: إلى الجنةِ بك يا رسول الله! فقال: لا يَفْضُضِ اللّهُ فاك.

أغَرّكَ أن عَدّكَ بعضُ الجُهّال رابعَ الشّعراء الأربعة؟ وكذب مُفضّلُك، وإنّي لأطْوَلُ منكَ نَفَساً، وأكثرُ تصرّفاً. ولقد بَلَغتُ بعَدد البيوتِ ما لم يَبْلُغْهُ أحدٌ من العرب قبلي، وأنت لاهٍ بعَفارتِكَ[1]، تفتري على كرائم قومكَ. وإن صَدقتَ فخِزياً لك ولمُقارَكَ[2]! ولقد وُفّقتِ الهِزّانيّةُ في تخليتِكَ: عاشرَتْ منكَ النّابحَ، عَشِيّ فطافَ الأحويةَ[3] على العِظامِ المُنتبَذَة، وحرَصَ على انتياثِ الأجداثِ المُنفردة.

فيَغضبُ أبو بصيرٍ فيقول: أتقولُ هذا وإنّ بيتاً ممّا بَنَيتُ لَيَعْدَلُ بمائةٍ من بِنائِكَ؟ وإن

---

(1) الخرف.

(2) خبثك.

(3) أصحابك.

(4) البيوت المجتمعة، القرية.

أسهَبتَ في منطِقِكَ، فإنّ المُسهِبَ كحاطِبِ الليل. وإنّي لَفِي الجُرْثومةِ[1] من ربيعةِ الفَرَسِ، وإنّكَ لَمِنْ بني جَعْدَةَ، وهل جَعْدَةُ إلاّ راتِدَةُ ظَلِيمٍ نَفُورٍ؟ أتُعَيّرُني مَدْحَ المُلوكِ؟ ولو قَدَرْتَ يا جاهلُ على ذلك، لَهَجَرْتَ إليهِ أهلكَ ووَلَدَكَ، ولكنّكَ خُلِقتَ جَباناً هِداناً[2]، لا تُدْلِجُ في الظّلماءِ الدّاجية، ولا تُهَجِّر في الوديقةِ الصاخِدة[3]. وذكرتَ لي طَلاقَ الهِزّانيّة ولعلّها بانت عني مُبيرَةَ الكَمَدَ، والطّلاقُ ليسَ بمُنكَرٍ للسُّوَقِ ولا للمُلوكِ.

فيقول الجعديُّ: اسكت يا ضُلّ بنَ ضُلّ، فأُقسِم أنّ دخولَكَ الجَنّةَ من المنكَراتِ، ولكنّ الأقضِيَةَ جرَتْ كما شاءَ ٱللَّهُ! لحَقُّكَ أن تكونَ في الدّرَكِ الأسفَلِ من النّارِ، ولقد صَلِيَ بها مَن هو خيرٌ منك، ولو جازَ الغَلَطُ على رَبّ العِزّةِ، لَقُلْتُ: إنكَ غُلِطَ بك! ألستَ القائلَ؟:

فَدَخَلْتُ إذ نامَ الرّقيـ	ـبُ، فَبِتُّ دونَ ثِيابِها
حتى إذا ما استرسلَتْ	للنّومِ، بَعدَ لِعابِها
قَسّمْتُها نِصْفَينِ كُـ	ـلُّ مُسَوَّدٍ يُرمَى بِها
فَثَنَيتُ جِيدَ غَريرَةٍ،	وَلَمَسْتُ بَطْنَ حِقابِها[4]
كالحُقّةِ الصّفراءِ صا	كَ عَبِيرُها بِمَلابِها
وإذا لَها تامورَةٌ	مَرفُوعَةٌ لِشَرابِها

واستَقَلَلْتَ بِبَني جَعْدَةَ، ولَيَوْمٌ من أيّامهم يَرجَحُ بمساعي قومك. وزعَمتَني جَباناً وكذَبتَ! لأنا أشجَعُ منكَ ومن أبيكَ، وأصبَرُ على إدلاجِ المُظلِمةِ ذاتِ الأريز[5]، وأشدّ إيغالاً في الهاجرة أُمّ الصَّخْدان.

ويثِبُ نابغةُ بني جَعدَةَ على أبي بَصيرٍ فيَضرِبُهُ بكُوزٍ من ذهب. فيقول: أصلحَ ٱللَّهُ به وعلى يديه: لا عَربَدةَ في الجِنان، إنّما يُعرَفُ ذلك في الدارِ الفانيةِ بين السَّفَلَةِ والهَجَاج[6]، وإنّك يا أبا ليلى لَمُتَتَرّعٌ. وقد رُوي في الحديث، أنّ رجلاً صاح بالبصرة:

---

(1) الأصل.

(2) كاذب.

(3) الحر الشديد.

(4) السروال.

(5) الصقيع.

(6) الحمقى.

يا آل قيس! فجاء النابغةُ الجعديّ بعُصَيّةٍ له، فأخذَهُ شُرَطُ أبي موسى الأشعريّ فجَلَده لأنّ النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، قال: «من تعزّى بعزاء الجاهليّة فليس منّا». ولولا أنّ في الكتاب الكريم: ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنها ولا يُنْزَفون﴾[1] لَظَنَنْتُكَ أصابكَ نَزْفٌ في عَقلِكَ. فأمّا أبو بَصير فما شَرِبَ إلاّ اللّبنَ والعَسَلَ، وإنّهُ لوَقُورٌ في المَجلِسِ، لا يَخِفُّ عند حَلّ الحُبْوَة[2]. وإنّما مَثَلُهُ معنا مَثَلُ أبي نُواسٍ في قوله:

أيّها العاذِلانِ في الرّاحِ لُومَا، لا أذوقُ المُدامَ إلاّ شَمِيمَا

نالَني بالعِتَابِ فيها إمَامٌ لا أرَى لي خِلافَهُ مُسْتَقِيمَا

إنّ حَظّي مِنْهَا، إذا هيَ دارَتْ، أنْ أرَاها، وأنْ أشَمّ النّسِيمَا

فَاصْرِفاها إلى سِوايَ، فإنّي لَستُ إلاّ على الحديثِ نَدِيمَا

فكَأنّي وما أُحَسِّنُ منها، قَعَدِيٌّ يُحَسِّنُ التّحكِيمَا

لم يُطِقْ حَملَهُ السّلاحَ إلى الحَرْ بِ، فأوْصَى المُطِيقَ ألاّ يُقِيمَا

فيقولُ نابغةُ بني جَعدةَ: قد كانَ النّاسُ في أيّامِ الخادعةِ يَظهرُ عنهم السَّفَهُ بشُرْبِ اللّبَنِ، لا سيّما إذا كانوا أرِقّاء لِئاماً، كما قال الراجز:

يا ابنَ هشامٍ أهلَكَ النّاسَ اللّبَنْ فكُلّهُمْ يَغدو بسَيفٍ وقَرَنْ

وقال آخر:

ما دهرُ ضَبّةَ، فاعلَمْ، نَحتُ أثْلَتِنا وإنّما هاجَ من جُهّالِها اللّبَنُ

وقيل لبعضهم: متى يُخافُ شَرُّ بني فُلان؟ قال: إذا ألْبَنُوا.

فيريدُ، بَلّغَهُ اللّهُ إرادتَه، أن يُصلِحَ بينَ النّدَمَاءِ، فيقول: يجبُ أن يُحذَرَ من مَلَكٍ يعبُرُ فيرى هذا المجلس، فيرفعَ حديثَهُ إلى الجَبّار الأعظم، فلا يجرّ ذلك إلاّ إلى ما تكرهان، واستغنى ربُّنا أن تُرْفَعَ الأخبارُ إليه، ولكنْ جرى ذلك مجرى الحَفَظَةِ في الدار العاجلة، أما علمتما أنّ آدمَ خرج من الجنّة بِذَنْبٍ حَقِير، فغيرُ آمِنٍ مَنْ وَلَدَ أن يُقدَرَ له مثلُ ذلك.

فسألتُكَ يا أبا بَصير بالله هل يَهجِسُ لك تَمَنّي المُدام؟ فيقولُ: كلاّ والله! إنّها عندي

---

(1) سورة الواقعة، الآية: 19.

(2) الشدائد.

لِمِثْلُ المَقِرِ لا يَخطُرُ ذكرها بالخَلَد. فالحمدُ للهِ الذي سقاني عنها السُلْوانة[1]، فما أحفِلُ بأمِّ زَنْبَقٍ[2] أخرى الدهر.

ويَنْهَضُ نابغةُ بني جَعْدَةَ مُغضَباً، فيَكْرَهُ، جَنَّبَهُ ٱللَّهُ المكارِهَ، انصرافَه على تلك الحال، فيقولُ: يا أبا ليلى، إنّ ٱللّهَ، جَلّتْ قُدرَتُهُ، مَنّ علينا بهؤلاء الحُورِ العِينِ اللواتي حَوّلَهُنّ عن خَلْقِ الإوَزّ، فاخترْ لك واحدةً منهنّ فلتَذهَبْ مَعَكَ إلى منزلِكَ، تُلاحِنُكَ أرَقّ اللّحان. وتُسمِعُكَ ضروبَ الألحان. فيقول لبيدُ بنُ ربيعةَ: إنْ أخذ أبو ليلى قَيْنَةً، وأخذ غيرُهُ مثلَها، ألَيسَ ينتشرُ خبرُها في الجَنّةِ، فلا يُؤمَن أن يُسمّى فاعِلو ذلك أزواجَ الإوَزّ؟

فتَضرِبُ الجماعةُ عن اقتسامِ أولئك القِيان.

اللقاء مع حسان ابن ثابت

ويَمُرّ حَسّانُ بن ثابتٍ فيقولونَ: أهلاً أبا عبد الرحمن، ألا تَحدّثُ مَعَنا ساعةً؟ فإذا جَلَسَ إليهم قالوا: أينَ هذه المشروبةُ من سَبيئتكَ التي ذكرتَها في قولِك:

كأنّ سَبيئةً[3] من بَيْتِ رَأسٍ	يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ
على أنيابِها، أو طَعْمَ غَضّ	من التفّاحِ هَصّرَهُ الجَناءُ
على فِيها، إذا ما الليلُ قَلّتْ	كواكِبُهُ، ومالَ بها الغِطاءُ
إذا ما الأشرِباتُ ذُكِرْنَ يَوْماً	فَهُنّ لِطَيّبِ الرّاحِ الفِداءُ

وَيْحكَ! ما استَحيَيْتَ أن تذكُرَ مثلَ هذا في مِدْحَتِكَ رسولَ ٱللّهِ ﷺ؟ فيقول: إنّه كان أسجَحَ خُلُقاً مِمّا تَظنّون، ولم أقل إلاّ خيراً؛ لم أذكر أنّي شربتُ خمراً، ولا ركبتُ مِمّا حُظِرَ أمراً، وإنّما وَصَفْتُ رِيقَ امرأةٍ، يَجُوزُ أن يكون حِلاًّ لي، ويُمكنُ أن أقولَهُ على الظَنّ. وقد شَفَعَ ﷺ في أبي بَصيرٍ بعدَما تهكّم في مواطنَ كثيرةٍ، وَزَعَمَ أنّهُ مُستَرٍ، مُفترياً أو ليسَ بمُفترٍ. وما سُمِعَ بأكرَمَ منه ﷺ: لقد أفِكْتُ فجَلَدني مع مِسْطَحٍ، ثمّ وَهَبَ لي أُختَ مارِيةَ فَوَلَدَتْ لي عبدَ الرحمن، وهي خالةُ وَلَدِه إبراهيم.

---

(1) العسل.

(2) الخمر.

(3) الخمر.

وهو، زيّنَ ٱللّهُ الآداب ببقائه، يَخطُرُ في ضميره أشياءُ، يُريدُ أن يذكرَها لَحسّانَ وغيرِه، ثمّ يَخافُ أن يكونوا لما طَلَبَ غيرَ مُحسنين، فَيُضرِبُ عنها إكراماً للجليس، مثلُ قول حسّان:

يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ

يَعرِضُ له أن يقولَ: كيفَ قلتَ يا أبا عبد الرّحمن: أيكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ، أم مِزاجُها عَسَلاً وماءً، أم مِزاجُها عَسَلٌ وماءٌ، على الإبتداء والخبر؟ وقولِهِ:

فَمَن يَهجو رسولَ الله منكم ... ويَمدَحُهُ ويَنصُرُهُ، سَواءُ

يذهَبُ بعضُهم إلى أنّ مَنْ محذوفةٌ من قولك: ويَمدحُهُ وينصُرُهُ، على أن ما بعدَها صِلةٌ لها. وقال قومٌ: حُذِفَتْ على أنّها نكِرَةٌ، وجُعِلَ ما بعدَها وصفاً لها، فأُقيمت الصفةُ مقامَ الموصوف.

ويقول قائلٌ من القوم: كيف جُبْنُكَ يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول: ألي يُقال هذا وقومي أشجَعُ العرب؟ أراد سِتّةٌ منهم أن يَميلوا على أهل الموسِمِ بأسيافِهِم، وأجاروا النبيّ ﷺ، على أن يُحارِبوا معه كلّ عَنُود؛ فَرَمَتْهُمْ ربيعةُ ومُضَرُ وجميعُ العَرب عن قَوْسِ العَداوة، وأضمروا لهم ضِغْنَ الشّنآنِ. وإنْ ظَهَرَ منّي تَحرُّزٌ في بعض المواطن، فإنّما ذلك على طريقةِ الحَزمِ، كما جاءَ في الكتاب الكريم: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللّهِ، ومأواهُ جَهَنّمُ وبِئْسَ المَصير﴾[1].

اللقاء مع العوران

ويَفترقُ أهلُ ذلك المجلس، بعد أن أقاموا فيه كَعُمْرِ الدّنيا أضعافاً كثيرة، فبَيْنا هو يَطوف في رياضِ الجنّة، لَقِيَهُ خَمسةُ نَفَرٍ على خمسِ أيْنُقٍ، فيقول: ما رأيتُ أحسَنَ مِنْ عُيونكم في أهل الجِنانِ! فَمَن أنتم خَلّدَ عليكُمُ النّعيمُ؟ فيقولون: نحنُ عُورانُ قيسٍ: تَميمُ بنُ مُقبلٍ العَجلانيّ وعَمرُو بنُ أحمَرَ الباهليّ والشّمّاخُ، مَعْقِلُ بنُ ضِرارٍ، أحَدُ بني ثعلبَة ابنِ سَعْدِ بن ذُبيان، وراعي الإبلِ، عُبيدُ بنُ الحُصَين النُّميريّ، وحُمَيدُ بنُ ثورٍ الهِلاليّ.

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 16.

فيقول للشمّاخ بن ضِرارٍ: لقد كان في نفسي أشياءُ من قصيدتك التي على الزاي، وكَلِمَتِكَ التي على الجيم، فأنشِدْنيهما لا زِلتَ مخلّداً كريماً.

فيقول: لقد شَغَلَني عنهما النّعيمُ الدائمُ فما أذكرُ منهما بيتاً واحداً. فيقول لفَرْطِ حُبّهِ الأدَبَ وإيثاره تَشييدَ الفضل: لقد غَفَلْتَ أيها المؤمنُ وأضَعتَ! أمَا علمتَ أنّ كلِمتَيكَ، أنفَعُ لك من ابْنَتَيْكَ؟ ذُكِرتَ بهما في المواطن، وشُهِرْتَ عند راكب السَّفْرِ والقاطن؛ وإنّ القصيدة من قصائد النابغة، لأنْفَعُ له من ابنَتِهِ عَقْرَبَ، ولَعَلّ تلك شائنَةٌ. وما زائنَةٌ، وأصابها في الجاهليّة سِباء، وما وَفَرَ لأجلها الحِباء[1]. وإن شِئتَ أن أُنشِدَكَ قصيدتَيك، فإنّ ذلكَ ليسَ بمُتَعَذِّرٍ عَلَيّ. فيقولُ: أنشِدْني، ضَفَتْ عليك نِعمةُ الله، فيُنشِدُهُ:

عَفَا مِن سُلَيْمى بَطْنُ قَوّ[2]، فَعالِزُ[2]، فَذَاتُ الغَضَا[2]، فالمُشرِفاتُ النّواشِزُ

فَيَجِدُهُ بها غيرَ عَليم. ويَسألُهُ عن أشياءَ منها، فيُصادِفُهُ بها غيرَ بَصير، فيقولُ: شَغَلَتني لَذائذُ الخُلود عن تَعَهّدِ هذه المُنكرات. ﴿إنّ المُتّقينَ في ظِلالٍ وعُيُونٍ، وفَوَاكِهَ ممّا يَشتَهُونَ، كُلُوا واشرَبُوا هَنيئاً بِما كُنتُم تَعمَلونَ﴾[3]، إنّما كنتُ أسُوقُ هذه الأمورَ، وأنا آمُلُ أنْ أُقْفِرَ بها ناقةً، أو أُعطى كَيْلَ عِيالي سَنَةً، كما قال الراجز:

لو شاكَ مِن رأسِكَ عظمٌ يابِسُ، لآلَ مِنكَ جَمَلٌ حُمارِسُ
سَوّى عليكَ الكَيلَ شيخٌ بائسُ، مثلَ الحَصَى يَعجَبُ منهُ اللامِسُ

وأنا الآنَ في تَفَضّلِ اللهِ، أغترِفُ في مَرَافِدِ[4] العَسجَدِ من أنهارِ اللّبَن: فتارةً ألبانَ الإبل، وتارةً ألبانَ البَقَر، وإن شئتُ لَبَنَ الضأنِ فإنه كثيرٌ جَمّ، وكذلك لَبَنُ المَعيزِ، وإن أحببتُ وِرداً من رِسْلِ[5] الأراوي[6]، قَرُبَ نَهرٌ منهُ كأنّهُ دِجلةُ أو الفُرات. ولقد أراني في دار الشّقوة أجهدُ أخلافَ شِياهٍ لِجابٍ[7]، لا يَمتَلِىءُ منهنّ القَعْبُ[8].

---

(1) المهر.
(2) اسماء أماكن.
(3) سورة المرسلات، الآية: 41 ـ 43.
(4) كؤوس.
(5) لبن
(6) الوعول.
(7) قليلات اللبن.
(8) القدح.

اللقاء مع عمرو بن أحمر

فيقول: لا زالَ مِقوَلاً للخير: فأينَ عمرُو بنُ أحمرَ؟ فيقول عمروٌ: ها أنا ذا. فيقول: أنشِدْني قولك:

بـانَ الـشّـبـابُ، وأخـلـفَ الـعـمـرُ، وَتَــغَــيَّــرَ الإخــوانُ والــدّهــرُ

وقد اختلَفَ الناسُ في تَفسير العمر، فقيل: إنّكَ أردتَ البَقاء، وقيل: إنّكَ أرَدتَ الواحدَ من عُمور الأسنان، وهو اللحمُ الذي بينها. فيقول عمروٌ مُتَمَثّلاً:

خُذا وَجهَ هَرشَى أو قَفاها، فإنّهُ كِلا جانِبَيْ هَرشَى[1] لهنّ طَريقُ

ولم تَتْرُكْ فيّ أهوالُ القيامة غُبَراً للإنشاد، أما سمعتَ الآية؟: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2] وقد شَهِدْتَ المَوْقِفَ، فالعَجَبُ لكَ إذْ بقِيَ مَعَكَ شيءٌ من رِوايَتِكَ! فيقولُ الشيخُ: إنّي كنتُ أُخلِصُ الدّعاءَ في أعقابِ الصّلوات، قبلَ أن أنتَقِلَ من تلك الدار، أنْ يُمَتّعَنِي اللَّهُ بأدَبي في الدنيا والآخرة، فأجابني إلى ما سألْتُ وهو الحَميدُ المَجيد.

ولقد يُعجبُني قولُك:

ولـقـد غَـدَوْتُ، ومـا يُـفَـزّعُـني خَـوفٌ أحـاذِرُهُ ولا ذُعـرُ
رُؤْدَ الـشّـبـابِ، كـأنّـني غُـصـنٌ بِـحَـرَامِ مَـكّـةَ، نـاعِـمٌ نَـضِـرُ
كَـشَـرَابِ قَـيْـلٍ عَـن مَـطِـيّـتِـهِ، وَلِـكُـلّ أمـرٍ وَاقـعٍ قَـدَرُ
مُـذَ الـنّـهـارُ لَـهُ، وَطَـالَ عـلـيـ ـهِ الـلـيـلُ واسْـتَـنْـعَـتْ[3] بِـهِ الخَـمْـرُ
ومُـسِـفّـةٌ دَهْـمَـاءُ دَاجِـنَـةٌ رَكَـدَتْ، وَأُسْـبِـلَ دونَـهَـا الـسّـتْـرُ
وَجَـرَادَتَـانِ تُـغَـنّـيَـانِـهِـمُ وَتَـلألأ الـمَـرْجَـانُ والـشّـذْرُ[4]
ومُـجَـلْـجَـلٌ دانٍ زَبَـرْجَـدُهُ خَـدِبٌ كـمـا يَـتَـحَـدّبُ الـدّبْـرُ[5]

---

(1) اسم مكان في الجزيرة العربية.
(2) سورة الحج، الآية: 2.
(3) تمادت.
(4) قطع الذهب.
(5) النحل.

وَثَانِ[1] حَنَّانانِ، بَيْنَهُما ... وَتَرٌ أَجَشُّ، غِناؤهُ زَمِرُ
وَبَعِيرُهُمْ ساجٍ بِجِرَّتِهِ، ... لم يُؤذِهِ غَرَثٌ[2] ولا نَفَرُ
فإذا تَجَرَّدَ، شَقَّ بازِلُهُ، ... وإذا أصاخَ فإنَّهُ بَكِرُ
خَلُّوا طَرِيقَ الدَّيْدَبُونِ، فَقَدْ ... وَلَّى الصِّبَا وَتَفَاوَتَ النَّجَرُ

فما أردتَ بقولِكَ: كشرابِ قَيْلٍ؟ الواحدَ من الأقيالِ؟ أم قَيْلَ بنَ عِتْرٍ من عاد؟ فيقول عمروٌ: إن الوَجهَين ليُتصوّران. فيقول الشيخ، بَلّغَهُ ٱللّهُ الأمانيّ: ممّا يدلّ على أنّ المُرادَ قَيْلُ بنُ عِتْرٍ، قولُك: وجَرادتان تُغَنّيانِهم، لأنّ الجرادتين، فيما قيل، مُغنّيتان غَنّتا لوَفْد عادٍ عند الجُرْهُميّ بمكّة، فشُغلوا عن الطّواف بالبيت وسُؤالِ الله، سُبحانه وتَعالى، فيما قَصَدوا له، فهَلَكَتْ عادٌ وهم سامِدونَ.

فيقول ابنُ أحمَرَ: أمّا ذِكْرُ الجرادتَين فلا يَدلّ على أنّي خَصَصتُ قَيْلَ بنَ عِتْرٍ وإنْ كانَ في الوَفْدِ الذي غَنّتهُ الجرادتان، لأنّ العربَ صارت تسمّي كلّ قينَةٍ جَرادةً، حملاً على أنّ قينَةً في الدّهرِ الأوّلِ كانت تُدعَى الجرادة. قال الشاعر:

تُغَنّينا الجَرادُ، ونحنُ شَرْبٌ ... نُعَلُّ الرّاحَ خالَطَها المَشُورُ[3]

وأمّا المُسِفّةُ الدّهماءُ، فإنّها القِدْر. وأمّا المُجَلْجَلُ الداني زَبَرْجَدُهُ، فهو العُود، وزبرجدُهُ ما حُسّنَ منه، أما تَسمعُ القائلَ يُسمّي ما تَلوّنَ من السحابِ زِبْرِجاً؟ ومن روى: مُجَلجِلٌ، بكسر الجيم، أراد السحاب.

فيعجَبُ الشيخُ من هذه المَقالةِ، ويقول: كأنّك أيّها الرجلُ وأنتَ عربيّ صَميمٌ يُستَشهَدُ بألفاظِكَ وقَريضِكَ، تَزعُمُ أنّ الزبرجد من الزِّبرِج، فهذا يُقوّي ما ادّعاهُ صاحبُ العين[4] من أنّ الدال زائدةٌ في قولهم: صَلَخْدَم، وأهلُ البصرة يَنفِرونَ من ذلك.

فيُلهِمُ ٱللّهُ القادِرُ ابنَ أحمرَ عِلمَ التصريف، ليُرِيَ الشيخَ بُرهانَ القُدرة، فيقول ابنُ أحمرَ: وماذا الذي أنكرتَ أن يكونَ الزِّبرِجُ من لَفظِ الزَّبَرْجَدِ؟ كأنّ فِعلاً صُرّفَ من الزبرجَد، فلم يُمكنْ أن يُجاءَ بحُروفِهِ كلِّها، إذا كانت الأفعالُ لا يكونُ فيها خمسةُ

(1) عودان أو صنجان.

(2) جوع.

(3) العسل.

(4) المقصود الخليل بن أحمد الفراهيدي.

أحرُفٍ من الأصول، فقيل: يُزَبْرِجُ، ثمّ بُنِيَ من ذلك الفعلِ اسمٌ فقيلَ: زِبْرِجٌ، ألا تَرَى أنّهُمْ إذا صَغّروا فَرَزْدَقاً قالوا: فُرَيزِدٌ، وإذا جمعوه قالوا: فَرَازِد؟ وليس ذلك بدَليل على أن القاف زائدة. فيقولُ، خلّد ٱللّهُ ٱلفاظَهُ في ديوان الأدب: كأنّكَ زَعَمتَ أنّ فعلاً أُخِذَ من الزَّبَرْجَد، ثمّ بُني منه الزِّبْرِجُ، فقد لَزِمَكَ على هذا أن تكونَ الأفعالُ قبلَ الأسماء. فيقولُ ابنُ أحمر: لا يلزمُني ذلك، لأنّي جعلتُ زَبَرْجداً أصلاً، فيَجوز أن يَحْدُثَ منه فُرُوعٌ ليس حكمُها كحُكمِ الأصول. ألا ترى أنّهم يقولون: إنّ الفِعلَ مُشتَقّ من المَصدر؟ فهذا أصلٌ، ثمّ يقولون: الصِّفةُ الجاريةُ على الفعل، يَعْنُونَ: الضاربَ والكريمَ وما كان نحوَهما، فليسَ قولُهم هذه المَقالة بدَليلٍ على أنّ الصفةَ مُشتَقّةٌ من الفعل، إذا كانت اسماً، وحَقّ الأسماءِ أن تكون قبلَ الأفعال، وإنّما يُرادُ أنّهُ يُنطَق بالفعل منها كثيراً. ولمدّعٍ أن يقولَ: الفعلُ مُشتَقّ من المَصدر فهو فَرْعٌ عليه، والصِّفةُ فَرْعٌ آخَر، فيجوز أن يَتَقَدّمَ أحَدُ الفَرعين على صاحِبِهِ.

ثمّ يذكرُ له أشياءَ من شعره، فيَجِدُهُ عن الجواب مُستَعجِماً، إن نَطَقَ نَطَقَ مُخجِماً.

اللقاء مع تميم بن أُبَيّ

فيقول: أيّكُم تميمُ بنُ أُبَيّ؟ فيقول رجلٌ منهم: ها أنا ذا. فيقول أخبِرْني عن قولك:

يـا دارَ سَـلـمَـى خَـلاءً لا أُكَـلِّـفُـهـا ... إلاّ الـمَـرانَـةَ حَـتّـى تَـسـأمَ الـدِّيـنـا

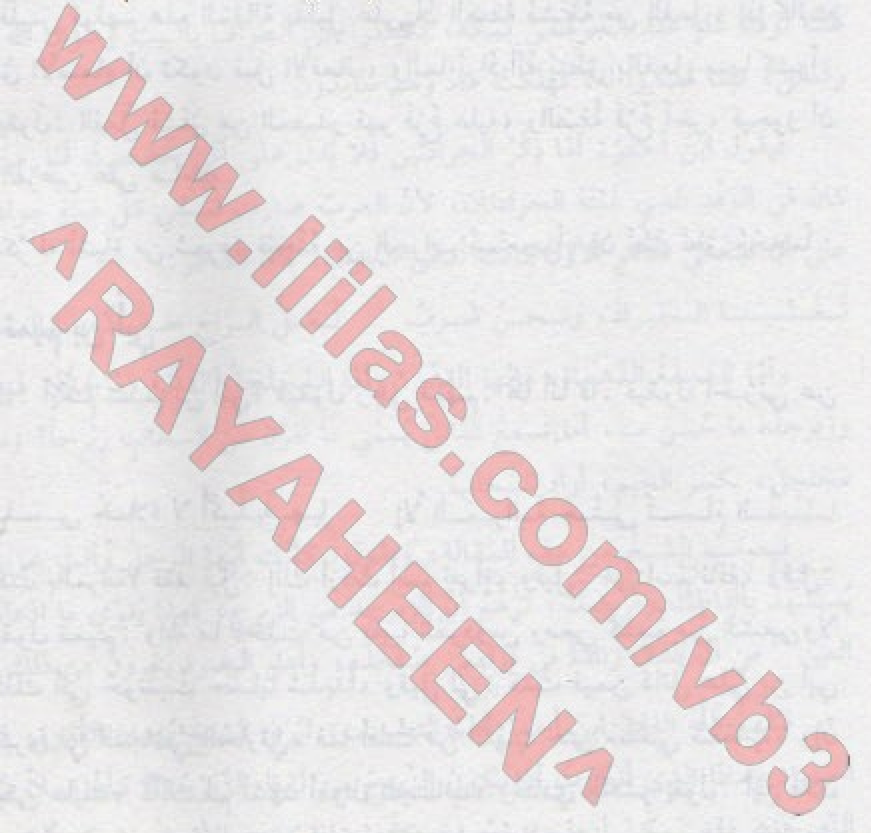
ما أردتَ بالمرانة؟ فقد قيل: إنّكَ أردتَ اسمَ امرأةٍ، وقيل: هي اسمُ ناقة، وقيل: العادة. فيقول تميم: والله ما دخلتُ من باب الفردوس ومعي كلمةٌ مِنَ الشعر ولا الرجزَ، وذلك أنّي حُوسِبتُ حساباً شديداً، وقيل لي: كنتَ فيمن قاتَلَ عليَّ بن أبي طالب. وانبرى لي النجاشيُّ الحارثيّ، فما أفلتُّ مِنَ اللّهَب حتى سَفَعَني سَفَعاتٍ. وإنّ حِفظَكَ لَمُبَقّىً عليك، كأنّكَ لم تَشهد أهوال الحِساب، ومُنادي الحَشرِ يقول: أين فُلان ابنُ فُلان؟ والشُّوسُ الجبابرةُ من الملوك تَجذِبُهُمُ الزَّبانِيَةُ إلى الجحيم، والنّسوةُ ذواتُ التِّيجانِ يُصَرْنَ بألسنةٍ مِنَ الوَقودِ، فتأخُذُ في فُروعِهِنّ وأجسادهنّ، فيَصِحْنَ: هل من فِداء؟ هل من عُذْرٍ يُقام؟ والشبابُ من أولاد الأكاسرةِ يَتَضاغَوْنَ[1] في سلاسِلِ النار

---

(1) يصيحون.

ويقولون: نحنُ أصحابُ الكنوزِ، نحنُ أربابُ الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائعُ وأيادٍ فلا فاديَ ولا مُعين!

فَهَتَفَ داعٍ من قِبَلِ العَرْشِ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فما للظَّالمينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[1] لقد جاءتكُمُ الرُسلُ في زَمانٍ بَعدَ زمانٍ، وبذَلْتُ ما وُكِّدَ من الأمان، وقيل لكم في الكتاب: ﴿واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُون فِيهِ إلى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُون﴾[2] فكنتم في لَذَّاتِ السَّاخِرَةِ واغِلينَ، وعن أعمال الآخرة مُتشاغلين، فالآنَ ظَهَرَ النبأُ، لا ظُلْمَ اليومَ إنَّ اللَّهَ قد حَكَمَ بين العِبادِ.



(1) سورة فاطر، الآية: 37.

(2) سورة البقرة، الآية: 381.

II

قصة دخول ابن القارح إلى الجنة

فيقولُ، أنطَقَه الله بكلّ فَضْل، إن شاء ربّه أن يقول: أنا أقصّ عليك قِصّتي:

مع رضوان خازن الجنة

لمّا نَهضتُ أنتَفِضُ من الرَّيْم[1]، وحَضَرتُ حَرَصاتِ[2] القِيامة، ذكرتُ الآية: ﴿تَعرُجُ المَلائِكَةُ والرُّوحُ إلَيْهِ في يَوْم كَانَ مِقْدارُهُ خَمْسينَ ألْف سَنَةٍ، فَاصْبِرْ صَبْراً جَميلاً[3]﴾ فطالَ عَليّ الأمَدُ، واشْتَدّ الظَّمأ والوَمَدُ، وأنا رَجُلٌ مِهيافٌ[4]، فافتكرتُ، فرأيتُ أمراً لا قِوامَ لمثلي به. ولَقيَني المَلَكُ الحَفيظُ بما زَبَرَ[5] من فِعلِ الخير، فوَجَدْتُ حَسَناتي قليلةً كالنَّفَلِ[6] في العامِ الأرمَلِ[7]. إلا أنّ التوبةَ في آخرها كأنّها مِصباحُ أبيلٍ[8]، رُفِعَ لسالِكِ السبيل. فلمّا أقمتُ في الموقِفِ زُهاء شهر أو شَهرَين، وخِفتُ من الغَرَقِ في العرقِ، زَيّنَتْ ليَ النفسُ الكاذبةُ أنْ أنظِمَ أبياتاً في رِضوانَ، خازِنِ الجِنان، عَمِلتُها في وزنِ:

قِفا نَبْكِ مِن ذِكرَى حَبيبٍ وعِرفانِ

---

(1) القبر.

(2) ساحات.

(3) سورة المعارج، الآية 4 ـ 5.

(4) سريع العطش.

(5) كتب.

(6) الرياض.

(7) القليل المطر.

(8) راهب.

وَوَسمتُها بِرِضوانِ. ثمّ ضَاتَكتُ الناسَ حتى وَقفتُ منه بحيثُ يَسْمَع ويَرَى. فما حَفَلَ بي، ولا أظنّه أبِهَ لِما أقول.

فغَبَرْتُ بُرهةً، نحو عَشرةِ أيّامٍ من أيّامِ الفانية، ثمّ عَملتُ أبياتاً في وزنِ:

بانَ الخَليطُ ولو طُووِعتُ ما بَانَا   وقَطّعوا من حِبالِ الوَصْلِ أقرانا

وَوَسمتُها بِرِضوان، ثمّ دنوتُ منه ففعلتُ كفعلي الأوّل، فكأنّي أُحرّكُ ثَبيراً[1]، والتَمِسُ منَ الغِضرِمِ[2] عَبيراً، فلم أزل أتتَبّعُ الأوزانَ التي يُمكنُ أن يُوسَمَ بها رِضوانُ حتى أفنيتُها، وأنا لا أجدُ عندَهُ مَغوثةً، ولا ظَنَنْتُهُ فَهِمَ ما أقول، فلمّا استقصَيتُ الغَرَضَ فما أنجحتُ، دَعَوتُ بأعلى صَوْتي: يا رضوانُ، يا أمينَ الجَبّارِ الأعظمِ على الفَراديس، ألم تَسمع ندائي بك واستغاثتي إليك؟ فقال: لقد سمعتُك تذكُرُ رِضوانَ وما علِمتُ ما مَقصدُك، فما الذي تطلُبُ أيّها المسكين؟ فأقولُ: أنا رجلٌ لا صبرَ لي على اللُّوابِ[3]، وقد استَطَلتُ مُدّةَ الحِساب، ومعي صَكٌّ بالتوبة، وهي للذُنوبِ كلّها ماحيةٌ، وقد مدحتُكَ بأشعارٍ كثيرةٍ ووَسَمْتُها باسمِك. فقال: وما الأشعار؟ فإنّي لم أسمع بهذه الكلمة قَطّ إلاّ الساعةَ. فقلتُ: الأشعارُ جَمعُ شِعرٍ، والشعرُ كلامٌ موزونٌ تَقبلُهُ الغريزةُ على شَرائطَ، إن زادَ أو نَقصَ أبانَهُ الحِسُّ، وكانَ أهلُ العاجِلَةِ يتقرّبون به إلى الملوكِ والساداتِ، فجِئتُ بشيءٍ منه إليك لَعَلّكَ تأذَنُ لي بالدّخول إلى الجنّة في هذا الباب، فقد استطلتُ ما الناسُ فيه، وأنا ضَعيفٌ مُنِينٌ؛ ولا ريبَ أنّي مِمّن يرجو المغفِرة، وتَصِحُّ له بمشيئةِ اللّهِ تعالى. فقال: إنّكَ لغَبينُ الرأي! أتأمُلُ أن آذَنَ لك بغير إذنٍ من رَبِّ العِزّةِ؟ هيهات هيهات! ﴿وأنّى لهمُ التناوُشُ من مكانٍ بعيدٍ﴾[4].

مع زفر خازن الجنة

فتركتُهُ وانصرفتُ بأملي إلى خازنٍ آخرَ يقالُ له زُفَرُ، فعَمِلتُ كلمةً ووسَمتُها باسمِهِ في وزن قول لَبيد:

تَمَنّى ابنتايَ أن يَعيشَ أبوهُما،   وهل أنا إلاّ من ربيعةَ أو مُضَرْ

---

(1) اسم جبل.

(2) التراب.

(3) العطش.

(4) سورة سبأ، الآية: 52.

وقَرُبتُ منه فأنشدتُها، فكأني إنما أخاطبُ رَكوداً صَمّاء، لأستنزِلَ أبُوداً عَصماء. ولم أترك وزناً مقيّداً ولا مُطلقاً يجوزُ أن يوسَمَ بزُفَرَ إلاّ وسَمتُهُ به، فما نَجَعَ ولا غَيّر. فقلتُ: رَحِمَكَ الله! كُنا في الدار الذاهبة نَتقرّبُ إلى الرئيس والملك بالبيتَين أو الثلاثة، فنَجدُ عنده ما نُحبّ، وقد نظمتُ فيك ما لو جُمِعَ لكان ديواناً، وكأنك ما سمعتَ لي زَجْمةً[1]، فقال: لا أشعُرُ بالذي حَمَمتَ[2]، وأحسَبُ هذا الذي تجيئني به قُرآنَ إبليسَ المارِدِ، ولا يَنفُقُ على الملائكة، إنما هو للجانّ وعَلّموهُ ولَدَ آدم، فما بُغيتُكَ؟ فذكرتُ له ما أُريد. فقال: والله ما أقدرُ لك على نَفعٍ، ولا أملكُ لخَلقٍ من شَفعٍ، فمن أي الأمم أنت؟ فقلت: من أُمة محمّد بن عبد الله بن عبدِ المُطّلب. فقال: صدقتَ، ذلك نبيّ العرب، ومن تلك الجهةِ أتيتَني بالقريض، لأنّ إبليسَ اللعينَ نَفثَه في إقليم العرب فتَعَلّمَهُ نساءٌ ورجال. وقد وَجَبَ عليّ نُصحُك، فعليك بصاحبِك لَعَلّهُ يَتَوصّلُ إلى ما ابتَغيت.

مع حمزة بن عبد المطلب

فَيَئِستُ ممّا عِندَه، فجعلتُ أتخلّلُ العالم، فإذا أنا برجلٍ عليه نورٌ يَتلألأ، وحوالَيه رجالٌ تأتلِقُ منهم أنوار. فقُلتُ: مَن هذا الرجل؟ فقيل: هذا حمزةُ بنُ عبد المطّلب صريعُ وَحْشِيّ، وهؤلاء الذين حولَه مَن استُشهِدَ من المسلمينَ في أُحُدٍ. فقلتُ لنفسيَ الكَذوبِ: الشعرُ عند هذا أنفَقُ منه عند خازن الجنان، لأنّه شاعرٌ، وإخوتُهُ شعراء، وكذلك أبوه وجدّه، ولعلّه ليس بَينَه وبين مَعَدّ بن عدنانَ إلاّ من قد نَظَمَ شيئاً من مَوْزونٍ، فعمِلتُ أبياتاً على منهج أبياتِ كَعْب بن مالك التي رثَى بها حَمزة، وأوّلُها:

صَفيّةُ قُومي ولا تَعجِزي، وَبَكّي النّساءَ على حَمزَةِ

وجئتُ حتى وليتُ منه فناديتُ: يا سيّدَ الشّهداء، يا عَمّ رسول الله ﷺ، يا ابن عبد المطّلب! فلمّا أقبلَ عليّ بوجهه أنشدتُهُ الأبيات. فقال: وَيحَك! أفي مثل هذا الموطن تجيئني بالمَديح؟ أما سمعتَ الآية: ﴿لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[3] فقلتُ: بلى قد سَمعتُها، وسمعتُ ما بعدَها: ﴿وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجوهٌ

---

(1) كلمة.

(2) قصدت.

(3) سورة عبس، الآية: 370.

يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ﴾[1].

مع الإمام علي

فقال: إني لا أقدرُ على ما تَطلبُ، ولكني أُنفِذُ معَك تَوراً[2]، إلى ابن أخي عليّ بن أبي طالب، ليُخاطب النبيّ، ﷺ، في أمرك. فَبَعَثَ معي رجلاً، فلمّا قصّ قصّتي على أمير المؤمنين، قال: أينَ بَيّنَتُك؟ يعني صحيفةَ حَسَنَاتي. وكنتُ قد رأيتُ في المَحْشَرِ شَيخاً لنا كان يُدَرِّسُ النحوَ في الدار العاجلة، يُعرَف بأبي عليّ الفارسي، وقد امترَسَ به قومٌ يُطالبونَهُ، ويقولون: تأوّلتَ علينا وظلَمتَنا. فلمّا رآني أشار إليّ بيده، فجئتُهُ فإذا عنده طَبَقَةٌ، منهم يزيد بن الحَكَم الكِلابيّ، وهو يقول: ويحَكَ، أنشدتَ عنّي هذا البيتَ برفع الماء، يَعني قولَه:

فَلَيْتَ كَفافاً كانَ شَرُّكَ كُلُّهُ، وَخَيْرُكَ عَنّي ما ارْتَوَى الماءُ مرتوِي

ولم أقلْ إلا الماءَ. وكذلك زَعَمتَ أنّي فتحتُ الميمَ في قولي:

تَبَدَّلْ خَليلاً بي، كَشَكْلِكَ شَكْلُهُ، فإنّي خَليلاً صالحاً بكَ مَقْتَوي

وإنّما قلتُ: مُقتَوي بضم الميم.

وإذا هناك راجزٌ يقول: تأوّلتَ عليّ أني قلتُ:

يا إبِلي ما ذَنْبُهُ فَتَأبِيَهْ؟ ماءٌ رَواءٌ ونَصِيٌّ حَوْلِيَهْ

فحرّكتَ الياءَ في تأبِيَه، ووَاللهِ ما فعلتُ ولا غيري من العرب.

وإذا رجلٌ آخرُ يقول: ادّعيتَ عليّ أن الهاء راجعةٌ على الدَّرْسِ في قولي:

هذا سُراقَةُ للقُرآنِ يَدْرُسُهُ، والمرءُ عندَ الرُّشا إنْ يَلْقَها ذِيبُ

أفمجنونٌ أنا حتى أعتقدَ ذلك؟

وإذا جماعةٌ من هذا الجنس كلُّهم يلومونه على تأويله. فقلتُ: يا قومُ، إن هذه أمورٌ هيّنةٌ، فلا تُعنّتوا هذا الشيخَ، فإنّه يَمُتّ بكتابه في القرآن المَعروفِ بكتاب الحُجّة، وإنّه ما سفَكَ لكم دماً، ولا احتجَن عنكم مالاً، فتفرّقوا عنه.

---

(1) سورة عبس، الآية: 38 ـ 42.

(2) رسولاً.

وشُغِلتُ بخِطابهم والنّظرِ في حَوِيرهم، فسقط منّي الكتابُ الذي فيه ذِكرُ التوبة؛ فرجعتُ أطلُبُهُ فما وجدتُهُ، فأظهرتُ الولَهَ والجزَعَ، فقال أميرُ المؤمنين: لا عليك، ألكَ شاهدٌ بالتّوبة؟ فقلتُ: نعم، قاضي حلبَ وعُدولُها. فقال: بمن يُعرَفُ ذلك الرجلُ؟ فأقولُ: بعبد المُنعم بن عبد الكريم قاضي حلبَ، حَرَسَها ٱللّهُ، في أيّام شِبْلِ الدّولةِ، فأقامَ هاتِفاً يَهتِفُ في الموقف: يا عبدَ المُنعم بنَ عبدِ الكريم قاضيَ حلبَ في زمانِ شِبلِ الدولة، هل مَعَكَ عِلمٌ من تَوْبةِ عليّ بن منصور بن طالب الحَلَبيّ الأديب؟ فلم يُجِبْهُ أحدٌ. فأخذني الهلع والقلُّ، ثم هَتَفَ الثانية، فلم يُجِبْهُ مُجيبٌ. فلِيحَ بي عند ذلك، ثم نادى الثالثة، فأجابه قائلٌ يقول: نَعَمْ، قد شهدتُ توبةَ عليّ بن منصور، وذلك بأخَرَةٍ من الوقت، وحَضَرَتْ مَتابَه عندي جَماعةٌ من العُدُول، وأنا يومئذٍ قاضي حَلَبَ وأعمالِها، وٱللّهُ المُستَعان». فعِنْدَها نَهضتُ وقد أخذتُ الرَّمَقَ، فذكرتُ لأمير المؤمنين، عليه السّلام، ما ألتمِسُ، فأعرَضَ عنّي وقال: إنك لَتَرومُ حَدَداً مُمتَنِعاً، ولك أُسْوَةٌ بولد أبيك آدَمَ. وهَممتُ بالحوضِ؛ فكِدتُ لا أصلُ إليه، ثم نَغَبتُ منه نَغَباتٍ لا ظَمأَ بعدَها؛ وإذا الكَفَرَةُ يحمِلُونَ أنفُسَهم على الوِرْدِ، فتذودُهم الزّبانيَةُ بِعِصِيّ تضطرمُ ناراً، فيرجعُ أحدُهم وقد احترقَ وجهُهُ أو يده وهو يدعو بوَيْلٍ وثُبور.

مع فاطمة الزهراء

فطُفْتُ على العِتْرَةِ المُنتَجَبينَ فقلتُ: إنّي كنتُ في الدّار الذاهبةِ إذا كتبتُ كتاباً وفرغتُ منه، قلتُ في آخره: وصلّى ٱللّهُ على سيّدِنا محمّدٍ خاتَمِ النّبيّين، وعلى عِترَتِهِ الأخيارِ الطيّبين. وهذه حُرمةٌ لي ووَسيلةٌ، فقالوا: ما نَصنَعُ بك؟ فقُلتُ: إنّ مولاتَنا فاطمة، عليها السّلام، قد دَخَلَتِ الجنّةَ مُذْ دهرٍ وإنّها تَخرُجُ في كلّ حينٍ مِقدارُهُ أربعٌ وعشرونَ ساعةً من الدّنيا الفانيةِ فتُسَلّمُ على أبيها، وهو قائمٌ لشَهادة القَضاء، ثم تَعود إلى مُستَقَرّها من الجِنان، فإذا هي خرجتْ كالعادة، فاسألوا في أمري بأجمعِكم، فلَعَلّها تَسألُ أباها فيّ.

فلمّا حانَ خروجُها ونادى الهاتفُ؛ أنْ غُضّوا أبصارَكم يا أهلَ الموقف حتى تَعبُرَ فاطمةُ بنت محمّد ﷺ، اجتمع من آل أبي طالبٍ خَلْقٌ كثيرٌ، من ذكورٍ وإناثٍ، ممّن لم يَشْرَب خمراً، ولا عَرَف قَطُّ مُنكَراً. فلقُوها في بعض السّبيل، فلمّا رأتهم قالت: ما بالُ هذه الزّرافة؟ ألكُم حالٌ تُذكَر؟ فقالوا: نحن بخيرٍ، إنّا نلتَذّ بتُحَفِ أهل الجنّة، غيرَ أنّا

مَحبوسون للكلمةِ السابقة، ولا نريد أن نتسرّع إلى الجنّة من قبلِ الميقات، إذ كنّا آمنين ناعمين بدليل قوله: ﴿إنّ الّذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِنّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدونَ. لا يَسْمَعُونَ حَسيسَها وهُمْ في ما اشْتَهَتْ أنْفُسُهُمْ خالِدونَ. لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأكْبَرُ، وَتَتَلَقَّاهُمُ المَلائكَةُ: هَذَا يَوْمُكُمُ الّذي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1].

وكان فيهم عليُّ بن الحُسين وإبناه محمّدٌ وزيدٌ، وغيرهم من الأبرار الصالحين. ومع فاطمةَ، عليها السّلام، امرأةٌ أُخرى تَجري مَجراها في الشرف والجلالة، فقيلَ: مَنْ هذه؟ فقيل: خديجةُ ابنة خُوَيلدِ بنِ أسد بن عبد العُزّى، ومعها شبابٌ على أفراسٍ من نُورٍ. فقيل: مَنْ هؤلاء؟ فقيل: عبدُ الله، والقاسمُ، والطيّبُ، والطاهرُ، وإبراهيمُ بنو محمد، صلّى الله عليه وسلم.

فقالت تلك الجماعةُ التي سألتُ: هذا وليٌّ من أوليائنا، قد صحّتْ توبتُهُ، ولا ريبَ أنّه من أهلِ الجنّة، وقد توسّل بنا إليكِ، صلّى الله عليكِ، في أن يُراحَ من أهوال الموقف، ويَصيرَ إلى الجَنّة فَيَتَعَجَّلَ الفوزَ. فقالت لأخيها إبراهيمَ، صلّى الله عليه: دونَكَ الرجلَ. فقال لي: تعلّقْ بركابي. وجَعلتْ تلك الخيلُ تَخَلَّلُ الناسَ وتتكشفُ لها الأممُ والأجيالُ، فلمّا عَظُمَ الزّحامُ طارتْ في الهواء، وأنا متعلّقٌ بالرّكاب، فوَقَفَتْ عند محمّدٍ، ﷺ، فقال: مَنْ هذا الأتاويّ[2]؟ فقالت له: هذا رجلٌ سألَ فيه فُلانٌ وفلانٌ، وسَمّت جماعةً من الأئمة الطاهرين، فقال: حتى يُنْظَرَ في عملِهِ. فسألَ عن عَمَلي فوُجِدَ في الدّيوان الأعظم وقد خُتم بالتوبة، فشَفَعَ لي، فأُذنَ لي في الدُّخول.

ولمّا انصرفتِ الزّهراءُ، عليها السّلام، تعلّقتُ بركاب إبراهيم، صلّى اللّهُ عليه.

فلمّا خلَصْتُ من تلك الطُّموشِ[3]، قيل لي: هذا الصّراطُ فاعبُرْ عليه. فوَجدتُهُ خالياً لا عَريبَ عندَه[4]، فبَلَوْتُ نفسي في العبور، فوَجدتُني لا أستمسِكُ. فقالت الزّهراءُ، صلّى الله عليها، لجارية من جواريها: يا فُلانةُ أجيزيه. فجعلتْ تُمارِسُني وأنا أتساقَطُ عن يَمينٍ وشِمالٍ، فقلتُ: يا هذه، إن أردتِ سَلامتي فاستَعملي معي قولَ القائل

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 101 ـ 103.

(2) الغريب.

(3) الجموع.

(4) أحد.

في الدار العاجلة:

سِتُّ إنْ أعياكِ أمري، فاحمليني زَقَفُونَهْ

فقالت: وما زَقَفُونَه؟ قلتُ: أنْ يطرَحَ الإنسانُ يديهِ على كتفَيِ الآخَرِ، ويُمسِكَ الحاملُ بيديه، ويحملَه وبَطنُهُ إلى ظهره؛ أما سمعتِ قولَ الجَحْجَلُولِ من أهلِ كَفْرِطابٍ؟:

صَلَحَتْ حالَتي إلى الخَلفِ حتى صِرْتُ أمشي إلى الوَرى زَقَفُونَه

فقالت: ما سمعتُ بزَقَفُونَه، ولا الجَحْجَلولِ، ولا كَفْرِطابٍ، إلاَّ الساعةَ، فتحمِلُني وتجوز كالبرقِ الخاطِف. فلمّا جُزتُ، قالت الزَّهراءُ، عليها السّلام: قد وهَبْنا لك هذه الجارية، فخُذْها كي تخدمَكَ في الجِنان.

فلمّا صِرتُ إلى باب الجنّة، قال لي رِضوانُ: هل معكَ من جوازٍ؟ فقلتُ: لا. فقال: لا سبيلَ لك إلى الدخولِ إلاّ به. فبَعِلتُ بالأمر[1]، وعلى باب الجنّة من داخلٍ شَجرةُ صَفصافٍ، فقلتُ: أعطِني ورقةً من هذه الصَّفصافةِ حتى أرجع إلى الموقف فآخُذَ عليها جَوازاً، فقال: لا أُخرِجُ شيئاً من الجنّةِ إلاّ بإذنٍ من العَليّ الأعلى، تَقدّس وتبارك. فلمّا ذَجِرْتُ بالنازلة، قلتُ: إنّا لِلّهِ وإنّا إليه راجعونَ! لو أنّ للأميرِ أبي المُرَجّى خازناً مثلَك، لما وصلتُ أنا ولا غيري إلى قُرْقُوفٍ[2] من خِزانتِهِ.

والتَفَتَ إبراهيمُ، صلّى الله عليه، فرآني وقد تخلّفْتُ عنه، فرجعَ إليّ فجذَبَني جَذبةً حَصَّلَني بها في الجَنّة.

وكان مُقامي في الموقف مُدّةَ ستّةِ أشهرٍ من شُهُورِ العاجلة، فلذلك بَقي عليّ حِفْظي ما نَزَفَتْهُ الأهوالُ، ولا نَهَكَهُ تدقيقُ الحسابِ.

---

(1) دهشت واحترت.

(2) درهم.

III

في الجنة مجدداً

فأيّكم راعي الإبِل؟ فيقولون: هذا. فيُسَلِّمُ عليه الشيخُ ويقولُ: أرجو أن لا أجدَكَ مثلَ أصحابك صِفْراً من حِفْظِكَ وَعَرَبيّتِك. فيقول: أرجو ذلك، فاسْألني ولا تُطيلَنّ. فيقول: أحَقٌّ ما روى عنك سيبَويه في قصيدتكَ اللامية التي تمدح بها عبد الملك بن مَرْوان من أنّكَ تَنصِبُ الجَماعةَ في قولِك:

أيّامَ قَوْمي والجَماعَةَ كالّذي ... لَزِمَ الرِّحالةَ أن تَميلَ مَميلا

فيقول: حقّ ذلك.

مع حُمَيْدِ بن ثور:

وينصرفُ عنهُ رشيداً إلى حُمَيدِ بنِ ثَوْر فيقول: إيهٍ يا حُمَيدُ! لقد أحسنتَ في قولك:

أرَى بَصَري قد رابَني بَعْدَ صِحّةٍ، ... وحَسْبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتَسْلَمَا

ولن يَلبَثَ العَصْرانِ: يَوْمٌ ولَيلَةٌ ... إذا طَلَبَا، أنْ يُدرِكا ما تَيَمَّمَا

فكيفَ بصرُكَ اليومَ؟

فيقولُ: إنّي لأكونُ في مغارب الجنّةِ، فألمَحُ الصديقَ من أصدقائي وهو بمشارِقِها، وبَيني وبَينَهُ مَسيرةُ ألوفِ أعوامٍ للشمسِ التي عرَفتَ سرعةَ مسيرها في العاجلة! فتعالى اللّهُ القادرُ على كلّ بديع.

فيقول: لقد أحسنتَ في (الداليّةِ) التي أوّلُها:

جلبَانَةٌ[1] وَرَهَاءُ[2]، تَخصِي حِمارَها   بفي مَن بَغَى خيراً لديها الجَلامِدُ

فيقول حُمَيدٌ: لقد ذَهَلْتُ عن كلِّ ميمٍ ودال، وشُغلتُ بمُلاعبةِ حُورٍ خِدال.

فيقول: أمِثْلُ هذه الدالية تُرْفَضُ وفيها؟:

عَضَمَّرَةٌ[3] فيها بَقاءٌ وشِدَّةٌ   ووالٍ لها، بادي النَّصيحةِ جاهدُ

وفيها ذِكْرُ الزُّبْدَة:

فلمَّا تَجلَّى اللَّيلُ عنها وأسفَرَتْ،   وفي غَلَسِ الصّبحِ الشُّخوصُ الأباعدُ

رَمَى عَينَهُ منها بصفراءَ جَعْدَةٍ   عليها تُعانيهِ، وعنها تُراوِدُ

فيقول حُمَيدٌ: لقد شُغِلتُ عن زُبْد، وطَرْدِ النافرة من الرُّبْد، بما وَهَبَ ربِّي الكَريمُ، ولا خَوْفَ عليَّ ولا حَزَنَ. ولقد كان الرجلُ منَّا يُعْمِلُ فِكْرَهُ السَّنةَ أو الأشهرَ، في الرَّجلِ الذي قد آتاهُ اللهُ الشَّرَفَ والمال، فرُبَّما رَجَعَ بالخَيْبَةِ، وإن أعطى فعطاءٌ زهيدٌ، ولكنَّ النَّظمَ فضيلةُ العرب.

مع لبيد بن ربيعة

ويَعرِضُ لهم لَبيدُ بنُ ربيعةَ فيدعوهم إلى منزله بالقَيْسِيَّةِ، ويُقسِمُ عليهم لَيَذْهَبُنَّ معه، فيَمشونَ قليلاً، فإذا هم بأبياتٍ ثلاثةٍ ليس في الجنَّةِ نَظيرها بَهاءً وحُسناً. فيقولُ لَبيدٌ: أتعرفُ أيها الأديبُ الحَلَبيُّ هذه الأبياتِ؟ فيقول: لا والذي حَجَّتِ القبائلُ كَعبتَه! فيقول: أمَّا الأوَّلُ فقَوْلي:

إنَّ تَقْوَى رَبِّنا خَيرُ نَفَلْ،   وبإذنِ اللهِ رَيْثي وعَجَلْ

وأمَّا الثاني فهو قولي:

أحْمَدُ اللهَ، فلا نِدَّ لَهُ،   بِيَدَيهِ الخَيرُ، ما شاءَ فَعَلْ

أمَّا الثالثُ فقولي:

مَن هَداهُ سُبُلَ الخَيرِ اهتَدَى   ناعِمَ البالِ، ومَن شاءَ أضَلّ

صَيَّرَها رَبِّي اللَّطيفُ الخبيرُ أبياتاً في الجنَّةِ، أسكنُها أُخرى الأبَدِ وأَنْعَمُ نعيمَ المُخَلَّد.

---

(1) ثرثارة.

(2) حمقاء.

(3) العجوز القبيحة.

فيَعجَبُ هو وأولئك القومُ ويقولون: إنّ ٱللّهَ قديرٌ على ما أراد.

المأدبة

ويَبدو له، أيّدَ ٱللّهُ مَجدَه بالتأييد، أن يَصنعَ مأدُبةً في الجِنانِ، يَجمَعُ فيها مَن أمكَن من شعراء الخَضرَمَةِ والإسلام، والذين أصّلوا كلامَ العرب، وجعلوه مَحفوظاً في الكُتب، وغيرهم ممّن يتأنّسُ بقليلِ الأدب. فيَخطُرُ له أن تكونَ كمآدِبِ الدارِ العاجلةِ، إذْ كان البارىءُ، جلّتْ عَظَمَتُهُ، لا يُعجِزُهُ أن يأتيَهُم بجَميع الأغراض، من غيرِ كُلفَةٍ ولا إبطاء، فتُنشأُ أرحاءٌ على الكَوثَر، تُجَعجِعُ لِطَحْنِ بُرّ من بُرّ الجنّة، وإنّه لأفضلُ من بُرّ الهُذَليّ الذي قال فيه:

لاَ دَرّ دَرّيَ إنْ أطـعَـمْـتُ رائـدَهُـمْ ... قِرْفَ الحَتِيّ وعـنـدي البُرُّ مكـنُـورُ

بمِقدارٍ تَفضُلُ به السّمواتُ والأرضينَ، فيَقترِحُ، أمضَى القادرُ له اقتراحَه، أن تَحضُرَ بين يديهِ جَوارٍ من الحُور العِين، يَعتَمِلنَ بأرحاء اليد: فرَحىً من دُرّ، ورحىً من عَسجَدٍ، وأرحاءٌ لم يَرَ أهلُ العاجلةِ شيئاً من شكلِ جواهرهنّ. فإذا نظر إليهنّ، حَمِدَ ٱللّهَ سُبحانَهُ على ما مَنَح، وذكرَ قولَ الرّاجز:

أعْـدَدْتُ لـلـضّـيْـفِ ولـلـجـيـرانِ ... جَـرِيـئَـتَـيْـنِ تَـتَـعَـاوَرَانِ

لا تَـرْزَأمـانِ وهُـمـا ظِـئـرانِ[1]

ويبتَسم إليهنّ ويقول؛ اطْحَنّ شَزْراً وبَتّاً. فيَقُلْنَ: ما شَزْرٌ وما بَتٌّ؟ فيقول: الشَّزْرُ على أيمانكُنّ، والبَتّ على شمائلكنّ، أما سَمِعْتُنّ قولَ القائل؟:

ونُـصْـبِـحُ بـالـغَـداةِ أتَـرَّ شـيءٍ، ... ونُـمْـسِـي بـالـعَـشِيّ طَـلَـنْـفَـحِـيـنـا[2]

ونَـطْـحَـنُ بـالـرّحَـى شَـزْراً وبَـتّـاً ... ولـو نُـعْـطَـى الـمَـغـازِلَ ما عَـيِـيـنـا

ويَجِسّ في صدره، عَمّرَهُ ٱللّهُ بالسرور، أرحاءً تدورُ فيها البَهائمُ، فَيَمثُلُ بينَ يَديهِ ما شاءَ ٱللّهُ من البيوت، فيها أحجارٌ من جواهرِ الجنّة، تُديرُ بَعضَها جِمالٌ تَسومُ في عِضاهِ[3] الفردوسِ، وأينُقٌ لا تَعطِفُ على الحِيران، وصُنوفٌ من البغالِ والبقر وبناتِ

---

(1) وصف رحى اليد.

(2) جائعين.

(3) نبات تأكله الإبل.

صَعْدة[1]، فإذا اجتَمَعَ من الطُّحْنِ ما يُظَنّ أنه كافٍ للمأدُبة، تَفَرّقَ خَدَمَهُ من الوِلدانِ المُخَلَّدين فجاؤوا بالعماريس[2]، وضروبِ الطَّيرِ التي جَرَتِ العادةُ بأكلِها: كأبْجاجِ العَكارِمِ[3]، وجوازِلِ الطّواويس، والسّمينِ من دجاجِ الرّحمةِ وفراريج الخُلْدِ، وسيقَتِ البَقَرُ والغَنَمُ والإبِلُ لتُعْتَبَطَ؛ فارتَفَعَ رُغاءُ العَكرِ[4]، ويُعارُ المَعَزِ، وثُؤاجُ الضأن، وصِياحُ الدِّيَكَةِ، لعِيانِ المُدْيَةِ. وذلك كُلُّهُ، بحمد الله، لا ألَمَ فيه، وإنّما هو جِدٌّ مثلُ اللّعِب، فلا إلهَ إلاّ اللّهُ الذي ابتَدَعَ خَلْقَهُ من غيرِ رَوِيّةٍ، وصَوّرَهُ بِلا مِثال.

فإذا حَصَلَتِ النُّحوضُ[5] فوقَ الأوْفاض[6]، قال: زادَ اللّهُ أمرَه من النفاذ: أحضِروا مَن في الجنة من الطُّهاةِ السّاكنينَ بحَلَبَ على مَمَرّ الأزمان، فتحضُرُ جماعةٌ كثيرةٌ، فيأمرهم باتّخاذ الأطعِمة، وتلكَ لَذّةٌ يَهَبُهَا الله، عَزّ سُلطانُهُ، بدليلِ قوله: ﴿وفيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ وأنتُمْ فِيها خَالِدون. وتِلكَ الجَنّةُ التي أُورِثْتُمُوها بما كُنْتُم تَعْمَلونَ. لكُم فيها فاكِهَةٌ كثيرةٌ مِنْهَا تَأكُلونَ﴾[7].

فإذا أتَتِ الأطعمةُ، افترَقَ غِلمانُهُ الّذينَ كأنّهمُ اللّؤلؤ المكنونُ، لإحضارِ المَدعوّينَ، فلا يَترُكونَ في الجَنّةِ شاعراً إسلامياً، ولا مُخضرَماً، ولا عالماً بشيء من أصناف العلوم، ولا مُتأدّباً، إلاّ أحضروه. فيَجتَمعُ بَجْدٌ عَظِيمٌ.

فتُوضَعُ الخُونُ[8] من الذّهَبِ، والفَواثيرُ من اللُّجين، ويَجلِسُ عليها الآكِلُونَ، وتُنقَلُ إليهم الصِّحافُ، فتُقيمُ الصَّحْفَةُ لدَيْهِم وهم يُصيبون ممّا ضُمّنَتْهُ كَعُمْرِ كَوَيّ وسُرَيّ[9].

فإذا قَضَوا الأرَبَ من الطّعام، جاءت السُّقاةُ بأصناف الأشربة، والمُسمِعاتُ بالأصوات المُطرِبة.

---

(1) حمير الوحش.
(2) الجداء.
(3) فرخ الحمام.
(4) جمع الإبل.
(5) اللحوم.
(6) الموائد.
(7) سورة الزخرف، الآية: 71 ـ 73.
(8) المائدة.
(9) أسماء النجوم.

ويقول: لا فتيء ناطقاً بالصواب: عليّ بِمَنْ في الجنة من المُغَنِّين والمُغنيات: ممّن كان في الدار العاجلة، فقُضِيَتْ له التوبةُ. فتحضُرُ جماعةٌ كثيرةٌ من رجال ونساء: فيهمُ الغريضُ، ومَعبَدٌ، وابنُ مِسْجَحٍ، وابنُ سُرَيْجٍ؛ إلى أن يَحْضُرَ إبراهيمُ المَوْصليّ وابنُهُ إسحاقُ. فيقول قائلٌ من الجماعة، وقد رأى أسرابَ قِيانٍ قد حضرنَ، مثل بَصبَصَ ودنانيرَ وعِنانَ: من العَجَبِ أنّ الجَرادَتَيْنِ في أقاصي الجنة. فإذا سَمِعَ ذلك لا بَرِحَ سَمْعُهُ مَطروقاً بما يُبهِجُهُ، قال: لا بُدّ من حضورهما. فيركبُ بعضُ الخدمِ ناقةً من نوقِ الجنة، ويذهبُ إليهما على بُعدِ مكانهما، فتُقبلانِ على نَجيبَيْنِ أسرعَ من البرق اللامع. فإذا حَصَلتا في المجلس، حيّاهما وبشّ بهما وقال: كيف خلصتُما إلى دار الرحمةِ بعدما خبَطتُما في الضلال؟ فتقولان: قُدِرتْ لنا التّوْبةُ ومُتْنا على دينِ الأنبياء المُرْسَلين. فيقول؛ أحسنَ اللّهُ إليكما، أسمِعانا شيئاً من القصيدة الحائية التي تُرْوَى لعبيدٍ مَرّةً ولأوْسٍ أخرى، وما سَمِعَتا قطّ بعَبيدٍ ولا أوْسٍ، فتُلْهَمانِ أن تُغَنّيا بالمطلوب، فتُلَحّنانِ:

وَدّعْ لَمِيسَ وَدَاعَ الوامِقِ[1] اللاحي[2] ... قد فتكتْ في فَسادٍ بعدَ إصْلاحِ

إذْ تَسْتَبيكَ بِمَصْقُولٍ عَوارِضُهُ ... حَمْشِ اللِّثاتِ[3] عِذابٍ غيرِ مِملاحِ

كأنّ ريقَتَها بعدَ الكَرى اغتَبَقَتْ ... من ماءِ أدكَنَ في الحانوتِ نَضّاحِ

ومِنْ مُشَعْشَعَةٍ[4] وَرَهاءَ نَشْوَتُها، ... ومن أنابيبِ رُمّانٍ وتُفّاحِ

هَبّتْ تَلومُ، وليستْ ساعةَ اللاحي، ... هَلاّ انتظرتِ بهذا اللّوْمِ إصباحي؟

قاتَلَها اللّهُ، تَلْحاني، وقد علمتْ ... أنّي لنفسيَ إفسادي وإصلاحي!

إنْ أشرَبِ الخمرَ، أو أُرْزأْ لها ثَمَناً، ... فلا مَحالَةَ يَوماً أنّني صاحِ

ولا مَحالَةَ مِنْ قَبرٍ بِمَحْنِيَةٍ، ... أوْ في مَليعٍ كظَهْرِ التُّرْسِ وضّاحِ

فتُطرِبانِ مَن سَمِعَ، وتَستَفِزّانِ الأفئدةَ بالسّرور، ويكثرُ حمدُ اللّهِ سُبحانه، كما أنعمَ على المؤمنين والتّائبين، وخلّصَهم من دار الشّقوةِ إلى مَحَلّ النّعيم.

ويَعرِضُ له، أدامَ اللّهُ الجمالَ ببقائه، الشّوْقُ إلى نظرِ سَحابٍ كالسحاب الذي وصفَه قائلُ هذه القصيدة في قوله:

---

(1) المحب.

(2) اللائم.

(3) دقيقة اللثة.

(4) خمر ممزوجة بماء.

إنّي أرِقتُ، ولم تأرَقْ معي صاحِ، لِمُستَكِفٍّ، بُعَيدَ النومِ، لَمّاحِ
قَدْ نِمتَ عنّي وباتَ البَرقُ يُسهِرُني كما استضاءَ يَهوديٌّ بِمِصْباحِ
تَهدي الجَنُوبُ بأولاهُ ونَاءَ بِهِ أعجازُ مُزْنٍ، يَسوقُ الماءَ دَلّاحِ[1]

فيُنشِئُ اللّهُ، تَعالتْ آلاؤه، سَحابةً كأحسنِ ما يكونُ من السُحُب، مَنْ نَظَرَ إليها شَهِدَ أنّهُ لم يرَ قطُّ شيئاً أحسنَ منها، مُحلاةً بالبرقِ في وَسَطِها وأطرافِها، تَمْطُرُ بماء وردِ الجنّة من طَلٍّ وطَشّ، وتَنثرُ حصى الكافورِ كأنّه صغارُ البَرَد، فعَزّ إلهُنا القديمُ الذي لا يُعجِزُهُ تصويرُ الأمانيّ وتكوينُ الهواجس من الظُنون.

مع جِران العَوْدِ النُّمَيريّ

ويَلتَفِتُ فإذا هو بجِرانِ العَوْدِ النُّمَيريّ، فيُحَيّيه ويُرَحِّبُ به، ويقول لبعضِ القِيان: أسمِعينا قولَ هذا المُحسن:

حَمَلْنَ جِرانَ العَوْدِ حتى وَضَعْنَهُ بِعَلياءَ في أرجائِها الجِنُّ تَعْزِفُ
وأحرَزْنَ مِنّا كلَّ حُجزةِ مِئزرٍ لَهُنَّ، وطاحَ النَّوفَليُّ[2] المُزَخرَفُ
وقُلْنَ: تَمَتَّعْ لَيلةَ النّأيِ هذهِ فإنّكَ مَرجومٌ غداً أو مُسَيَّفُ!

فتُصيبُ تلك القَيْنَةُ وتُجيدُ. فإذا عَجِبَتِ الجَماعةُ من إحسانِها وإصابتِها قالتْ: أتدرونَ مَن أنا؟ فيقولون: لا واللهِ المحمودِ! فتقولُ: أنا أُمّ عمرٍو التي يقول فيها القائل:

تَصُدُّ الكأسَ عَنّا أُمَّ عَمرٍو وكانَ الكأسُ مَجراها اليَمينا
وما شَرُّ الثّلاثةِ أُمَّ عَمرٍو بِصاحِبِكِ الذي لا تَصْبَحينا!

فيَزدادونَ بها عَجَباً، ولها إكراماً، ويقولون: لِمَن هذا الشعرُ؟ ألِعَمرو بن عَدِيّ اللّخميّ؟ أمْ لعمرو بن كُلثوم التغلبيّ؟ فتقولُ: أنا شهِدْتُ نَدْمانَيْ جَذيمةَ: مالكاً وعَقيلاً، وصَبَحْتُهما الخمرَ المُشَعْشَعَةَ، لمّا وَجَدا عمرو بنَ عديّ، فكنتُ أصرفُ الكأسَ عنه، فقال هذين البيتَيْنِ، فلعَلّ عَمرَو بن كلثومٍ حَسَّنَ بهما كلامه واستزادَهما في أبياته.

---

(1) الغيم الكثير الماء.

(2) الحلي على جبين المرأة.

رقص الجواري:

ويَذكرُ، أذكَرَهُ ٱللّهُ بالصّالحاتِ، الأبياتِ التي تُنسَبُ إلى الخليل بنِ أحمدَ. والخليلُ يومئذٍ في الجماعة، وأنها تَصلُحُ لأن يُرقَصَ عليها، فيُنشِئُ ٱللّهُ، القادرُ بلُطفِ حِكمتِهِ، شجَرَةً من عفْزٍ[1]، فَتُونِعُ لوَقْتِها، ثم تَنقُضُ عَدداً لا يُحصيه إلاّ ٱللّهُ سبحانه، وتَنشَقُّ كلُّ واحدةٍ منه عن أربعِ جَوارٍ يَرُقْنَ الرائينَ، ممّن قَرُبَ والنّائينَ، يَرْقُصنَ على الأبياتِ المنسوبة إلى الخليل، وأوّلُها:

إنَّ الـخَـلـيـطَ تَـصَدَّعْ	فَـطِـرْ بـدائِـكَ أو قَـعْ
لَـولاَ جَـوارٍ حِـسـانٌ	مِـثْـلُ الـجَـآذِرِ أرْبَـعْ
أُمُّ الـرَّبـابِ وأسـمـا	ءُ والـبُـغُـومُ وبَـوزَعْ
لَـقُـلْـتُ لـلـظّـاعـن: اظْـعَـنْ	إذا بَـدَا لَـكَ، أوْ دَعْ!

فتهتزّ أرجاءُ الجنّةِ، ويقولُ: لا زالَ مُنطَقاً بالسّدادِ: لمن هذه الأبياتُ يا أبا عبد الرحمن؟ فيقول الخليلُ: لا أعلَم. فيقول: إنّا كنّا في الدّارِ العاجلةِ نَروي هذه الأبياتِ لك. فيقول الخليلُ: لا أذكرُ شيئاً من ذلك، ويجوز أنْ يكُونَ ما قيلَ حقّاً. فيقول: أفنسيتَ يا أبا عبد الرحمن وأنتَ أذكَرُ العرب في عصرك؟ فيقولُ الخليلُ: إنّ عُبُورَ السّراطِ يَنفُضُ الخَلَدَ ممّا استودعَ.

فُقّاع الدار الخادعة

ويَخطرُ لهُ ذِكرُ الفُقّاع[2] الذي كان يُعمَلُ في الدارِ الخادِعةِ، فيُجري ٱللّهُ بقُدرتهِ أنهاراً من فُقّاعٍ، الجُرعةُ منها لو عُدِلَتْ بِلَذّاتِ الفانيةِ، مُنذُ خَلَقَ ٱللّهُ السّمواتِ والأرضَ إلى يوم تَطْوي الأممَ الآخرةُ، لكانتْ أفضلَ وأشفَّ. فيقول في نفسِه: قد عَلِمتُ أنّ ٱللّهَ قديرٌ، والذي أُريدُ، نحوُ ما كنتُ أراهُ مع الطّوّافين في الدار الذاهبة. فلا تكمُلُ هذه المقالةُ، حتى يَجمَعَ ٱللّهُ كلَّ فُقّاعيٍ في الجَنّةِ من أهلِ العراق والشام وغيرهما من البلاد، بينَ أيديهمُ الوِلدانُ المُخلَّدونَ يَحمِلُونَ السّلالَ إلى أهل ذلك المَجلِس. فيقول:

---

(1) جوز.

(2) الجعة.

حَفِظَ ٱللّهُ على أهلِ الأدبِ حَوْبَاءه[1]، لمَن حَضَرَه من أهلِ العِلم: ما تُسمّى هذه السُلالُ بالعربيّةِ؟ فيَرمُونَ[2].

ويقولُ بعضُهم: هذه تُسمّى البَواسِنَ، واحدتُها باسِنَةٌ، فيقولُ قائلٌ من الحاضرين: مَنْ ذَكَرَ هذا من أهل اللغة؟ فيقولُ: لا انفَكّتِ الفوائدُ واصلةً منه إلى الجُلَساءِ: قد ذَكَرَها ابنُ دَرَستَوَيْه، وهو يومئذٍ في الحَضرة. فيقولُ له الخليلُ: من أينَ جئتَ بهذا الحَرْفِ؟ فيقول ابنُ دَرَستَوَيْه: وَجَدْتُهُ في كُتُبِ النَّضرِ بنِ شُمَيْل. فيقولُ الخليلُ: أَتَحُقُّ هذا يا نَضرُ، فأنتَ عندنا الثِّقَةُ؟ فيقولُ النَّضرُ: قد التَبَسَ عليّ الأمرُ، ولم يحكِ الرجلُ، إن شاء الله، إلاّ حقّاً.

طيور الجنة:

ويَعبُر بينَ تلكَ الأكراسِ[3]، طاووسٌ من طَواويسِ الجَنّةِ يَروق من رآه حُسْناً، فيَشتَهيهِ أبو عُبيدة مَصوصاً[4]، فيتكوّنُ كذلك في صَحفةٍ منَ الذّهب. فإذا قُضِيَ منه الوَطَرُ، انضمّت عظامُهُ بعضُها إلى بَعضٍ، ثمّ تَصيرُ طاووساً كما بَدأ. فتقولُ الجماعةُ: سُبحانَ مَن يُحيي العِظامَ وهي رَميم. هذا كما جاء في الكتابِ الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي، قال: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً، ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً، وَاعْلَمْ أَنَّ ٱللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5].

وتَمُرُّ إوَزّةٌ مثلُ البُخْتِيّةِ[6]، فيَتَمنّاها بعضُ القومِ شِواءً، فتَتَمَثّلُ على خِوانٍ من الزُّمُرّدِ، فإذا قُضِيَتْ منها الحاجةُ، عادتْ، بإذنِ ٱللّهِ، إلى هَيئةِ ذواتِ الجناحِ. ويختارها بعضُ الحاضرين كَرْدناجاً[7]، وبعضُهُمْ مَعْمُولةً بسُمّاقٍ، وبعضهم معمولةً بِلَبَنٍ وخَلّ، وغيرَ ذلك، وهي تكونُ على ما يُريدون. فإذا تكَرّرتْ بينَهُمْ قال أبو عثمان المازنيُّ لعَبدِ

---

(1) نفسه.
(2) يسكتون.
(3) الجماعات.
(4) مطبوخ بعد نقعه بالخل.
(5) سورة البقرة، الآية 260.
(6) طويلة العنق.
(7) كباب.

الملك بن قُرَيْب الأصمعيّ: يا أبا سعيدٍ، ما وَزْنُ إوَزّة؟ فيقولُ الأصمعيُّ: ألي تُعرِّضُ بهذا يا فُصْعُلُ[1]، وطالَ ما جئتَ مَجْلِسي بالبَصْرَةِ وأنتَ لا يُرْفَعُ بكَ رأسٌ؟! وَزْنُ إوَزّةٍ في الموجودِ إفَعْلَةٌ، ووزنًا في الأصل إفْعَلَةٌ. فيقول المازنيُّ: ما الدَّليلُ على أنّ الهمزةَ فيها زائدةٌ، وأنّها ليستْ بأصليّةٍ ووزنُها ليس فِعَلّةٌ؟ فيقولُ الأصمعيُّ: أمّا زيادةُ الهمزةِ في أوّلِها، فيَدُلُّ عليه قولُهُمْ وَزٌّ. فيقول أبو عُثمانَ: ليس ذلك بدليلٍ على أنّ الهمزة زائدةٌ، لأنّهم قد قالوا نَاسٌ، وأصْلُهُ أُنَاسٌ، ومِيْهَةٌ لجُدَرِيِّ الغَنَم، وإنّما هوَ أُمِيْهَةٌ، فيقول الأصمعيُّ: أليسَ أصحابُكَ من أهلِ القِياسِ يزعمونَ أنّه إفْعَلَةٌ، وإذا بَنَوْا من أوَى اسْماً على وَزْنِ إوَزّةٍ قالوا: إيَّاةٌ؟ ولو أنّها فِعَلّةٌ قالوا: إوَيَّةٌ، ولو جاؤوا بها على إفْعَلَةٍ، بسكونِ العَيْنِ، قالوا: إيْيَةٌ، والياءُ التي بَعْدَ الهَمزةِ، وهي همزةُ أوَى، جُعِلَتْ ياءً لاجتماعِ الهَمْزَتَيْنِ، ولأنّ قَبْلَها مكسوراً وهي مفتوحةٌ. وإذا خفّفْتَ همزة مِئْزَرٍ، جَعَلْتَها ياءً خالصةً. فيقول المازنيُّ: تأوَّلٌ من أصحابنا وادّعاءٌ، لأنّ إوَزّةً لم يَثْبُتْ أنّ الهمزةَ فيها زائدةٌ. فيقول الأصمعيُّ:

رَيَّشْتُ جُزْهُمْ نَبْلاً فَرَمَى ... جُزْهُمَا مِنْهُنَّ فُوقٌ وغِرارُ

تَبِعْتَهُمْ مُسْتَفِيداً، ثمّ طَعَنْتَ فيما قالوه مُعيداً، ما مَثَلُكَ ومَثَلُهُم إلاّ كما قال الأوّلُ:

أُعَلِّمُهُ الرِّمايَةَ كلَّ يَوْمٍ ... فلمّا اشْتَدَّ ساعِدُهُ رَمَانِي

ويَنْهَضُ كالمُغْضَبِ، ويفترِقُ أهلُ ذلك المجلسِ وهم ناعِمون.

مع الحور العين

ويَخلو، لا أخلاهُ اللّهُ من الإحسانِ، بحُورِيَّتَيْنِ له من الحُورِ العِينِ، فإذا بَهَرَه ما يراهُ من الجمالِ قال: أعززْ عليّ بهلاكِ الكِنديّ، إنّي لأذكرُ بكُما قولَه:

كَدأبِكَ من أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَها، ... وجارَتِها أُمِّ الرَّبابِ بمَأْسَلِ

إذا قامَتا تَضَوَّعَ المِسْكُ منهُما ... نَسيمَ الصَّبا جاءَتْ بِرَيّا القَرَنْفُلِ

وقولَهُ:

كعاطِفَتَيْنِ من نِعاجِ تَبالَةٍ ... على جُؤذُرَيْنِ، أوْ كبَعْضِ دُمى هَكِرْ

---

(1) العقرب الصغير.

إذا قـامَـتـا تَـضَـوَّعَ الـمِـسـكُ مِـنـهُـمَـا   وأصْـورَةٌ مـن الـلَّـطـيـمـةِ والـقُـطُـرْ

وأينَ صاحبتاهُ منكما لا كرامةَ لهما ولا نُعمةَ عَينٍ؟ لجَلْسَةٌ مَعَكُما بمقدارِ دقيقةٍ من دقائقِ ساعاتِ الدُّنيا، خَيرٌ من مُلْكِ بني آكلِ المُرارِ وبني نَصْر بالجيرة وآلِ جَفْنَةَ مُلوكِ الشّامِ.

ويُقبِلُ على كُلّ واحِدَةٍ منهما يترَشَّفُ رُضابَها ويقولُ: إنّ امرأَ القَيْس لَمِسْكينٌ مِسكينٌ! تحترِقُ عِظامُهُ في السَّعيرِ وأنا أتمثّلُ بقولِه:

كـأنَّ الـمُـدامَ وصَـوْبَ الـغَـمـامِ   وريـحَ الـخُـزامَـى ونَـشْـرَ الـقُـطُـرْ
يُـعَـلُّ بِـهِ بَـرْدُ أنْـيـابِـهَـا،   إذا غَـرَّدَ الـطَّـائِـرُ الـمُـسْـتَـحِـرْ

وقوله:

أيّـامَ فُـوهـا كُـلَّـمـا نَـبَّـهْـتُـهـا   كـالمِـسْـكِ بـاتَ وظَـلَّ فـي الـفِـدَامِ
أُنُـفٌ كَـلَـوْنِ دَمِ الـغَـزَالِ مُـعَـتَّـقٌ   مِـن خَـمْـرِ عـانَـةَ أو كـرومِ شِـبَـام

فتستَغربُ إحداهما ضَحِكاً. فيقولُ: مِمَّ تَضحكِينَ؟ فتقولُ: فَرَحاً بتَفَضُّلِ ٱللّهِ الذي وَهَبَ نَعيماً، وكانَ بالمَغفرةِ زَعيماً، أتدري مَنْ أنا يا عليّ بنَ مَنصورٍ؟ فيقولُ: أنتِ من حُورِ الجِنانِ اللّواتي خلقكنَّ ٱللّهُ جَزاءً للمُتّقينَ، وقال فِيكُنّ: «كأنّهُنّ الياقُوتُ والمَرْجانُ[1]» فتقولُ: أنا كذلك بإنْعامِ ٱللّهِ العَظيمِ، على أنّي كُنتُ في الدار العاجلَةِ أُعْرَفُ بحَمدُونَةَ، وأسْكُنُ في بابِ العِراقِ بحَلَبَ وأبي صاحبُ رحىً، وتزوّجَني رَجلٌ يَبيعُ السَّقَطَ[2] فَطلّقني لرائحةٍ كَرِهَها من فيّ، وكُنتُ من أقْبَحِ نِساءِ حَلَب. فلمّا عَرَفتُ ذلك زَهِدتُ في الدنيا الغرّارة، وتوَفَّرْتُ على العِبادة، وأكلتُ من مِغْزَلي ومِرْدَني[3]، فَصَيَّرَني ذلك إلى ما تَرى.

وتقولُ الأخرى: أتَدْري مَنْ أنا يا عليّ بن مَنصور؟ أنا تَوْفيقُ السَّوداءُ التي كانت تَخْدُمُ في دار العِلْمِ ببغدادَ على زَمانِ أبي مَنصُورٍ مُحمّد بن عليّ الخازن وكنتُ أُخرِجُ الكتبَ إلى النُّسّاخ.

---

(1) سورة الرحمن، الآية 59.
(2) ما يرميه القصاب.
(3) مغزلي.

فيَقولُ: لا إلهَ إلاّ ٱللّهُ، لقد كنتِ سوداءَ فصرتِ أنصعَ من الكافور، وإن شئتِ القافور[1]. فتقول: أتعْجَبُ من هذا، والشاعرُ يقولُ لبَعضِ المَخلوقين:

لَوْ أنّ مِنْ نُورِهِ مِثْقالَ خَرْدَلَةٍ   في السُّودِ كُلِّهِمِ، لأبْيَضّتِ السُّودُ

ويَمُرُّ مَلَكٌ من الملائكةِ، فيقولُ: يا عبدَ الله، أخبِرْني عن الحُور العِين، أليْس في الكتابِ الكريم: ﴿إنّا أنشأناهُنَّ إنشاءً، فَجَعَلْناهُنَّ أبكاراً، عُرُباً أتراباً، لأصحابِ اليَمِينِ﴾[2]. فيقول المَلَكُ: هُنّ على ضربينِ: ضَرْبٌ خَلَقَهُ ٱللّهُ في الجَنّةِ لم يَعْرِفْ غَيْرَها، وضَرْبٌ نَقَلَهُ ٱللّهُ من الدار العاجلة لمّا عَمِلَ الأعمالَ الصالحةَ. فيقولُ، وقد هَكِرَ[3] مِمّا سَمِعَ: فأينَ اللّواتي لم يكُنّ في الدارِ الفانية؟ وكيف يَتَمَيّزْنَ مِنَ غَيْرِهِنّ؟ فيقولُ الملكُ: اقْفُ أثري لتَرَى البَديءَ مِنْ قُدرةِ ٱللّهِ.

فَيَتْبَعُهُ، فيَجيءُ به إلى حَدائقَ لا يعرِفُ كُنْهَهَا إلاّ ٱللّهُ، فيقول المَلَكُ: خُذْ ثَمَرَةً من هذا الثمرِ فاكسِرْها فإنّ هذا الشجرَ يُعرف بشجر الحُور.

فيأخذُ سفَرْجلةً، أو رُمّانةً، أو تُفّاحةً، أو ما شاء ٱللّهُ من الثمار، فيَكسِرُها، فتخرجُ منها جاريةٌ حَوْراءُ عَيْناءُ تُبْرَقُ لِحُسْنِها حُوريّاتُ الجِنانِ. فتقولُ: مَنْ أنْتَ يا عبدَ ٱللّهِ؟ فيقولُ: أنا فلان بن فُلانٍ. فتقول: إني أُمَنّى بِلقائِكَ قَبْلَ أن يَخلُقَ ٱللّهُ الدُّنيا بأربعةِ آلافِ سنة. فعِنِدَ ذلك يَسجُدُ إعظاماً للّهِ القديرِ ويقول: هذا كما جاء في الحديث: أعدَدْتُ لِعِبادِيَ المُؤمِنِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، بَلْهَ ما أطْلَعْتُهُمْ عَلَيْهِ.

ويَخطُرُ في نَفْسِهِ، وهو ساجدٌ، أنّ تلكَ الجاريةَ، على حُسنِها، ضاويةٌ، فيرفَعُ رأسَهُ من السّجودِ وقد صار من ورائِها رِدْفٌ يُضاهي كُثْبانَ عالِجٍ، وأنْقاءَ الدّهْناءِ، وأرْمِلَةَ يَبرِينَ وبني سَعْدٍ، فيُهالُ من قُدرةِ ٱللّهِ اللّطيفِ الخبير ويقولُ: يا رَازِقَ المُشرِقَةِ سَناها، ومُبلغَ السائلةِ مُناها، والذي فعلَ ما أعجزَ وهال، ودَعا إلى الحِلم الجُهّالَ، أسألُكَ أنْ تَقْصُرَ بُوصَ[4] هذه الحُوريّةِ على مِيلٍ في مِيل، فقد جازَ بها قدرُكَ حَدَّ التأميل. فيقالُ له: أنتَ مُخَيّرٌ في تكوينِ هذهِ الجاريةِ كما تَشاء. فيَقتَصِرُ من ذلك على الإرادة.

---

(1) وعاء الطيب.

(2) سورة الواقعة، الآية 35 ـ 38.

(3) عجب.

(4) عجز.

IV

في الطريق إلى أهل النار

مدائن العفاريت

ويَبْدو له أنْ يَطَّلِعَ إلى أهلِ النَّارِ فينظرَ إلى ما هم فيه ليَعظُمَ شُكرُهُ على النِّعَم، بدليلِ قوله تعالى: ﴿قال قائلٌ منهم: إني كانَ لي قَرينٌ، يَقولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ المُصَدِّقينَ، أئِذا مِتْنا وكُنّا تُراباً وعِظاماً أئِنا لَمَدِينُونَ؟ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ؟ فاطَّلَعَ فرآهُ في سَواء الجَحِيمِ، قال: تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ، ولَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ المُحْضَرِينَ﴾[1].

فيرْكَبُ بَعضَ دوابِّ الجَنَّةِ ويَسيرُ، فإذا هوَ بمَدائنَ لَيستْ كَمَدائنِ الجنّة، ولا علَيْها النّورُ الشّعشعانيُّ، وهي ذاتُ أدحالٍ[2] وغَماليلَ[3]. فيقولُ لبعضِ الملائكة: ما هذه يا عبدَ اللّهِ؟ فيقولُ: هذه جَنّةُ العفاريتِ الذينَ آمَنوا بمُحَمّدٍ ﷺ، وذُكِروا في الأحقافِ، وفي سورة الجِنّ، وهُمْ عَدَدٌ كثيرٌ. فيقول: لأعْدِلَنَّ إلى هؤلاء فلَنْ أخلُوَ لَدَيْهِمْ من أعْجوبةٍ. فيَعوجُ عليهِمْ، فإذا هو بشَيْخٍ جالسٍ على بابِ مغارةٍ، فيُسلِّمُ عليه فيُحْسِنُ الرَّدَّ ويقول: ما جاءَ بكَ يا إنْسيُّ؟ إنّكَ بخَيرٍ لَعَسيٌّ[4]، ما لَكَ منَ القومِ سِيٌّ[5]!

فيقول: سَمِعْتُ أنّكُم جِنٌّ مُؤمِنونَ فجِئْتُ ألتمِسُ عندكم أخبارَ الجِنّان، وما لَعلّه لَدَيْكم من أشعارِ المَرَدَةِ.

---

(1) سورة الصافات، الآية 51 ـ 57.

(2) أنفاق.

(3) أودية ضيقة ومظلمة.

(4) خليق.

(5) مثيل.

فيقول ذلك الشيخ: لقد أصَبْتَ العالِمَ بِبَجْدَةِ الأمر، ومنْ هوَ منه كالقمر من الهالة لا كالحاقنِ من الإهالة، فَسَلْ عمّا بدا لَكَ.

فيقول: ما اسمُكَ أيُّها الشيخ؟ فيقول: أنا الخَيْتَعُورُ أحَدُ بني الشَّيْصَبانِ، ولَسْنا من وَلَدِ إبليسَ ولكِنّا من الجِنّ الذينَ كانوا يسكنون الأرضَ قبلَ وَلَدِ آدَمَ، صلّى الله عليه.

فيقول: أخبِرْني عن أشعار الجِنّ، فقد جَمَعَ منها المعروفُ بالمَرْزُبانيّ قطعةً صالحة. فيقول ذلك الشيخ: إنّما ذلك هَذَيانٌ لا مُعتَمَدَ عليه، وهل يَعْرِفُ البَشَرُ مِنَ النَّظِيم إلاّ كما تَعْرِفُ البَقَرُ من عِلمِ الهيئةِ ومساحةِ الأرض؟ وإنّما لهم خَمْسَةَ عشرَ جنساً من المَوْزونِ قلّ ما يَعْدوها القائِلونَ، وإنّ لنا لآلافَ أوزانٍ ما سَمِعَ بها الإنسُ، وإنّما كانت تَخطُرُ بهمْ أطَيْفالٌ مِنّا عارمونَ، فتَنْفِثُ إليهِمْ مِقدارَ الضُّوازَةِ من أراكِ نعمانَ[1]. ولقد نَظَمْتُ الرَّجَزَ والقصيدَ قبلَ أن يَخْلُقَ ٱللّهُ آدَمَ بكَوْرٍ أو كَوْرَيْنِ[2]. وقد بلَغني أنّكم مَعشرَ الإنسِ تَلْهَجونَ بقصيدة امرىء القَيْسِ:

قِـفَـا نَـبـكِ مِـن ذِكْـرَى حَـبِـيـبٍ ومَـنْـزِلِ

وتُحَفِّظُونَهَا الحَزاوِرَةَ[3] في المكاتِبِ، وإنْ شِئتَ أمليْتُكَ ألفَ كَلِمَةٍ على هذا الوَزْنِ على مثلِ: مَنزِلِ وحَوْمَلِ، وألفاً على ذلك القَرِيّ يجيء على مَنْزِلُ وحَوْمَلُ، وألفاً على مَنزِلاً وحَوْمَلاً، وألفاً على: مَنْزِلَهْ وَحَوْمَلَهْ، وألفاً على: مَنْزِلُهْ وَحَوْمَلُهْ، وألفاً على: مَنْزِلِهْ وحَوْمَلِهْ. وكلُّ ذلك لِشاعرٍ مِنّا هَلَكَ وهو كافرٌ، وهو الآنَ يَشْتَعِلُ في أطْباقِ الجَحيم. فيقول، وَصَلَ ٱللّهُ أوقاتَه بالسّعادةِ: أيُّها الشَّيخُ، لقد بَقِيَ عليكَ حِفظُكَ! فيقول: لَسْنا مِثْلَكُمْ يا بني آدمَ يَغلِبُ علينا النِّسيانُ والرُّطوبةُ، لأنّكم خُلِقْتُمْ من حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وخُلِقنا من مارجٍ من نار. فتَحْمِلُهُ الرَّغْبَةُ في الأدبِ أن يقولَ لذلك الشَّيخ: أفتُمِلُّ عليّ شيئاً من تلك الأشعار؟ فيقول الشيخُ: فإذا شئتَ أمْلَلْتُكَ ما لا تَسِقُه الرِّكابُ، ولا تَسَعُهُ صحُفُ دُنْياك.

فَيَهُمُّ الشّيخ، لا زالتْ هِمَّتُهُ عاليةً، بأن يكتَتِبَ منه، ثمّ يقول: لقد شَقِيتُ في الدارِ

(1) نوع من الشجر والمقصود قليل من كثير.
(2) حوالى 300 سنة.
(3) الغلمان.

العاجلة بجمعِ الأدب، ولم أحظَ منه بطائلٍ، وإنّما كُنتُ أتقرّبُ به إلى الرؤساءِ، فأحْتَلِبُ منهُم درّ بكيءٍ[1]، وأجهَد أخلافَ مَصورٍ، ولَستُ بمُوفّقٍ إنْ تركتُ لَذّاتِ الجنّةِ وأقبلتُ أنتسخُ آدابَ الجنّ، ومعي من الأدبِ ما هو كافٍ، لا سِيّما وقد شاعَ النّسيانُ في أهلِ أدبِ الجنّةِ، فصِرتُ من أكثرِهم روايةً وأوسَعِهِمْ حِفظاً، ولِلّهِ الحمد.

ويقول لذلكَ الشيخ: ما كُنيَتُكَ لأكرِمَكَ بالتّكنيةِ؟ فيقول: «أبو هَدرَش، أولَدتُ من الأولادِ ما شاءَ الله، فَهُمْ قبائل: بَعضهم في النّار الموقَدة، وبَعضهم في الجِنانِ». فيقول: يا أبا هَدرَش، ما لي أراكَ أشيَبَ وأهلُ الجنّةِ شَبابٌ؟ فيقول: إنّ الإنسَ أُكرِموا بذلك وأُحرِمْناهُ، لأنّا أُعطِينا الحَولةَ[2] في الدارِ الماضية، فكان أحدُنا إن شاء صارَ حَيّةً رَقشاءَ، وإن شاءَ صار عُصفوراً، وإن شاءَ صار حمامةً، فمُنِعنا التّصوّرَ في الدارِ الآخِرَة، وتُرِكنا على خَلقِنا لا نَتغيّرُ، وعُوّضَ بَنو آدمَ كَونَهُم فيما حَسُنَ من الصوَر. وكانَ قائلُ الإنسِ يَقول في الدار الذاهبةِ: أُعطِينا الحِيلةَ، وأُعطِيَ الجِنُّ الحَولة.

ولقد لَقيتُ من بني آدمَ شرّاً، ولَقوا منّي كذلك، دخلتُ مرّةً دارَ أُناسٍ أريدُ أن أصرعَ فتاةً لهم، فتَصوّرتُ في صورة غَضلٍ[3]، فدَعَوا ليَ الضّيْاوِنَ[4]، فلمّا أرهَقَتْني تَحوّلتُ صِلاً أرقَمَ ودَخَلتُ في قَطِيلٍ[5] هناك، فلمّا عَلِموا ذلك كَشَفوهُ عَنّي؛ فلمّا خِفتُ القَتلَ صِرتُ ريحاً هَفّافَةً فلَحِقتُ بالرّوافِدِ[6] ونَقَضُوا تلك الخُشُبَ والأجذالَ فلم يَرَوا شيئاً. فجَعَلوا يَتفكّرونَ ويقولونَ: ليسَ هاهنا مَكانٌ يُمكِنُ أن يَستَتِرَ فيه. فبَينا هُم يَتذاكرونَ ذلك عَمَدْتُ لِكَعابِهِم[7] في الكِلّةِ[8]، فلمّا رأتني أصابَها الصّرْعُ، واجتَمَعَ أهلُها من كلّ أوبٍ، وجَمَعوا لها الرُّقاةَ، وجاؤوا بالأطِبّةِ وبَذَلوا المُنفِساتِ[9]، فما تَرَكَ راقٍ

---

(1) القليل من الحليب.
(2) القدرة.
(3) جرذ.
(4) القطط.
(5) جذع نخلة.
(6) خشب السقف.
(7) فتاتهم.
(8) ستار خفيف لدرء الذباب.
(9) كل ما هو نفيس.

رُقْيَةً إلاَّ عَرَضَها عَليَّ وأنا لا أُجِيبُ، وغَبَرَتِ الأساةُ تَسقيها الأشْفِيَةَ وأنا سَدِكٌ بها[1] لا أزُولُ، فلمَّا أصابَها الحِمامُ طَلَبْتُ لي سواها صاحِبةً، ثُمَّ كذلك حتى رَزَقَ ٱللَّهُ الإنابَةَ وأثابَ الجَزِيلَ، فلا أفتأُ له مِنَ الحامِدِينَ:

حَمِدْتُ مَنْ حَطَّ أوزاري ومَزَّقَها عَنّي، فأضْبَحَ ذَنبي اليَوْمَ مَغْفُورَا

وكُنْتُ آلَفُ مِنْ أترابِ قُرطُبَةٍ خَوْداً، وبالصِّينِ أُخرى بِنْتَ يَغْبُورَا[2]

أزورُ تلكَ وهَذي، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ في ليلَةٍ، قبلَ أن أسْتَوْضِحَ النُّورَا

ولاَ أَمُرُّ بوَحْشِيٍّ ولا بَشَرٍ، إلاَّ وغادَرْتُهُ ولَهانَ مَذْعُورَا

أرُوعُ الزِّنجَ إلماماً بِنِسْوَتِها والرُّومَ والتُّرْكَ والسَّقلابَ والغُورَا

وأركَبُ الهَيْقَ[3] في الظَّلْماءِ مُعْتَسِفاً أوْ لا، فَذَبَّ رِيادٍ[4] باتَ مَقْرُورَا

وأحْضُرُ الشَّرْبَ أعروهُم بآبِدَةٍ[5] يُزجُونَ عُوداً ومِزماراً وطُنْبُورَا

فلا أفارِقُهُمْ حتَّى يَكُونَ لَهُمْ فِعْلٌ، يَظَلُّ بِهِ إبْليسُ مَسْرُورَا

وأصْرِفُ العَذْلَ خَتْلاً عَنْ أمانَتِهِ حَتَّى يَخُونَ، وحَتى يَشْهَدَ الزُّورَا

وَكَمْ صَرَعْتُ عَواناً[6] في لَظَى لَهَبٍ قامَتْ تُمارِسُ للأطْفالِ مَسجورَا[7]

وذادَني المَرْءُ نُوحٌ عن سَفِينَتِهِ، ضَرْباً، إلى أن غَدَا الظُّنْبُوبُ مكسُورَا

وَطِرْتُ في زَمَنِ الطُّوفانِ مُعْتَلِياً في الجَوِّ حَتَّى رَأيتُ الماءَ مَحْسُورَا

وَقَدْ عَرَضْتُ لمُوسَى في تَفَرُّدِهِ بالشَّاءِ يُنْتِجُ عُمْروساً وفُرْفُورَا[8]

لم أُخْلِهِ مِنْ حَدِيثٍ مّا، وَوَسْوَسَةٍ إذْ ذاكَ رَبُّكَ في تَكْلِيمِهِ الطُّورَا

أضْلَلْتُ رَأيَ أبي ساسانَ عَنْ رَشَدٍ وسِرْتُ مُسْتَخْفِياً في جَيْشِ سابُورَا

وَسادَ بَهْرَامُ جُورٍ وَهْوَ لِي تَبَعٌ أيّامَ يَبْني عَلَى عِلاّتِهِ جُورَا

فَتارَةً أنا صِلٌّ في نَكارَتِهِ، وَرُبَّما أبْصَرَتْني العَيْنُ عُصْفُورَا

---

(1) ملازم لها.
(2) لقب ملك الصين.
(3) الناقة.
(4) الثور الوحشي.
(5) أسبب الخلاف بين الشاربين.
(6) امرأة.
(7) موقد.
(8) ظهرت لموسى وهو يضاجع زوجته.

تَلُوحُ لِي الإنسُ عُوراً أو ذَوِي حَوَلٍ ... ولَمْ تَكُنْ قَطّ، لا حُولاً ولا عُورا

ثُمّ انْعَطَتْ وَصَارَتْ تَوْبَتِي مَثَلاً ... مِنْ بَعْدِ مَا عِشْتُ بِالعِصْيَانِ مَشْهُورا

حَتّى إذا انْقَضَتِ الدُّنيا ونُودِيَ: إسْـ ... ـرَافِيلُ وَيْحكَ، هلاّ تَنْفُخُ الصُّورا

أَماتَنِي اللّهُ شَيئاً، ثُمّ أيقَظَنِي ... لِمَبْعَثِي، فَرُزِقْتُ الخُلْدَ مَبْرُورا

فيقولُ: للّهِ درُّكَ يا أبا هَدْرَشَ! لقد كُنتَ تُمارِسُ أوابِدَ ومُندِياتٍ، فكيفَ ألْسِنَتُكم؟ أيكونُ فيكُم عَرَبٌ لا يَفْهَمُونَ عن الرومِ، وروم لا يَفْهَمُونَ عنِ العَرَبِ، كما نجِدُ في أجْيالِ الإنسِ؟ فيقولُ: هَيهاتَ أيّها المَرحومُ! إنّا أهلُ ذَكَاءٍ وفِطَنٍ، ولا بدّ لأحَدِنا أنْ يكونَ عارفاً بجميعِ الألْسُنِ الإنسيّةِ، ولَنا بعدَ ذلكَ لسانٌ لا يَعْرِفُهُ الأنيسُ. وأنا الذي أنْذَرتُ الجِنّ بالكتابِ المُنزَل: أدْلَجْتُ في رُفقَةٍ مِنَ الخابِلِ[1] نُرِيدُ اليمنَ، فَمَرَرْنَا بِيَثْرِبَ في زَمَانِ المَعْوِ، فـ ﴿سَمِعْنَا قُرآناً عَجباً يَهْدي إلى الرُّشْدِ فآمَنّا به ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبّنا أحداً﴾[2]. وعُدْتُ إلى قومي فَذَكَرْتُ لهم ذلك، فتَسَرّعتْ منهم طَوائِفُ إلى الإيمانِ، وحثّهُم على ما فَعلوه أنّهم رُجِموا عن استراقِ السّمعِ بكواكبَ مُحرِقاتٍ.

فيقولُ: يا أبا هَدْرَشَ، أخبِرْني، وأنتَ الخبيرُ، هل كانَ رَجْمُ النّجومِ في الجاهِليّةِ؟ فإنّ بعضَ النّاسِ يَقُولُ إنّه حَدَثَ في الإسلام. فيقول: هَيهاتَ! أمَا سَمِعْتَ قولَ الأَوْدِيّ:

كشِهابِ القَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ ... فارِسٌ، في كَفّهِ لِلحَرْبِ نارْ

وقَوْلَ ابْنِ حَجَرٍ:

فانْصَاعَ كالدُّرّيّ يَتْبَعُهُ ... نَقْعٌ يَثُورُ، تَخالُهُ طُنُبا

ولكنّ الرّجْمَ زادَ في أوانِ المَبْعَثِ، وإنّ التّخرّصَ لكثيرٌ في الإنسِ والجِنّ، وإنّ الصّدْقَ لمُعوِزٌ قليلٌ، وهَنيئاً في العاقبةِ للصّادقين.

وفي قِصّةِ الرّجْمِ أقولُ:

مَكّةُ أقْوَتْ[3] من بني الدَّرْدَبِيسْ[4] ... فَمَا لِجِنّيّ بِها مِنْ حَسِيسْ

---

(1) الجن.

(2) سورة الجن، الآية: 1 ـ 2.

(3) خلت.

(4) الجن.

وكُسِّرَتْ أصنامُها عَنوةً ... فكُلُّ جِبْتٍ[1] بِنَصيلٍ[2] رَديسْ[3]

وقامَ في الصَّفْوَةِ مِنْ هاشِمٍ ... أزْهَرُ لا يُغْفِلُ حَقَّ الجَليسْ

يَسْمَعُ ما أُنْزِلَ من رَبِّهِ الـ ... ـقدّوسِ وَحياً مثلَ قَرْعِ الطَّسيسْ

يَجْلِدُ في الخَمرِ، ويَشْتَدُّ في الـ ... ـأمرِ، ولا يُطلِقُ شُرْبَ الكَسيسْ[4]

ويَرْجُمُ الزّاني ذا العِرْسِ لا ... يَقْبَلُ فيهِ سُؤلَةً مِنْ رَئيسْ

وَكَمْ عَروسٍ باتَ حُرّاسُها ... كَجُرْهُمٍ في عِزِّها أوْ جَديسْ

زُفَّتْ إلى زَوْجٍ لَها سَيِّدٍ ... ما هُوَ بالنِّكْسِ ولا بالضَّبيسْ

غِرْتُ عَليْها، فَتَخَلَّجْتُها ... بِوَاشِكِ الصَّرْعَةِ قَبْلَ المَسيسْ

وأسْلُكُ الغادَةَ مَحْجُوبَةً ... في الخِدْرِ، أوْ بَيْنَ جَوارٍ تَميسْ

لا أنتَهي عن غَرَضي بالرُّقى، ... إذا انْتَهى الضَّيْغَمُ دونَ الفَريسْ

وَأُدْلِجُ الظَّلْماءَ في فِتْيَةٍ ... ملجنٌ فوقَ الماجِلِ العَرْبَسيسْ[5]

في طاسِمٍ تَعْزِفُ جِنّانُهُ، ... أقْفَرَ إلّا من عَفاريتَ لِيسْ[6]

بِيضٍ[7]، بَهاليلَ[8]، ثِقالٍ، يَعا ... ليلَ[9]، كِرام، يَنطقونَ الهَسيسْ

تَحْمِلُنا في الجُنْحِ خيلٌ لَها ... أجنحةٌ، ليستْ كَخَيْلِ الأنيسْ

وأيْنُقٌ تَسْبِقُ أبصارَكُمْ ... مَخْلوقَةٌ بَيْنَ نَعامٍ وَعِيسْ

تَقْطَعُ مِنْ عَلْوَةَ في لَيْلِها ... إلى قُرى شاسٍ بِسَيْرٍ هَميسْ

لا نُسْكَ في أيّامِنا عِندنا ... بل نُكِسَ الدِّينُ فما إنْ نَكيسْ

فالأحَدُ الأعْظَمُ، والسَّبْتُ كالـ ... ـإثْنَيْنِ، والجُمْعَةُ مِثْلُ الخَميسْ

لا مُجُسٌ نَحْنُ، ولا هُوَّدٌ ... ولا نَصارى يَبْتَغونَ الكَنيسْ

---

(1) صنم.
(2) فأس.
(3) حطام.
(4) الخمر.
(5) الأرض الصلبة الجافة.
(6) شجعان.
(7) كرام.
(8) كرام أيضاً.
(9) كبار الحجم.

تُمَزِّقُ التَّوراةَ مِنْ هَونِها، وَتَحْطِمُ الصُّلْبَانَ حَطْمَ اليَبِيسْ

تُحارِبُ اللّهَ جُنُوداً لإبـ ـليسَ أخِي الرأيِ الغَبِينِ النَّجِيسْ

تُسَلِّمُ الحُكْمَ إلَيْهِ إذا قاسَ، فَنَرْضَى بالضَّلالِ المَقِيسْ

تَزِينُ للشارِخِ والشَّيخِ أنْ يُفرِغَ كيساً في الخَنَا بعد كيسْ

وَتَفْتَري جِنَّ سُلَيمانَ كَيْ نُطلِقَ منها كُلَّ غاوٍ خَبِيسْ

صُيِّرَ في قارورَةٍ رُصِّصَتْ فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُ غَيرَ النَّسِيسْ

وتُخرِجُ الحَسْنَاءَ مَطرودَةً مِنْ بَيْتِها عن سُوءِ ظَنٍّ حَدِيسْ

تَقولُ: لا تَقْنَعْ بِتَطْلِيقَةٍ واقبَلْ نَصيحاً لم يكنْ بالدَّسِيسْ

حتّى إذا صارتْ إلى غَيرِهِ عادَ مِنَ الوَجْدِ بِجَدٍّ تَعِيسْ

تُذْكِرُهُ مِنها، وقد زُوِّجَتْ ثَغْراً كَدُرٍّ فِي مُدامٍ غَرِيسْ

وتَخْدَعُ القِسِّيسَ فِي فِصْحِهِ مِن بَعْدِ ما مُلِّئَ بالأنْقَلِيسْ[1]

أصْبَحَ مُشتاقاً إلى لَذَّةٍ مُعَلَّلاً بالصِّرْفِ أوْ بالخَفِيسْ[2]

أقسَمَ لا يَشرَبُ إلاّ دُوَيْـ ـنَ السُّكْرِ، والبَازِلُ تالي السَّدِيسْ[3]

قُلْنا لَه: ازْدَدْ قَدَحاً واحداً ما أنْتَ أنْ تَزْدادَهُ بالوَكِيسْ

يُحمِيكَ في هذا الشَّفِيفِ الذي يُطْفِيءُ بالقُرِّ التِهابَ الحَمِيسْ

فَعَبَّ فيها، فَوَهَى لُبُّهُ وَعُدَّ مِنْ آلِ اللَّعِينِ الرَّجِيسْ

حَتَّى يَفِيضَ الفَمُ مِنهُ على نُمْرُقَتَيهِ[4] بالشَّرابِ القَلِيسْ[5]

وتُسْخِطُ المَلْكَ على المُشْفِقِ الـ ـمُفْرِطِ فِي النُّصْحِ إذا المُلْكُ سِيسْ

وأُعْجِلُ السِّعلاةَ[6] عن قُوتِها في يَدِها كَشْحُ مَهاةٍ[7] نَهِيسْ[8]

لا أتَّقِي البَرَّ لأهْوالِهِ وأرْكَبُ البَحْرَ أوانَ القَرِيسْ

---

(1) سمكة كالحيّة EEL.

(2) الخمر الممزوجة قليلاً.

(3) السادس.

(4) الوسادة.

(5) القيء.

(6) أنثى الغول.

(7) البقرة الوحشية.

(8) نتف.

نادَمتُ قابيلَ وشِيثاً وها ... بيلَ على العاتِقَةِ الخَنْدَرِيس[1]

وَصاحِبيَ لَمْكَ لَدى المِزْهَرِ الـ ... مُعْمَلِ لم يَعْيَ بِزِيرٍ جَسِيس

وَرَهْطَ لُقمانَ وأيسارَهُ ... عاشَرتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبابِ اللَّبِيس

ثُمَّتَ آمنتُ، وَمَنْ يُرزَقِ الـ ... إيمانَ يَظْفَرْ بالخَطِيرِ النَّفِيس

جاهَدْتُ في بَدْرٍ وحامَيْتُ في ... أُحُدٍ وفي الخَنْدَقِ رُعتُ الرَّئِيس

وَراءَ جِبْريلَ وميكالَ نُخـ ... ـلي[2] الهامَ في الكَبَّةِ[3] خَلْيَ اللَّسِيس

حينَ جيوشُ النَّصرِ في الجَوِّ، والـ ... طاغوتُ كالزَّرْعِ تَناهى، فَدِيس

عَلَيْهِمُ في هَبَواتِ الوَغى ... عَمائِمٌ صُفْرٌ كَلَوْنِ الوَرِيس

صَهِيلُ حَيْزُومَ إلى الآنَ في ... سَمْعِيَ أكرِمْ بالحِصانِ الرَّغِيس[4]

لا يَتْبَعُ الصَّيْدَ ولا يألَفُ الـ ... قَيْدَ ولا يَشكو الوَجَى والدَّخِيس

فَلَمْ تَهَبْنِي حُرَّةٌ عانِسٌ، ... وَلاَ كَعابٌ ذاتُ حُسنٍ رَسِيس

وَأيقَنَتْ زَيْنَبُ مِنّي التُّقى، ... ولم تَخَفْ مِنْ سَطَواتي لَمِيس

وقُلتُ للجِنِّ: ألا يا اسْجُدوا ... لِلّهِ، وانقادوا انْقِيادَ الخَسِيس

فإنَّ دُنياكُم لَها مُدَّةٌ ... غادِرَةٌ بالسَّمْحِ أو بالشَّكِيس

وزُرْتُ صِفِّينَ على شَطْبَةٍ[5] ... جَرْداءَ، ما سائِسُها بالأرِيس

مُجَدِّلاً بالسَّيْفِ أبطالَها ... وقاذِفاً بالصَّخْرَةِ المَرْمَرِيس

وَسِرْتُ قُدّامَ عَلِيٍّ غَدا ... ةَ النَّهْرِ حَتّى فُلَّ غَرْبُ الخَمِيس

صادَفَ مِنّي واعِظٌ تَوْبَةً ... فَكانَتِ اللَّقْوَةُ عِنْدَ القَبِيس

فَيَعْجَبُ، لا زالَ في الغِبطَةِ والسُّرور، لِمَا سَمِعَه من ذلكَ الجِنِّيِّ، ويَكْرَهُ الإطالَةَ عِندَهُ فيُوَدِّعُهُ.

---

(1) الخمر.

(2) نقطع الرؤوس.

(3) الزحمة.

(4) الميمون.

(5) الفرس.

مع حيوانات الجنة

ويَمُرُّ فإذا هو بأسَدٍ يَفْتَرِسُ من صِيرانِ[1] الجَنّة وحَسيلها[2]، فلا تَكْفِيهِ هُنَيْدَةٌ، ولا هِنْدٌ[3]، فيقول في نَفسه: لقد كانَ الأَسَدُ يَفْتَرِسُ الشاةَ العَجْفاء، فيُقيمُ عليها الأيّامَ لا يَطْعَمُ سِواها شيئاً.

فيُلهِمُ اللّهُ الأسَدَ أن يَتكلَّمَ، وقد عَرَفَ ما في نَفْسِه، فيقولُ: يا عبدَ الله، أَلَيْسَ أحَدُكم في الجَنّةِ تُقَدَّمُ له الصَّحْفَةُ وفيها البَهَطُ[4] والطِّرْيَمُ مع النَّهيدَةِ[5]، فيأكلُ منها مثلَ عُمْرِ السَّمَواتِ والأرضِ، يَلتذُّ بما أصابَ فلا هُو مُكْتَفٍ، ولا هِيَ الفانيةُ؟ وكذلك أنا أفترسُ ما شاءَ الله، فلا تأذى الفَريسةُ بظُفرٍ ولا نابٍ، ولكنْ تَجِدُ من اللذَّةِ كما أجِدُ بلُطْفِ رَبِّها العزيز. أتدري مَن أنا أيُّها البَزيعُ[6]؟ أنا أسدُ القاصِرَة التي كانت في طريقِ مصْرَ، فلمّا سافرَ عُتْبةُ بنُ أبي لَهبٍ يريد تلك الجهةَ، وقال النبيّ، ﷺ: «اللّهُمّ سَلِّطْ عليه كلباً من كلابِكَ»، أُلْهِمْتُ أنْ أَتَجَوَّعَ له أيّاماً، وجِئْتُ وهو نائمٌ بين الرُّفقةِ فتَخَلَّلْتُ الجماعةَ إليه، وأُدْخِلْتُ الجَنّةَ بما فَعَلْتُ.

ويَمُرُّ بِذِئْبٍ يَقْتَنِصُ ظِباءً فيُفْني السُّرْبَةَ[7] بعد السُّربة، وكلّما فَرَغ من ظَبْيٍ أو ظَبْيَةٍ، عادت بالقُدْرةِ إلى الحالِ المعهودة، فيَعْلَمُ أنَّ خَطْبَهُ كخَطْبِ الأسدِ، فيقولُ: ما خَبَرُكَ يا عبدَ الله؟ فيقول: أنا الذئبُ الذي كَلَّمَ الأَسْلَميَّ على عَهْدِ النبيِّ ﷺ، كُنْ أُقِيمُ عشرَ لَيالٍ أو أكثر، لا أقدرُ على العِكْرِشَةِ ولا القُوّاع[8]، وكنتُ إذا هَمَمْتُ بعَجِيِّ المعيز، آسَدَ الراعي عليَّ الكِلابَ، فرجعتُ إلى الصاحِبةِ مُخرَّقَ الإهاب. فتقولُ: لقد خَطِئْتَ في أَفكارِكَ، ما خيرَ لك في ابْتكارِكَ؛ ورُبَّما رُميتُ بالسِّرْوَةِ[9] فتَشِبُّتْ في الأقراب[10]،

---

(1) قطعان.

(2) البقر.

(3) مئة أو مئتان.

(4) الرز مع اللبن والسمن.

(5) العسل مع الزبدة.

(6) السيد الشريف.

(7) القطيع.

(8) الأرنب.

(9) السهم.

(10) الخاصرة.

فأبِتُ لَيلَتي لِما بي، حتى تَنتزعَها السَّلقَةُ[1] وأنا بآخرِ النَّسيس، فلَحِقَتني بَرَكةُ مُحمّدٍ ﷺ.

مع الحطيئة:

فيذهبُ، عَرّفَهُ ٱللّهُ الغِبْطةَ في كلّ سبيل، فإذا هو بِبَيْتٍ في أقصَى الجَنّة، كأنّهُ حِفْشُ[2] أمَةٍ راعيةٍ، وفيه رجُلٌ ليسَ عليه نورُ سُكّانِ الجَنّةِ، وعنده شجرةٌ قَميئَةٌ[3] ثمرُها ليسَ بزاكٍ. فيقولُ: يا عبدَ الله، لقد رَضيتَ بحَقيرٍ شَقِنٍ. فيقول: والله ما وَصَلْتُ إليه إلاّ بعد هِياطٍ ومِياطٍ، وعرقٍ من شَقاءٍ، وشَفاعةٍ من قريشٍ وِدِدْتُ أنّها لم تكنْ. فيقولُ: مَنْ أنتَ؟ فيقولُ: أنا الحُطَيئَةُ العَبْسِيّ. فيقولُ: بِمَ وصلتَ إلى الشّفاعةِ؟ فيقولُ: بالصّدقِ. فيقولُ: في أيّ شيءٍ؟ فيقول: في قولي:

أبَتْ شَفَتَايَ اليومَ إلاّ تَكَلُّماً بهُجرٍ، فما أدري لِمَنْ أنا قائِلُهْ
أرى ليَ وَجْهاً شَوّهَ ٱللّهُ خَلْقَهُ، فَقُبّحَ من وَجْهٍ، وقُبّحَ حامِلُهْ!

فيقولُ: ما بالُ قولك:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيرَ لا يَعدَمْ جَوازِيَهُ لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ ٱللّهِ والنّاسِ

لم يُغْفَرْ لك به؟ فيقول: سَبقني إلى معْناهُ الصّالحون، ونَظَمتُهُ ولم أعمَلْ به، فحُرِمتُ الأجرَ عليه. فيقولُ: ما شأنُ الزِّبرِقانِ بن بدْرٍ؟ فيقول الحُطَيئَةُ: هو رئيسٌ في الدّنيا والآخرة، انتفَعَ بهجائي ولم يَنتفِعْ غيره بمَديحي.

---

(1) الذئبة.

(2) كوخ.

(3) حقيرة.

V

مع أهل النار

فيُخلّفُهُ ويَمضي، فإذا هو بامرأةٍ في أقصى الجنّة، قريبةٍ من المُطّلَع إلى النار. فيقولُ: مَنْ أنت؟ فتقولُ: أنا الخنساءُ السُّلَميّة، أحْبَبْتُ أن أنْظُرَ إلى صخْرٍ فاطّلَعْتُ فرأيْتُهُ كالجَبَلِ الشامخِ والنارُ تضطرم في رأسِهِ، فقال لي: لقد صَحَّ مَزْعَمُكِ فيّ! يَعني قولي:

وإنّ صَخْـراً لَتَـأْتَـمُّ الـهُـداةُ بِـهِ كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فِـي رَأْسِـهِ نَـارُ

فيَطّلِعُ فيرى إبليسَ، لعنهُ الله، وهو يَضْطَرِبُ في الأغلال والسَّلاسل، ومَقامعُ الحديد تأخُذُهُ من أيدي الزَّبانيَة. فيقول: الحمدُ لله الذي أمكَنَ منكَ يا عَدوّ الله وعدوَّ أوليائِهِ! لقد أهْلَكْتَ من بَني آدمَ طوائفَ لا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إلاّ ٱللّهُ. فيقولُ: مَن الرجلُ؟ فيقولُ: أنا فُلانُ ابنُ فُلانٍ من أهْلِ حلَبَ، كانتْ صِناعَتي الأدبَ، أتقرّبُ به إلى الملوكِ. فيقولُ: بِئْسَ الصّناعةُ! إنّها تَهَبُ غُفّةً من العَيْش، لا يَتّسِعُ بها العِيالُ، وإنّها لَمَزَلّةٌ بالقَدَمِ وكم أهْلَكَتْ مِثْلَكَ! فهنيئاً لكَ إذْ نَجَوْتَ، فأولى لكَ ثمّ أولى! وإنّ لي إليكَ لحاجةً، فإنْ قَضَيْتَها شكَرَتْكَ يَدُ المَنُون. فيقول: إنّي لا أقدرُ لكَ على نَفْعٍ، فإنّ الآيةَ سبقتْ في أهل النّار، أعني قولَهُ تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ. قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

فيقولُ: إنّي لا أسألُكَ في شيءٍ من ذلك، ولكن أسألُكَ عن خبرٍ تخبِرُنيه: إنّ الخمرَ حُرِّمَتْ عليكم في الدّنيا وأُحِلّتْ لكم في الآخرة، فهَلْ يَفْعَل أهلُ الجنّةِ بالوِلْدانِ المُخَلّدينَ فِعلَ أهلِ القُرَيَاتِ[2]؟ فيقولُ: عليك البَهْلَةُ! أما شَغَلَكَ ما أنتَ فيه؟ أما

---

(1) سورة الأعراف، الآية 50.

(2) أي اللواط.

سَمِعتَ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]؟

فيقولُ: وإنّ في الجنّةِ لأشربةً كثيرةً غيرَ الخمرِ، فما فَعلَ بشّارُ بنُ بُرْدٍ؟ فإنّ له عِنْدي يداً ليست لغيرِهِ من وَلَدِ آدمَ: كان يُفضِّلُني دونَ الشعراءِ، وهو القائلُ:

إبليسُ أفضلُ من أبيكُمْ آدمٍ ... فتَبَيّنوا يا معشرَ الأشرارِ
النّارُ عُنصُرُهُ، وآدمُ طينةٌ ... والطّينُ لا يَسْمُو سُمُوَّ النّارِ

لقد قال الحقَّ، ولم يَزَلْ قائِلُه من المَمْقُوتينَ.

مع بشار بن برد

فلا يسكُتُ من كلامه، إلاّ ورجُلٌ في أصنافِ العذابِ يُغمِّضُ عَيْنَيْهِ حتى لا يَنظُرَ إلى ما نزلَ به من النِّقَمِ، فيَفتحُها الزَّبانيةُ بكلاليبَ من نارٍ، وإذا هو بَشّارُ بنُ بُرْدٍ قد أُعطِيَ عَيْنَيْنِ بعد الكَمَهِ، ليَنظرَ إلى ما نَزَلَ به من النَّكالِ.

فيقولُ له، أعلى اللّهُ درجَتَه: يا أبا مُعاذٍ، لقد أحْسَنْتَ في مقالِكَ، وأسأتَ في مُعتقَدِكَ، ولقد كُنتُ في الدّارِ العاجلة أذكُرُ بعضَ قولِكَ فأترحَّمُ عليكَ، ظنّاً أنّ التّوبةَ ستلحَقُكَ، مثلَ قولِكَ:

ارجِعْ إلى سَكَنٍ تَعيشُ بِهِ ... ذَهَبَ الزّمانُ وأنتَ مُنفَرِدُ
تَرجو غَداً، وغَدٌ كحامِلَةٍ ... في الحَيِّ لا يدرونَ ما تَلِدُ!

وقولِكَ:

واهاً لأسْماءَ ابنةِ الأشَدِّ ... قامتْ تراءى إذْ رأتني وَحْدي
كالشّمسِ بينَ الزِّبرِجِ المُنقَدِّ ... ضَنَّتْ بِخَدٍّ، وَجَلَتْ عن خَدِّ
ثُمّ انْثَنَتْ كالنَّفَسِ المُرْتَدِّ، ... وصاحِبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ
أرْقُبُ مِنهُ مثلَ حُمّى الوِرْدِ، ... حَمَلْتُهُ في رُقعةٍ مِن جِلدي
الحُرُّ يُلحَى، والعَصا للعَبْدِ، ... وليسَ للمُلحِفِ مثلُ الرَّدِّ

الآنَ وقعَ مِنكَ اليأسُ! وقُلتَ في هذه القصيدة: السُّبْدِ، في بعضِ قوافيها، فإنْ كُنتَ أردتَ جمعَ سُبَدٍ، وهو طائرٌ، فإنّ فُعَلاً لا يُجمَعُ على ذلك؛ وإنْ كنتَ سكّنتَ

---

(1) سورة البقرة، الآية 25.

الباءَ فقد أسأتَ، لأنّ تَسكين الفتحة غير مَعروفٍ، ولا حُجّةَ لك في قولِ الأخطَلِ:

وما كُلُّ مَغبونٍ إذا سَلَفَ صَفقَةً ... بِراجعِ ما قَد فاتَهُ بِرَدَادِ

ولا في قول الآخر:

وقالوا: تُرابيٌّ، فقلتُ: صَدَقْتُمْ ... أبي من تُرابٍ خَلَقَهُ اللّهُ آدَمَا

لأنّ هذه شواذُّ، فأمّا قولُ جَميلٍ:

وصاحَ ببَينٍ من بُثَينَةَ، والنّوى، ... جميعٌ بذاتِ الرَّضمِ صَرْدٌ مُحَجَّلُ

فإنّ من أنشدَهُ بضمّ الصّاد مُخطئ، لأنه يذهبُ إلى أنّه أراد الصُّرَدَ فسكّن الراء، وإنّما هو صَرْدٌ أي خالصٌ، من قولِهِمْ: أُحبّكَ حُبّاً صَرْداً، أي خالصاً، يعني غُراباً أسوَدَ ليسَ فيه بَياضٌ، وقولُهُ: مُحَجّلٌ أي مُقَيّدٌ، لأنّ حَلقَةَ القَيدِ تُسَمّى حِجْلاً؛ قال عَديّ بن زيدٍ:

أعاذِلَ قد لاقَيتُ ما يَزَعُ[1] الفَتَى ... وطابَقْتُ في الحِجلَينِ مَشْيَ المُقَيَّدِ

والغُرابُ يُوصَفُ بالتَّقييدِ لِقِصَرِ نَساهُ[2]، قال الشاعر:

ومُقَيَّدٍ بَينَ الدّيارِ كأنّهُ ... حَبَشِيُّ داجِنَةٍ يَجُرُّ ويَعتَلي

فيقولُ بَشّارٌ: يا هذا! دَعني من أباطيلِكَ فإنّي لَمشغولٌ عنك.

مع امرىء القيس بن حجر:

ويَسألُ عن امرىء القيس بن حُجْرٍ، فيقال: ها هو ذا بحيثُ يسمَعُكَ. فيقولُ: يا أبا هندٍ إنّ رُواةَ البَغداديين يُنشدونَ في «قِفا نَبكِ»، هذه الأبياتَ بزيادةِ الواو في أوّلها، أعني قولَك:

وكأنّ ذُرَى رَأسِ المُجَيمِرِ غُدْوَةً

وكذلك:

وكأنّ مَكاكيَّ الجِواءِ

وكأنّ السِّباعَ فيهِ غَرقَى

---

(1) منع.

(2) عرق النسا.

فيَقولُ: أبعَدَ ٱللَّهُ أولئِكَ! لقد أساؤوا الروايةَ، وإذا فعلوا ذلك فأيّ فَرْقٍ يقعُ بينَ النَّظمِ والنَّثرِ؟ وإنَّما ذلك شيءٌ فعلَهُ مَن لا غريزةَ له في معرفةِ وزنِ القَريض، فظنّه المتأخّرونَ أصلاً في المنظوم، وهَيهاتَ هَيهاتَ!

فيقولُ: أخبرني عن قولِكَ:

كَبِكرِ المُقاناةِ البَياضِ بِصُفرَةٍ

ماذا أردتَ بالبِكرِ؟ فقد اختَلَفَ المُتأوّلونَ في ذلك فقالوا: البيضَةُ، وقالوا: الدُّرَّةُ، وقالوا: الرَّوْضَةُ، وقالوا: الزَّهرةُ، وقالوا: البَرْديّةُ.

وكيف تُنشدُ: البَياضِ، أم البياضَ، أم البياضُ؟

فيقولُ: كلُّ ذلك حَسَنٌ، وأختارُ البَياضِ، بالكَسر، فيقولُ: فرَّغَ ٱللَّهُ ذِهنَهُ للآدابِ: لو شرحتُ لك ما قالَ النَّحويّونَ في ذلك لعَجبتَ. ويَعضُ المعلِّمينَ يُنشدُ قولَك:

مِنَ السَّيْلِ والغُثّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

فيُشدِّدُ الثاءَ. فيقولُ: إنَّ هذا لجَهولٌ، وهو نَقيضُ الذينَ زادوا الواوَ في أوائلِ الأبياتِ: أولئكَ أرادوا النَّسَقَ، فأفسدوا الوزنَ، وهذا البائسُ أراد أن يُصَحِّحَ الزِّنَةَ فأفسدَ اللَّفظَ. وكذلك قولي:

فَجِئتُ وقد نَضَّتْ لِنَومٍ ثِيابَها

منهم من يُشدِّدُ الضادَ، ومنهم من يُنشِدُ بالتَّخفيف، والوجهان من قولِك: نَضَوتُ الثّوبَ، إلاَّ أنَّك إذا شدَّدتَ الضَّادَ، أشبه الفعلَ من النَّضيضِ، يُقالُ: هذه نَضيضَةٌ من المَطَرِ أي قَليلٌ، والتَّخفيفُ أحبُّ إليَّ، وإنّما حَمَلَهم على التَّشديد كراهةُ الزِّحافِ، وليس عندنا بمَكروهٍ.

فيقولُ، لا بَرِحَ مِنطيقاً بالحِكَم: فأخبِرْني عن كلمتك الصادِيّةِ والضاديّةِ والنّونيّةِ التي أوّلُها:

لِمَنْ طَلَلٌ أبصَرتُهُ فشجاني | كَخَطِّ زَبورٍ في عَسيبِ يَمانِ؟

لقد جئتَ فيها بأشياءَ يُنكِرُها السَّمعُ، كقولِكَ:

فإنْ أُمسِ مَكروباً فيا رُبَّ غارةٍ | شَهِدتُ على أقَبَّ رِخوِ اللَّبانِ

وكذلك قولُك في الكلمةِ الصادِيّةِ:

عـلـى نِـقْـنِـقٍ[1] هَـيْـقٍ[2] لـهُ ولـعِـرْسِـهِ بِـمُـنْـقَـطَـعِ الـوَعْـسـاءِ[3] بَـيْـضٌ رَصِـيـصُ

وقولُكَ:

فـأسْـقِـي بِـهِ أُخـتـي ضَـعِـيـفَـةَ، إذْ نـاتْ، وإذْ بَـعُـدَ الـمَـزْدارُ غَـيـرَ الـقَـرِيـضِ

في أشباهٍ لذلك، هل كانت غرائزُكم لا تُحِسُّ بهذه الزّيادَةِ؟ أم كنتم مَطبوعينَ على إتيانِ مَغَامِضِ الكَلامِ وأنتم عالمونَ بما يَقَعُ فيه؟ كما أنّه لا رَيْبَ أنّ زُهيراً كانَ يعرفُ مكانَ الزّحافِ في قولِهِ:

يَـطْـلُـبُ شـأوَ امـرأيـنِ قَـدَّمـا حَـسَـبـاً نـالا الـمُـلـوكَ، وبَـذّا هـذه الـسُّـوَقـا

فإنّ الغرائزَ تُحِسّ بهذه المواضع، فتَبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقِين.

فيقولُ امرؤ القيس: أدرَكْنا الأوّلينَ من العرب لا يحفِلونَ بمَجيءِ ذلك، ولا أدري ما شَجَنَ عنهُ، فأمّا أنا وطَبَقَتي فكنّا نَمُرُّ في البيتِ حتى نأتيَ إلى آخره، فإذا فنيَ أو قاربَ تَبَيَّنَ أمرُهُ للسّامِعِ.

فيقولُ، ثَبّتَ اللهُ تعالى الإحسانَ عليه: أخبرني عن قولِك:

ألا رُبَّ يَـوْمٍ لـكَ مـنـهـنّ صـالـحٍ، ولا سـيّـمـا يَـوْمٌ بـدارَةِ جُـلـجُـلِ

أتُنشِدُهُ: «لكَ منهنّ صالحِ» فتزاحِفُ بالكَفِّ؟ أم تُنشدُهُ على الروايةِ الأخرى؟ فأمّا يومٌ، فيجوزُ فيه النّصبُ والخَفضُ والرّفع؛ فأمّا النّصبُ فعلى ما يجبُ للمفعولِ من الظّروفِ، والعاملُ في الظّرفِ ها هنا فعلٌ مُضمَرٌ، وأمّا الرفعُ فعلى أن تُجعَلَ ما كافّةً، وما الكافّةُ عند بعض البَصْريّين نكِرَةٌ، وإذا كان الأمرُ كذلك فـ (هُوَ) بَعدَها مُضمرةٌ، وإذا خُفِضَ يومٍ، فـ (ما) منَ الزّياداتِ. ويُشَدّدُ سِيّ ويُخَفّفُ، فأمّا التّشديدُ فهو اللّغةُ العاليَةُ، وبَعضُ النّاسِ يُخَفّف، ويقالُ: إنّ الفَرَزْدَقَ مرّ وهو سكرانُ على كلابٍ مُجتمعةٍ، فسلّم عليها فلمّا لم يَسمَع الجواب أنشأ يقول:

فَـمـا رَدَّ الـسّـلامَ شُـيـوخُ قَـوْمٍ مَـرَرْتُ بِـهِـمْ عـلـى سِـكَـكِ الـبـريـدِ

ولا سِـيَـمـا الـذي كـانَـتْ عَـلَـيْـهِ قَـطـيـفَـةُ أُرجـوانٍ فـي الـقُـعـودِ

---

(1) ذكر النعام.

(2) طويل.

(1) الرمل اللين تغرق فيه الأرجل.

فيقول امرؤ القيس: أمّا أنا فما قلتُ في الجاهليّة إلاّ بزحافٍ: «لَكَ منهنّ صالح». وأمّا المُعَلِّمونَ في الإسلام فغَيّروه على حَسَبِ ما يريدون، ولا بأسَ بالوجهِ الّذي اختارُوه. والوجوهُ في (يَوْم) مُتقاربةٌ؛ (وبِيِ) تَشديدُها أحسنُ وأعرَفُ. فيقولُ: أجلْ، إذا خُفِّفَتْ صارت على حرفَين أحدهما حرْفُ علّةٍ.

ويقولُ: أخْبِرْني عن التّسميطِ المنسوبِ إليك، أصَحيحٌ هو عنكَ؟ ويُنشِدُهُ الذي يَرْوِيهِ بعضُ النّاسِ:

يـا صَـحْـبَـنـا عَـرِّجـوا   تَـقِـفْ بِـكُـمْ أُسُـجُ[1]
مَـهْـرِيَّـةٌ دُلُـجُ،   فـي سَـيْـرِهـا مُـعُـجُ
طَـالَـتْ بِـهـا الـرِّحَـلُ

فَـعَـرَّجـوا كُـلُّـهُـمْ   والـهَـمُّ يَـشْـغَـلُـهُـمْ
والـعِـيـسُ تَـحْـمِـلُـهُـمْ   لَـيْـسَـتْ تُـعَـلِّـلُـهُـمْ
وَعَـاجَـتِ الـرُّمُـلُ

يـا قـومُ إنّ الـهَـوَى   إذا أصـابَ الـفَـتَـى
فـي الـقـلـبِ ثـمّ ارتَـقَـى   فَـهَـدَّ بَـعْـضَ الـقُـوَى
فَـقَـدْ هَـوَى الـرَّجُـلُ

فيقولُ: لا واللهِ ما سمعتُ هذا قطّ، وإنّه لقَرِيٌّ لم أسلُكْهُ، وإنّ الكَذِبَ لكثير، وأحسَبُ هذا لبعضِ شعراء الإسلام، ولقد ظلمني وأساء إليّ! أبَعْدَ كَلِمتي التي أوّلُها:

ألا انعمْ صَباحاً أيها الطّلَلُ البالي،   وهل يَنعَمن من كان في العُصُرِ الخالي؟

وقَوْلي:

خَـلِـيـلَـيَّ مُرّا بـي عـلـى أمِّ جُـنـدبِ   لأقـضِـيَ لُـبـانـاتِ الـفـؤادِ الـمُـعَـذَّبِ

يُقالُ لي مثلُ ذلك؟ والرَّجَزُ من أضعف الشِّعرِ، وهذا الوزنُ من أضعفَ الرَّجَزِ.

فيَعجَبُ، ملأ اللّهُ فؤادَهُ بالسّرورِ، لما سمعَه من امرىء القيس ويقول: كيفَ يُنشَدُ:

جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لها: قِرِي   إنّـي امـرؤٌ صَـرْعـي عـلـيـكِ حَـرامُ

أتقولُ: حرامُ، فتُقوي؟ أم تقولُ: حرامِ، فتُخرِجُه مخرجَ حَذَامِ وقَطامِ؟ وقد كان

(1) النوق جمع ناقة.

WWW.lilas.com/vb3 RAYAHEEN

بعضُ علماء الدّولةِ الثانيةِ يجعلُكَ لا يجوزُ الإقواءُ عليك. فيقولُ امرؤ القيسِ: لا نكِرَةَ عندنا في الإقواء، أما سمعتَ البيتَ في هذه القصيدة؟:

فـكـأنّ بـدراً واصِـلٌ بـكُـتـيـفَـةٍ، وكـأنّـمـا مِـنْ عـاقِـلٍ إرْمـامُ

فيقول: لقد صَدقتَ يا أبا هِنْدٍ، لأنّ (إرماماً) ها هُنا، ليس واقعاً موقعَ الصِّفَةِ فَيُحمَلُ على المُجاورةِ، لأنّه محمولٌ على (كأنّما)، وإضافَتُهُ إلى ياء النَّفْسِ تُضعِفُ الغرضَ.

مع عنترة بن شداد:

وينظُرُ فإذا عَنترةُ العَبسِيّ مُتَلَدِّدٌ في السّعيرِ، فيقولُ: ما لك يا أخا عَبسٍ؟ كأنك لم تَنطِقْ بقَوْلِكَ:

ولـقـد شَـرِبْـتُ مِـنَ الـمُـدامَـةِ بـعـدَمـا رَكَـدَ الـهـواجِـرُ، بـالـمَـشـوفِ الـمُـعـلَـمِ

بـزُجـاجَـةٍ صَـفْـراءَ ذاتِ أسِـرَّةٍ[1] قُـرِنَـتْ بـأزهَـرَ فـي الـشِّـمـالِ مُـفَـدَّمِ

وإنّي إذا ذكرتُ قولكَ:

هَـلْ غـادَرَ الـشُّـعـراءُ مِـنْ مُـتَـرَدَّمِ

لأقولُ: إنّما قيلَ ذلك وديوانُ الشّعر قليل محفوظٌ، فأمّا الآنَ فقد كثُرَتْ على الصّائِدِ الضِّباب[2]، وعرَفتْ مكانَ الجهلِ الرِّباب[3]. ولو سمعتَ ما قيلَ بعد مبعَثِ النبيّ ﷺ، لَعَتَبْتَ نفسَكَ على ما قُلتَ، وعلمتَ أنّ الأمرَ كما قال حَبيبُ بنُ أوسٍ:

فَلَوْ كان يَفنى الشّعرُ أفناهُ ما قَرَتْ[4] حياضُكَ منهُ في العُصورِ الذّواهِبِ

ولـكـنّـه صـوبُ الـعُـقـولِ إذا انـجَـلَـتْ سَـحـائِـبُ مِـنْـهُ، أُعْـقِـبَـتْ بِـسَـحـائِـبِ

فيقولُ: وما حبيبُكم هذا؟ فيقولُ: شاعرٌ ظهرَ في الإسلام. ويُنشِدهُ شيئاً من نظمه:

فيقولُ: أمّا الأصلُ فعربيٌّ، وأمّا الفرْعُ فنطَقَ بِهِ غبيٌّ، وليس هذا المذهَبُ على ما تَعرِفُ قبائلُ العربِ. فيقولُ، وهو ضاحِكٌ مُستَبْشِرٌ: إنّما يُنكِرُ عليه المُستعارُ، وقد

---

(1) خطوط.

(2) نوع من الحيوان يشبه الحرذون.

(3) الأصحاب.

(4) جمعت.

جاءت العاريةُ في أشعارِ كثيرٍ من المُتقدِّمين، إلا أنها لا تَجتمعُ كاجتِماعِها فيما نَظَمَهُ حبيبُ بن أوسٍ.

فما أرَدْتَ بالمشُوفِ المُعْلَمِ؟ الدِّينارَ أم الرِّداء؟ فيقول: أيَّ الوجْهَيْنِ أرَدتَ، فهو حَسَنٌ ولا يَنْتَقِضُ.

فيقولُ، جَعَلَ اللهُ سَمْعَهُ مُسْتَودعاً كلّ الصالحات: لقد شقَّ عليَّ دُخولُ مِثْلِكَ إلى الجحيم، وكأنَّ أُذني مُصْغِيَةٌ إلى قَينات الفُسْطاطِ وهي تُغَرِّدُ بقولِك:

أَمِنْ سُمَيَّةَ دَمْعُ العَيْنِ تَذْرِيفُ؟ ... لَوْ أنَّ ذا مِنْكَ قَبلَ اليومِ مَعْرُوفُ

تَجلَّلَتْني إذْ أَهْوَى العَصَا قِبَلي، ... كأنَّها رشأٌ في البَيْتِ مَطْرُوفُ

العَبدُ عَبْدُكُمُ، والمالُ مالُكُمُ ... فهَلْ عذابُكِ عَنِّي اليَوْمَ مَصرُوفُ

وإنّي لأَتَمَثَّلُ بقولِكَ:

ولَقَدْ نزَلْتِ، فلا تَظُنّي غيْرَهُ، ... مِنّي بِمَنْزِلَةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ

ولقد وُفِّقتَ في قَوْلِكَ: المُحَبُّ، لأنَكَ جِئتَ باللَّفظِ على ما يَجِبُ في أَحْبَبْتُ، وعامّةُ الشُّعَراءِ يقولونَ: أَحْبَبْتُ، فإذا صارُوا إلى المفعول قالوا: مَحْبُوبٌ. قال زُهَيْرُ بنُ مَسعودٍ الضَّبّيُّ:

واضِحَةُ الغُرَّةِ مَحْبوبَةٌ ... والفَرَسُ الصَّالِحُ مَحبوبُ

وقال بعضُ العلماء: لم يُسمَعْ بِمُحَبٍّ إلاّ في بيت عَنتَرَة.

مع علقمة بن عبيدة

ويَنظُرُ فإذا عَلقَمَةُ بنُ عُبَيدَة فيقولُ: أعزِزْ عليَّ بمكانِكَ! فبالذي يَقدِرُ على تخليصِكَ، ما أردتَ بقولِكَ؟

لا تَعدِلي بَيْني وبَينَ مُغَمَّرٍ ... سَقَتْكِ رَوايا المُزْنِ حينَ تَصُوبُ

وما القَلْبُ، أم ما ذِكْرُها رَبَعِيَّةً ... يُخَطُّ لَها مِنْ ثَرْمَداءَ قَليبُ

أعَنَيْتَ بالقَليبِ هذا الذي يُورَدُ، أم القَبْرَ؟ ولكلّ وجهٌ حَسَنٌ.

فيقولُ عَلقَمَةُ: إنكَ لتَستَضحِكُ عابِساً، وتريدُ أن تجنيَ الثَّمرَ يابساً، فعَلَيكَ شُغلَكَ أيها السَّليم!

فيقولُ: لو شَفَعَتْ لأحَدٍ أبياتٌ صادقةٌ ليسَ فيها ذِكْرُ ٱللَّهِ، سبحانه، لَشَفَعَتْ لكَ أبياتُكَ في وَصفِ النِّساء، أعني قولَكَ:

فإنْ تَسألوني بالنِّساءِ فإنَّني ... بَصِيرٌ بأدواءِ النِّساءِ طَبيبُ
إذا شابَ رأسُ المرءِ، أو قلَّ مالُهُ، ... فليسَ لهُ في وُدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَراءَ المالِ حيثُ علِمنَه، ... وشَرْخُ الشَّبابِ عندهنَّ عَجيبُ

ولو صادَفتْ منكَ راحةً لَسألتُكَ عن قولِكَ:

وفي كلِّ حيٍّ قد خَبَطْ بِنِعْمَةٍ ... فَحُقَّ لشاسٍ مِنْ نَداكَ ذَنُوبُ

أهكذا نطقتَ بها طاءً مشدّدةً، أم قالها كذلك عربيٌّ سواك؟ فقد يجوز أن يقول الشاعر الكلمة، فيغيرها عن تلك الحال الرواةُ.

مع عمرو بن كلثوم التغلبي

فليتَ شعري ما فعل عمرُو بن كلثوم؟ فيُقال: ها هوَذا من تحتِكَ، إن شئتَ أن تُحاوِرَهُ فحاوِرْهُ.

فيقول: كيف أنت أيها المُصْطَبِحُ بصَحنِ الغانية، والمُغتَبِقُ من الدّنيا الفانية؟ لوَدِدْتُ أنّك لم تُسانِدْ في قولك:

كأنَّ مُتُونَهُنَّ مُتُونُ غُدْرٍ ... تُصَفِّقُها الرِّياحُ إذا جَرَيْنا

فيقولُ عَمْرٌو: إنّكَ لقَريرُ العينِ لا تَشعُرُ بما نحنُ فيه، فاشْغَلْ نَفسكَ بتَمجِيدِ ٱللَّهِ واترُكْ ما ذهبَ فإنّه لا يَعود، وأمّا ذِكرُكَ سِنادي، فإنّ الإخوةَ ليكونونَ ثلاثةً أو أربعةً، ويكونُ فيهمُ الأعرَجُ أو الأبخَقُ[1] فلا يُعابُونَ بذلك، فكيفَ إذا بلغوا المائةَ في العددِ، ورُهاقَها في المُدَدِ؟ فيقول: أعزِزْ عليّ بأنّكَ قُصِرْتَ على شُرْب حَميم، وأُخذتَ بِعَمَلِكَ الذّميم، منْ بعدِ ما كانت تُسبأ[2] لك القهوةُ من خُصّ أو غير خُصّ، تقابِلُك بِلَوْنِ الحُصّ[3].

---

(1) الأعور.

(2) تجلب.

(3) الزعفران.

مع الحارث اليشكري

وينظرُ فإذا الحارثُ اليَشكُريّ فيقولُ: لقد أتعبَتَ الرّواةَ في تَفسيرِ قولِك:

زَعَمُوا أنّ كلّ مَنْ ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مُوالٍ لَنَا، وأنّا الوَلاءُ

وما أحسبُكَ أردتَ إلاّ العَيْرَ الحِمَارَ.

ولقد أحسَنتَ في قولك:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغبارِها إنّكَ لا تَدْري مَنِ النّاتِجُ

وقد كانوا في الجاهليّة يَعكِسون ناقةَ الميتِ على قبره، ويزعمونَ أنّهُ إذا نَهَضَ لحَشرِهِ وجَدَها قد بُعثَتْ له فيركبُها؛ فلَيتَهُ لا يَهِصُ[1] بثقَلِهِ مَنكِبَها، وهَيهاتَ! بل حُشروا عُراةً حُفاةً بُهماً، وتلك البَليّةَ[2] ذُكِرَتْ في قولك:

أتَلَهّى بها الهَواجِرَ إذْ كُـ ـلُّ ابنِ هَمٍّ بَلِيّةٌ عَمْياءُ

مع طرفة بن العبد:

ويَعمِدُ لسؤالِ طَرَفَةَ بنِ العَبْدِ فيقول: يا ابنَ أخي يا طَرَفَةُ خَفّفَ اللّهُ عنك، أتذكُرُ قولَك:

كَريمٌ يُرَوّي نَفسَه في حَياتِهِ سَتَعلَمُ إنْ مُتْنا غَداً أيُّنا الصَّدي

وقولَك:

أرَى قَبرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بِمالِهِ كَقَبرِ غَوِيّ في البَطالةِ مُفسِدِ

وقولَك:

متى تأتِني، أُصْبِحْكَ كأساً رَوِيّةً وإن كنتَ عنها غانياً، فاغنَ وازْدَدِ

فكيفَ صَبوحُكَ الآنَ وغبوقُكَ؟ إنّي لأحسبهما حَميماً، لا يَفْتأُ مَنْ شَرِبَهُما ذَميماً.

وشَدَّ ما اختَلَفَ النّحاةُ في قولك:

ألا أيّها ذا الزّاجري أحضُرَ الوَغَى، وأن أشهدَ اللّذّاتِ، هل أنتَ مُخلِدي؟

---

(1) يكسر.

(2) الناقة.

وأمّا سيبَويه فيَكرَهُ نَصبَ (أحضُر)، لأنه يَعتَقِد أنّ عَواملَ الأفعال لا تُضمَرُ. وكان الكوفيّونَ يَنصِبونَ (أحضُر) بالحرف المُقدَّر، ويُقوّي ذلك: وأن أشهدَ اللّذّاتِ، فجِئتَ بأنْ، وليسَ هذا بأبعد من قولِهِ:

مَشائيمُ لَيسوا مُصْلِحِينَ قَبيلَةً، ولا نـاعِـبٍ إلاّ بـبَـيـنٍ غُـرابُـهـا

ولقد جئتَ بأُعجوبةٍ في قولِك:

لـو كـانَ فـي أمـلاكِـنـا مَـلِـكٌ يَـعْـصِـرُ فـيـنـا، كـالّـذي تَـعْـصِـرُ

لاجْـتَـبَـيْـتُ صَـحْـنَـيِ الـعِـراقِ عـلـى حَـرْفٍ أمـونٍ، دَفُّـهـا أزْوَرْ

مُـشْـعَـنـي يَـوْمَ الـرَّحـيـلِ بِـهـا قَـرْعُ تَـنَـقّـاهُ الـقِـدَاحُ يَـسَـرْ

ولقدِ كثُرَتْ في أمرِكَ أقاويلُ الناس: فمنهُم من يزعُمُ أنّكَ في مُلكِ النُّعمانِ اعتُقِلتَ، وقال قومٌ: بل الذي فَعَلَ بك ما فعل عَمرُو بن هِندٍ.

ولو لم يكن لك أثرٌ في العاجلة إلاّ قصيدتُك التي على الدّالِ، لكُنتَ قد أبقَيتَ أثراً حَسَناً.

فيقولُ طَرَفَةُ: وَدِدتُ أنّي لم أنطِقْ مِصراعاً، وعَدِمتُ في الدار الزّائلة إمراعاً، ودخلتُ الجَنّةَ مَعَ الهَمَجِ والطُّغام، ولم يُعمَدْ لِمَرْسِي بالارغام، وكيفَ لي بِهَدْءٍ وسكون، أركنُ إليه بعض الركون؟ ﴿وأمّا القاسِطونَ فَكانُوا لِجَهَنّمَ حَطَباً﴾[1].

مع أوس بن حجر

ويَلفِتُ عُنُقَهُ يَتأمّلُ، فإذا هو بأوْسِ بنِ حَجَرٍ، فيقولُ: يا أوسُ، إنّ أصحابَكَ لا يُجيبونَ السائلَ، فَهَلْ لي عندَكَ من جوابٍ؟ فإنّي أريد أن أسألَكَ عن هذا البيت:

وقـارَفَـتْ[2] وهيَ لم تَجرَبْ، وباعَ لها من الفَصافِصِ[3] بالنُّمّيِّ[4] سِفْسيرُ[5]

فإنّه في قصيدتك التي أوّلُها:

---

(1) سورة الجن، الآية 15.

(2) قاربت.

(3) نبات لعلف الدواب.

(4) المال.

(5) خادم.

هل عاجِلٌ من مَتاعِ الحَيِّ مَنظُورُ أمْ بَيتُ دَوْمَةَ بعدَ الوَصْلِ مَهجورُ

ويُروى في قصيدة النّابغة التي أوّلُها:

وَدِّعْ أُمامةَ والتّوديعُ تَعْذِيرُ، وما وَداعُكَ مَنْ قَفَّتْ بهِ العِيرُ

وكذلك البيتُ الذي قبلَه:

قد عُرِّيَتْ نِصفَ حَوْلٍ أشهراً جُدُداً يَسفي على رَحْلِها في الحِيرة المُورُ[1]

وكذلك قولُهُ:

إنّ الرّحيلَ إلى قَوْمٍ، وإنْ بَعُدوا، أمسَوا ومن دونِهمْ ثَهْلانُ فالنِّيرُ

وكلاكُما مَعدودٌ في الفُحول، فعلى أيّ شيءٍ يُحمَلُ ذلك؟

فيقولُ أوسٌ: قد بلغني أنّ نابغةَ بني ذُبيانَ في الجنّة، فاسألْهُ عمّا بدا لكَ فلعَلّه يخبرُكَ، فإنّه أجدَرُ بأنْ يَعيَ هذه الأشياء، فأمّا أنا فقد ذَهَلتُ: نارٌ توقَدُ، وبَنانٌ يُعقَدُ؛ إذا غَلَبَ عليّ الظَّمأُ، رُفِعَ لي شيءٌ كالنّهرِ، فإذا اغتَرَفتُ منهُ لأشربَ، وجدتُهُ سَعيراً مُضطرِماً، فلَيتَني أصبحتُ دَرِماً، ولقد دخلَ الجنّةَ من هو شرٌّ مني، ولكنّ المَغْفِرَةَ أرْزاقٌ، كأنّها النَّشَبُ في الدار العاجلة. فيقول، صار وليُّهُ من المتبوعين، وشانِئُهُ بالسَّفَهِ من المَسبوعين: إنّما أردتُ أن آخُذَ عنك هذه الألفاظ، فأُتحِفَ بها أهلَ الجنّة فأقولَ: قال لي أوسٌ، وأخبرني أبو شُرَيْح.

مع أبي كبير الهُذَليّ

ويرى رجلاً في النار لا يُمَيّزه من غيره، فيقول: مَن أنتَ أيها الشقيّ؟ فيقولُ: أنا أبو كبيرٍ الهُذَليّ، عامرُ بنُ الحُلَيسِ، فيقولُ: إنّكَ لَمِنْ أعلام هُذَيلٍ، ولكنّي لم أوثِرْ قَوْلَكَ:

أزُهَيرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ من مَعْدَلِ أمْ لا سَبيلَ إلى الشَّبابِ الأوّلِ

وقلتَ في الأخرى:

أزُهَيرُ هَل عَن شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفِ أم لا خُلُودَ لِعَاجِزٍ مُتَكَلِّفِ

وقلتَ في الثّالثة:

---

(1) الغبار.

أَزُهَيـرُ هَـلْ عـن شَـيْـبَـةٍ مـن مَـعْـكِـمِ

فهذا يدلُ على ضيق عَطَنِكَ بالقريضِ، فهَلاّ ابْتدأتَ كلّ قصيدةٍ بفَنٍّ؟ والأصمعيّ لم يَرْوِ لكَ إلاّ هذه القصائدَ الثلاثَ، وقد حُكِيَ أنّه يروي عنكَ الرائيةَ التي أوّلُها:

أَزُهَيـرُ هـل عَـن شَـيْـبَـةٍ مـن مَـقْـصَـرِ

فيقولُ أبو كبيرٍ الهُذَليّ: كيفَ لي أن أقْضِمَ على جَمَراتٍ مُحرقاتٍ، لأرِدَ عِذاباً غَدِقاتٍ؟ وإنّما كَلامُ أهلِ سَقَرَ وَيْلٌ وعَوِيلٌ، ليس لهم إلاّ ذلك حَويلٌ، فاذهبْ لطِيَّتِكَ، واحذَرْ أن تُشْغَلَ عن مَطِيَّتِكَ.

فيقولُ، بَلّغه ألّلهُ أقاصيَ الأملِ: كيفَ لا أجذَلُ وقد ضُمِنَتْ لِيَ الرحمةُ الدائمةُ، ضَمِنَها من يَصدُقُ ضَمانُهُ، ويَعُمّ أهلَ الخِيفَةِ أمانُهُ؟

مع الأخطل التغلبي

وإذا هو برَجُلٍ يَتَضَوّرُ، فيقول: مَن هذا؟ فيُقال: الأخطلُ التّغلِبيّ، فيقولُ له: ما زالت صِفتُكَ للخمر، حتى غادرَتْكَ أُكُلاً للجَمرِ، كَمْ طَرِبَتِ السّاداتُ على قولك:

أنـاخـوا فَـجَـرّوا شـاصِـيـاتٍ كـأنّـهـا ... رِجـالٌ مـنَ الـسُّـودانِ لـم يَـتَـسَـرْبَـلُـوا
فـقـلـتُ: اصْـبَـحـونـي، لا أبـا لأبـيـكُـمْ، ... ومـا وَضَـعُـوا الأثـقـالَ إلاّ لِـيَـفـعَـلُـوا
فـصَـبّـوا عُـقـاراً فـي الإنـاءِ كـأنّـهـا، ... إذا لَـمَـحـوهـا، جُـذْوَةٌ تَـتَـأكّـلُ
وجـاؤوا بِـبَـيْـسـانِـيّـةٍ هـيَ، بَـعـدَمـا ... يُـعَـلُّ بـهـا الـسّـاقـي، ألَـذُّ وأسْـهَـلُ
تَـمُـرّ بـهـا الأيـدي سَـنـيـحـاً وبـارحـاً، ... وتُـوضَـعُ بـالـلّـهُـمّ حـيِّ، وتُـحـمَـلُ
فـتُـوقَـفُ أحـيـانـاً، فـيَـفـصِـلُ بَـيـنَـنـا ... غِـنـاءُ مُـغَـنٍّ، أو شِـواءٌ مُـرَعْـبَـلُ
فـلَـذّتْ لـمُـرْتَـاحٍ، وطـابَـتْ لِـشَـارِبٍ، ... وراجَـعَـنـي مـنـهـا مِـراحٌ وأخْـيَـلُ
فَـمَـا لَـبّـثَـتْـنَـا نَـشْـوَةٌ لَـحِـقَـتْ بِـنَـا ... تَـوَابِـعُـهَـا مِـمّـا نُـعَـلّ ونُـنْـهَـلُ
تَـدِبُّ دَبِـيـبـاً فـي الـعِـظـامِ كـأنّـهُ ... دَبـيـبُ نِـمـالٍ فـي نَـقـاً يَـتَـهَـيّـلُ
رَبَـتْ وَرَبـا فـي كَـرْمِـهـا ابـنُ مَـديـنَـةٍ ... مُـكِـبٌّ عـلـى مِـسـحـاتِـهِ يَـتَـرَكّـلُ
إذا خـافَ مـن نـجـمٍ عَـلَـيـهـا ظَـمـاءَةً ... أدَبّ إلَـيـهـا جَـدوَلاً يَـتَـسَـلْـسَـلُ
فَـقُـلْـتُ: اقـتُـلـوهـا عـنـكُـمُ بـمـزاجِـهـا، ... وحُـبّ بـهـا مَـقـتـولَـةً حـيـنَ تُـقـتَـلُ

فقال التّغلبيّ: إنّي جرَرتُ الذّارعَ، ولَقيتُ الدّارع، وهجرتُ الآبدة، ورجوتُ أن

تُدعى النَفسُ العابدة، ولكن أبَت الأقضيَةُ.

فيقولُ، أحَلَ ٱللّهُ الهَلَكَةَ بمُبْغِضيهِ: أخطأتَ في أمرَين، جاء الإسلامُ فعَجِزتَ أن تدخلَ فيه، ولزمتَ أخلاقَ سفيه؛ وعاشرتَ يزيدَ بن مُعاويةَ، وأطَعْتَ نفسَكَ الغاوية؛ وآثرْتَ ما فنيَ على باقٍ، فكيفَ لكَ بالإباق؟

فيزفِرُ الأخطَلُ زَفرةً تَعجَبُ لها الزّبانيَةُ، ويقولُ: آهِ على أيّامِ يزيدَ أسُوفُ عندَه عنبراً، ولا أعدَمُ لديهِ سِيسَنبَرا؛ وأمزَحُ معه مَزحَ خَليل، فَيحتمِلُني احتمالَ الجليل؛ وكم ألبَسني من مَوْشيّ، أسحَبُهُ في البُكْرَةِ أو العَشيّ، وكأنّي بالقِيانِ الصّادحة بينَ يديه تُغنّيهِ بقوله:

ولَــهــا بــالــمــاطِــرونَ إذا	أكَــلَ الــنَّــمــلُ الــذي جَــمَــعَــا
خِــلْــفَــةٌ حــتــى إذا ظَــهَــرَتْ	سَــكَــنَــتْ مِــنْ جِــلَّــقٍ بِــيَــعَــا
فــي قِــبــابٍ حَــوْلَ دَسْــكَــرَةٍ	حَــوْلَــهــا الــزّيــتُــونُ قَــدْ يَــنَــعَــا
وَقَــفَــتْ لــلــبَــدرِ تَــرْقُــبُــهُ،	فــإذا بــالــبَــدْرِ قــد طَــلَــعَــا

ولقد فاكَهتُهُ في بعض الأيّام وأنا سكرانُ مُلتَخٌّ فقلتُ:

اسْــلَــمْ سَــلِــمْــتَ أبــا خَــالِــدٍ	وحَــيّــاكَ رَبُّــكَ بــالــعَــنْــقَــزِ
أكَــلْــتَ الــدّجَــاجَ فــأفْــنَــيْــتَــهَــا،	فَــهَــلْ فــي الخَــنَــانِــيــصِ مــن مَــغْــمَــزِ؟

فما زادني عن ابتسام، واهتزّ للصّلة كاهتزاز الحُسام.

فيقولُ، أدامَ ٱللّهُ تَمكينَه: مِن ثَمّ أُتيتَ! أما علِمْتَ أنّ ذلك الرجلَ عانِدٌ، وفي جبالِ المعصيةِ سانِدٌ؟ فعلامَ اطّلعتَ من مَذهَبِهِ: أكانَ مُوَحّداً، أم وجدتَه في النُّسكِ مُلحِداً؟

فيقولُ الأخطل: كانت تُعجِبُهُ هذه الأبياتُ:

أخالِدَ هــاتِ خَــبّــرِيــنــي وأعْلِــنــي	حديثَــكِ، إنّــي لا أُسِــرُّ الــتّــنــاجِــيــا
حديثَ أبي سُفيانَ لـمّــا سَــمــا بــهــا	إلى أُحُــدٍ حــتــى أقــامَ الــبَــوَاكِــيــا
وكــيــفَ بَــغَــى أمــراً عَــلِــيٌّ فَــفــاتَــهُ	وأورَثَــهُ الــجَــدُّ الــسّــعــيــدُ مُــعــاوِيَــا
وقُــومــي فَــعَــلّــيــنــي عــلــى ذاكِ قَــهْــوَةً	تَــحَــلّــبَــهــا الــعَــيــسِــيُّ كَــرْمــاً شَــآمِــيَــا
إذا مــا نَــظَــرْنــا فــي أمــورٍ قَــديــمَــةٍ	وَجَــدْنــا حَــلالاً شُــرْبَــهــا الــمُــتَــوالِــيَــا

فلا خُلفَ بينَ النّاسِ أنّ مُحمّداً　　تَبَوّأ رَمساً في المَدينةِ ثاوِيا

فيقول: جعل اللّهُ أوقاتَهُ كلَّها سعيدةً: عليكَ البَهلةُ! قد ذهلَتِ الشّعراءُ من أهلِ الجنّة والنّارِ عن المَدحِ والنّسيب، وما شُدِهتَ عن كُفرِكَ ولا إساءتِك. وإبليسُ يسمعُ ذلك الخِطابَ كلّه فيقول للزّبانيَةِ: ما رأيتُ أعجزَ منكم إخوانَ مالكٍ! فيقولونَ: كيفَ زعمتَ ذلك يا أبا مُرّةَ؟ فيقول: ألا تَسمَعُونَ هذا المُتكلّمَ بما لا يَعنيه؟ قد شَغَلَكم وشغَلَ غيرَكم عمّا هو فيه! فلوْ أن فيكم صاحبَ نحيزةٍ قويّةٍ، لوَثَبَ وَثْبَةً حتى يَلحقَ به فيَجذِبَهُ إلى سَقَرَ. فيقولون: لم تصنع شيئاً يا أبا زَوْبَعَةَ! ليسَ لنا على أهل الجنّةِ سَبيلٌ.

فإذا سَمِعَ، أسمَعَهُ اللّهُ محابَّه، ما يقولُ إبليسُ، أخذ في شتمه ولَعنِهِ وإظهارِ الشّماتةِ به. فيقول، عليه اللعنة: ألم تُنهَوْا عن الشّماتِ يا بني آدم؟ ولكنّكم، بحَمدِ اللّهِ، ما زُجِرتُم عن شيءٍ إلاّ ورَكِبتموهُ. فيقول، واصَلَ اللّهُ الإحسانَ إليه: أنتَ بَدأتَ آدَمَ بالشّماتةِ، والبادىءُ أظلَمُ:

ثمّ يَعودُ إلى كلامِ الأخطلِ فيقول: أأنتَ القائلُ هذه الأبيات:

ولَستُ بصائمٍ رَمَضانَ طَوْعاً　　ولَستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي

ولَستُ بقائمٍ كالعَيْرِ أدعو　　قُبَيلَ الصُّبحِ: حيَّ على الفَلاحِ!

ولكِنّي سأشرَبُها شَمُولاً　　وأسْجُدُ عندَ مُنبَلَجِ الصَّباحِ!

فيقول: أجَلْ، وإنّي لَنادِمٌ سادِمٌ، وهل أغنَتِ النّدامةُ عن أخي كُسَعٍ؟

مع المهلهل التغلبي

ويَملُّ من خِطابِ أهلِ النّار، فَينصَرفُ إلى قَصره المَشِيدِ، فإذا صار على مِيلٍ أو ميلَين، ذَكَر أنّه ما سألَ عن مُهَلهِلِ التّغلبيّ ولا عن المُرَقّشَينِ وأنّهُ أغفَلَ الشّنفَرى وتأبّطَ شرّاً، فَيرجعُ على أدراجِه، فيَقِفُ بذلك الموقِفِ يُنادي: أينَ عَدِيُّ بنُ رَبيعةَ؟ فيُقال: زِدْ في البَيانِ. فيقول: الذي يَستَشهِدُ النّحويُّونَ بقوله:

ضَرَبَتْ صَدْرَها إليَّ وقالتْ:　　يا عَدِيّاً لقد وَقَتْكَ الأواقي

وقد استَشهَدُوا له بأشياءَ كقولِه:

ولقد خَبَطنَ بُيوتَ يشكُرَ خَبْطَةً،　　أخوالَنا، وهُمُ بَنُو الأعمامِ

وقوله:

مـا أُرَجّـي بـالـعَـيْـشِ بـعـد نَـدامَـى كُـلُّـهُـمْ قـد سُـقـوا بـكـاسِ حَـلاقِ

فيقال: إنّكَ لتُعَرِّفُ صاحبكَ بأمرٍ لا معرفةَ عندنا به، ما التحويّون؟ وما الاستِشهادُ؟ وما هذا الهَذَيانُ؟ نحنُ خزَنَةُ النّار، فبَيِّنْ غرَضَكَ تُجَبْ إليه.

فيقول: أُريدُ المعروفَ بمُهَلْهِلٍ التّغلبِيّ، أخي كُلَيبِ وائلٍ الذي كان يُضرَبُ به المَثَلُ.

فيقالُ: ها هو ذا يَسمَعُ حِوارَكَ، فقُلْ ما تشاء.

فيقول: يا عَدِيّ بنَ ربيعةَ، أعزِزْ عليّ بِوُلوجِكَ هذا المولِجَ! لو لم آسَفْ عليك إلاّ لأجل قصيدتك التي أوّلُها:

أَلَـيْـلَـتَـنـا بِـذي حُـسَـمٍ أَنـيـري إذا أنـتِ انْـقَـضَـيْـتِ فـلا تَـحـوري

لكانتْ جديرةً أن تُطيلَ الأسَفَ عليك، وقد كنتُ إذا أنشدتُ أبياتَك في إبنَتِكَ المزوّجةِ في «جَنبٍ» تَغرَورِقُ من الحزنِ عَيناي. فأخبرني لِمَ سُمّيتَ مُهَلْهِلاً؟ فقد قيل: إنّكَ سُمّيتَ بذلك لأنّكَ أوّلُ مَن هَلهَلَ الشعرَ، أي رقّقه.

فيقولُ: إنّ الكذِبَ لكثيرٌ، وإنّما كان لي أخٌ يقال له امرؤ القيس فأغار علينا زُهير بنُ جَنابٍ الكَلْبيّ، فتبعَه أخي في زرافةٍ من قومِهِ، فقال في ذلك:

لـمّـا تَـوَقَّـلَ فـي الـكُـراعِ هَـجـيـنُـهُـم هَـلْـهَـلْـتُ أثـأرُ مـالِـكـاً أو صِـنْـبِـلا

وكـأنّـهُ بـازٌ عَـلَـتْـهُ كَـبْـرَةٌ يَـهْـدي بِـشِـكّـتِـهِ الـرّعـيـلَ الأوّلا

فَسُمّيَ مُهَلهِلاً، فلمّا هَلَكَ شُبّهتُ به فقيلَ لي: مُهَلهِل. فيقول: الآنَ شَفيتَ صَدري بحقيقةِ اليَقين.

فأخبرْني عن هذا البيت الذي يُروى لك:

أرْعَـدوا سـاعـةَ الـهِـيـاجِ وأَبْـرَقْـ ـنـا كـمـا تُـوعِـدُ الـفُـحـولُ الـفُـحـولا

فإنّ الأصمعيّ كان يُنكِرُهُ ويقول: إنه مُوَلَّدٌ، وكان أبو زيدٍ يَستَشهِدُ به ويُثبِتُهُ.

فيقول: طالَ الأبَدُ على لُبَدٍ! لقد نسيتُ ما قلتُ في الدار الفانية، فما الذي أنكر منه؟

فيقول: زَعَمَ الأصمعيّ أنّهُ لا يُقالُ أرعدَ وأبرقَ في الوعيد ولا في السّحاب.

فيقولُ: إنّ ذلك لخطأٌ من القول، وإنّ هذا البيتَ لم يَقُلْهُ إلاّ رجلٌ من جِذْمِ الفَصاحة، إمّا أنا وإمّا سِوايَ، فخُذْ به وأعرِضْ عن قَوْلِ السُّفَهاء.

مع المرقّش الأكبر والمرقّش الأصغر:

ويَسألُ عن المُرَقّشِ الأكبر، فإذا هوَ به في أطباقِ العذاب، فيقول: خَفّفَ ٱللّهُ عنكَ أيها الشابّ المُغتَصَبُ، فلم أزل في الدار العاجلةِ حزيناً لِما أصابكَ به الرّجلُ الغُفَليّ، أحدُ بني غُفَيْلَةَ بن قاسِطٍ، فعَليه بَهلةُ ٱللّهِ!

وإنّ قوماً من أهلِ الإسلام كانوا يَستَزْرونَ بقصيدتكَ الميميّة التي أوّلُها:

هَـلْ بـالـدّيـارِ أن تُـجـيـبَ صَـمَـمْ   لَـوْ كـانَ حَـيّـاً نـاطِـقـاً كَـلّـمْ

وإنّها عندي لَمِنَ المُفْرَداتِ، وكان بعضُ الأدباء يرى أنّها والميميّةُ التي قالها المُرَقّشُ الأصغرُ ناقصتانِ عن القصائدِ المُفَضّليّاتِ، ولقد وَهِمَ صاحبُ هذه المَقالة.

وبعضُ النّاسِ يَرْوي هذا الشّعرَ لك:

تَـخَـيّـرْتُ مِـنْ نُـعـمـانَ عُـودَ أراكَـةٍ،   لِـهِـنْـدٍ، ولـكـنْ مَـنْ يُـبَـلِّـغُـهُ هُـنْـدا؟

خَـلـيـلَـيّ جُـورا بَـارَكَ ٱلـلّـهُ فـيـكُـمـا،   وإنْ لـم تـكـنْ هـنـدٌ لأرضِـكُـمـا قَـصْـدا

وقُـولا لـهـا: لَـيـسَ الـضّـلالُ أجـازَنَـا   ولـكِـنّـنـا جُـزْنـا لِـنَـلـقـاكُـمْ عَـمْـدا

ولم أجِدْها في ديوانِك، فهل ما حُكِيَ صحيحٌ عنك؟

فيقول: لقد قلتُ أشياءَ كثيرةً، منها ما نُقل إليكم ومنها ما لم يُنقل. وقد يجوز أن أكون قلتُ هذه الأبيات، ولكني سَرِقتُها لطولِ الأبد، ولعلّكَ تُنكِرُ أنّها في هند، وأنّ صاحبتي أسماء، فلا تَنفِرْ من ذلك، فقد يَنتَقِلُ المُشَبِّبُ من الاسم إلى الاسم، ويكون في بعض عمره مُستهتَراً بشخصٍ من الناس، ثمّ ينصرفُ إلى شَخصٍ آخر؛ ألا تَسمع إلى قولي؟:

سَـفَـهٌ تَـذَكُّـرُهُ خُـوَيْـلَـةَ بَـعْـدَمَـا   حَـالَـتْ ذُرَى نَـجْـرانَ دونَ لِـقـائِـهـا

ويَنعَطِفُ إلى المُرَقّشِ الأصغر فيسألُهُ عن شأنِهِ مع بنت المُنذِرِ وبنتِ عَجلانَ فيَجِدُهُ غيرَ خَبيرٍ، قد نَسِيَ لتَرادُفِ الأحقابِ. فيقول: ألا تَذكُرُ ما صَنَعَ بكَ جَنابٌ الذي تقول فيه:

فـآلـى جَـنـابُ حِـلـفَـةً فـأطَـعْـتُـهُ، فَـنَـفْـسَـكَ وَلِّ الـلَّـوْمَ إن كـنـتَ لائـمـا

فيقول: وما صنعَ جَنابٌ؟ لقد لقيتُ الأقورِينَ، وسُقيتُ الأمَرَّينِ، وكيفَ لي بعذابِ الدّارِ العاجلة!

مع الشنفرى الأزدي وتأبط شراً

فإذا لم يجدْ عندَه طائلاً تركَه، وسأل عن الشّنفرَى الأزديّ فألفاهُ قليلَ التشكّي والتألُّمِ لِما هو فيه، فيقول: إنّي لا أراكَ قَلِقاً مثلَ قَلَقِ أصحابك. فيقول: أجَلْ، إنّي قلتُ بيتاً في الدّار الخادعةِ فأنا أتأدّبُ به حِيريَّ الدّهر، وذلك قولي:

غَوَى فَغَوَتْ، ثـمّ ارْعَوَى بعدُ وَارْعَوَتْ وللـصّـبرُ إن لـم يَـنْـفَـعِ الـشكـوُ أجـمَـلُ

وإذا هو قرين مع تأبّطَ شرّاً، كما كان في الدّار الغَرّارَةِ.

فيقول، أسنى اللّهُ حَظّهُ من المَغفِرَةِ، لتأبّطَ شرّاً: أحَقٌّ ما رُويَ عَنك من نِكاحِ الغِيلان؟ فيقول: لقد كنّا في الجاهليّةِ نَتَقَوّلُ وَنَتَخَرّصُ، فما جاءَكَ عنّا ممّا يُنكِرُهُ المَعقولُ فإنّهُ من الأكاذيب، والزّمَنُ كلّه على سَجيّةٍ واحدةٍ، فالذي شاهَدَهُ مَعَدُّ بنُ عَدنانَ كالذي شاهَدَ نُضاضةُ وُلْدِ آدَمَ.

فيقول، أجزلَ اللّهُ عَطاءهُ من الغفران: نُقِلَتْ إلَينا أبياتٌ تُنسَبُ إليك:

أنـا الـذي نَـكَـحَ الـغِـيـلانَ فـي بَـلَـدٍ مـا طَـلّ فِـيـهِ سِـمـاكـيٌّ ولا جـادَا
في حيثُ لا يَعمِتُ الغادي عَمايتَه ولا الـظّـلـيـمُ بِـهِ يَـبْـغـي تِـهِـبّـادَا
وقـد لَـهَـوْتُ بِـمَـصْـقُـولٍ عَـوَارِضُـهـا بِـكْـرٍ تُـنـازِعُـنـي كـأسـاً وعِـنْـقـادَا
ثـمّ انـقـضَـى عـصـرُها عـنّـي وأعـقَـبَـهُ عصرُ المَشيبِ، فقلْ في صالحٍ: بادا

فاستَدْلَلْتُ على أنّها لَكَ لمَا قُلتَ: تِهِبّادا، مصدر تَهَبّد الظليمُ إذا أكلَ الهَبيدَ، فقلتُ: هذا مثلُ قوله في القافيَة:

طَـيـفُ ابـنَـةِ الـحُـرّ إذْ كُـنّـا نُـواصِـلُـهـا ثـمّ اجـتُـنِـنْـتُ بـهـا بـعـدَ الـتِّـفِـرّاقِ

مصدر تَفَرّقوا تِفِرّاقاً، وهذا مُطّرِدٌ في تَفَعّلَ، وإن كان قليلاً في الشّعر، كما قال أبو زُبَيد:

فـثـارَ الـزّاجـرونَ فَـزادَ مِـنْـهُـمْ تِـقِـرّابـاً، وصـادَفَـهُ ضَـبِـيـسُ

فلا يُجيبُهُ تأبّطَ شرّاً بطائلٍ.

VI

في الجنة من جديد

مع آدم:

فإذا رأى قِلّةَ الفوائِدِ لديهمْ، تركَهم في الشّقاءِ السّرمدِ، وعَمَدَ لمَحَلِّهِ في الجِنان، فيَلقى آدَمَ، عليه السّلام، في الطّريقِ فيقول: يا أبانا، صلّى ٱللّهُ عليك، قد رُويَ لنا عنك شعرٌ، منهُ قولُك:

نحنُ بَنو الأرضِ وسكّانُها ... مِنها خُلِقْنا، وإلَيها نَعُودْ
والسّعدُ لا يَبْقَى لأصحابِهِ ... والنّحسُ تَمحوهُ لَيالي السُّعودْ

فيقول: إنّ هذا القولَ حَقٌّ، وما نَطَقَه إلاّ بعضُ الحكماء، ولكنّي لم أسمعْ به حتى السّاعة.

فيقول، وَفّرَ ٱللّهُ قِسْمَهُ في الثّواب: فَلَعَلّكَ يا أبانا قُلتَهُ ثم نَسيتَ، فقد علمتُ أنّ النّسيانَ متسرّعٌ إليك، وحَسبُكَ شَهيداً على ذلك الآيةُ المَتْلُوّةُ في فُرقانِ مُحمّدٍ، ﷺ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[1] وقد زعمَ بعضُ العلماء أنك إنّما سُمّيتَ إنساناً لِنسيانك، واحتجّ على ذلك بقولهم في التّصغير: أُنَيْسِيان، وفي الجمع: أناسيّ، وقد رُويَ أنّ الإنسانَ من النّسيانِ عن ابنِ عبّاس، وقال الطّائيّ:

لا تَنْسَيَنْ تلكَ العُهودَ وإنّما ... سُمّيتَ إنساناً لأنّكَ ناسِ

وقرأ بعضُهم: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسِ﴾[2] بكسر السّين، يريدُ النّاسي،

---

(1) سورة طه، الآية 115.

(2) سورة البقرة، الآية 119.

فحذف الياء، كما حُذفَتْ في قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾[1]. فأمّا البَصْرِيّونَ فيَعتَقِدُونَ أنّ الإنسانَ من الأُنسِ، وأنّ قولَهم في التصغير: أُنَيْسِيان، شاذ، وقولَهم في الجمع: أناسيُّ، أصلُه أناسينُ، فأُبْدِلَتِ الياءُ من النون.

فيقولُ آدمُ، ﷺ: أَبَيْتُمْ إلاّ عُقوقاً وأَذِيّةً، إنّما كنتُ أتكلّمُ بالعربيّة وأنا في الجنّة، فلمّا هبَطتُ إلى الأرض نُقِلَ لِساني إلى السُّريانيّة، فلم أنطِقْ بغيرها إلى أن هلكتُ، فلمّا ردّني اللّهُ، سُبحانَه وتعالىٰ، إلى الجنّة، عادتْ عليَّ العربيّةُ، فأيّ حينٍ نَظَمْتُ هذا الشعرَ: في العاجلة أم الآجلة؟ والذي قال ذلك يجبُ أن يكون قالَه وهو في الدّارِ الماكرة؛ ألا تَرَى قولَه:

مِـنْـهَـا خُـلِـقْـنـا وإلَـيْـهـا نَـعـود

فكيفَ أقولُ هذا المقالَ ولساني سُريانيٌّ؟ وأمّا الجنّةُ قبلَ أن أخرجَ منها فلم أكن أدري بالموت فيها، وأنّه ممّا حُكِمَ على العِباد، صُيّرَ كأطواقِ حَمام، وما رعى لأحَدٍ من ذِمام؛ وأمّا بعدَ رجوعي إليها، فلا معنى لقَولي: وإليها نَعود، لأنّهُ كَذِبٌ لا مَحالَةَ، ونحنُ مَعاشِرَ أهلِ الجَنّةِ خالِدونَ مُخَلَّدونَ.

فيقولُ، قُضِيَ له بالسّعدِ المُؤَرَّبِ: إنّ بَعضَ أهلِ السِّيَرِ يَزعُمُ أنّ هذا الشّعرَ وَجَدَهُ يَعرُبُ في مُتَقَدّمِ الصُّحُفِ بالسُّريانيّة، فَنَقَلَه إلى لِسانِه، وهذا لا يَمتَنِعُ أن يكون.

وكذلك يروُونَ لكَ، صلّى اللّهُ عليكَ، لمّا قَتَلَ قابيلُ هابيلَ:

تَـغَـيّـرَتِ الـبِـلادُ وَمَـنْ عَـلَـيْـهَـا ... فَـوَجْـهُ الأرضِ مُـغْـبَـرٌّ قَـبِـيـحُ

وأوْدَى رَبْـعُ أهْـلِـيـهـا، فَـبـانُـوا ... وغُـودِرَ فـي الـثّـرَى الـوَجْـهُ الـمَـلِـيـحُ

فيقولُ آدم، ﷺ: أعزِزْ عليّ بكُمْ معشرَ أُبَيْنِيّ! إنكم في الضّلالةِ مُتَهَوّكونَ! آلَيتُ ما نطقتُ هذا النّظيمَ، ولا نُطِقَ في عَصري، وإنّما نَظَمَه بعضُ الفارغين، فلا حَوْلَ ولا قوّةَ إلاّ بالله! كذَبتم على خالقِكم وربّكم، ثمّ على آدمَ أبيكم، ثمّ على حَوّاءَ أُمّكم، وكَذَبَ بعضُكم على بعض، ومآلكم في ذلك إلى الأرض.

---

(1) سورة الحج، الآية 25.

مع الحيات في الجنة

ثمّ يَضرِبُ سائراً في الفردوس فإذا هو بروضةٍ مُؤنِقةٍ، وإذا هو بحَيّاتٍ يَلعَبنَ ويَتَماقَلْنَ، يَتخافَفْنَ ويَتَثاقَلْنَ، فيقول: لاَ إلهَ إلاَّ الله! وما تَصنَعُ حَيّةٌ في الجَنّةِ؟ فيُنطِقُها اللّهُ، جَلّتْ عَظَمَتُهُ، بعدَما ألهَمَها المعرفةَ بهاجِسِ الخَلَدِ فتقول، أما سَمعتَ في عُمرك بذاتِ الصَّفاءِ، الوافيةِ لصاحبِ ما وَفَى؟ كانت تَنزِلُ بوادٍ خَصيب، ما زَمَنُها في العِيشةِ بقصيب، وكانت تَصنَعُ إليه الجَميلَ في وِرْدِ الظاهرةِ والغِبِّ، وليسَ مَنْ كَفَرَ للمُؤمِنِ بِسِبّ. فلمّا ثمّرَ بودّها مالَه، وأمَلَ أن يجتذبَ آمالَه، ذكَرَ عندها ثارَه، وأراد أن يَقتَفِرَ آثارَه، وأكَبّ على فأسٍ مُعْمَلَةٍ، يَحُدّ غُرابَها للآمِلَة، وَوَقَفَ للسّاعيةِ على صخرةٍ، وهَمّ أن يَنتَقِمَ منها بأخَرةٍ، وكان أخوهُ ممّن قَتَلَتْهُ، جاهرَتْهُ في الحادثةِ أو قيلَ خَتَلَتْهُ، فضَرَبَها ضَرْبَةً، وأهونُ بالمَقِرِ شَرْبَةً، إذا الرّجلُ أحسّ التّلَفَ، وفَقَدَ منَ الأنيسِ الخَلَفَ! فلمّا وُقِيَتْ ضربةَ فأسِهِ، والحِقْدُ يُمسِكُ بأنفاسِهِ، نَدِمَ على ما صَنَعَ أشَدّ النّدَم، ومَن له في الجِدَةِ بالعَدَم؟ فقال للحَيّةِ مُخادِعاً، ولم يكنْ بما كَتَمَ صادِعاً[1]: هَلْ لكِ أن نكونَ خِلّينِ، ونحفظَ العَهدَ إلّينِ[2]؟ ودعاها بالسّفَهِ إلى حِلْف، وقد سُقِيَ من الغَدرِ بخِلْف. فقالت: لا أفعلُ وإن طالَ الدّهرُ، وكم قُصِمَ بالغِيَرِ ظَهْرٌ! إنّي أجِدُكَ فاجراً مَسحوراً، لم تَألُ في خُلّتِكَ حُوراً؛ تأبى لي صَكّةٌ فوقَ الرأسِ، مارَستُها أبأسَ مِراسٍ، ويَمنَعُكَ من أرَبِكَ قَبرٌ مَحفور، والأعمالُ الصّالحةُ لها وُفور.

وقد وَصَفَ ذلك نابغةُ بَني ذُبيانَ فقال:

وإنّي لألقَى من ذوي الضّغنِ منهُمُ،	وما أصبحتْ تشكو من البَثّ ساهرَهْ
كما لَقِيَتْ ذاتُ الصّفا من خَليلِها،	وكانَتْ تَديهِ المالَ غِبّاً وظاهرَهْ
فلمّا رأى أنْ ثَمّرَ اللّهُ مالَهُ،	فأصبَحَ مَسروراً، وسَدّ مَفاقِرَهْ
أكَبّ على فأسٍ يَحُدّ غُرابَها،	مُذَكَّرَةٍ، مِنَ المَعاوِلِ، باتِرَهْ
وقامَ على جُحرٍ لها فَوقَ صَخرَةٍ،	ليَقتُلَها، أو تُخطِئَ الكَفُّ بادِرَهْ
فلمّا وَقاها اللّهُ ضَربَةَ فأسِهِ	وللبِرّ عَينٌ لا تُغَمِّضُ ناظِرَهْ
فقالَ: تَعالَيْ نَجعَلِ اللّهَ بَينَنا	على مالِنا، أو تُنجِزي ليَ آخِرَهْ

(1) جاهراً.

(2) جارين.

فـقـالـتْ: مَـعـاذَ ٱللَّـهِ أفـعَـلُ إنَّـنـي رَأيـتُـكَ مَـسـحـوراً يَـمـيـنُـكَ فـاجِـرَه

أبَـى لـيَ قَـبـرٌ لا يَـزالُ مُـقـابِـلـي، وضَـرْبَـةُ فـأسٍ فـوْقَ رأسـيَ فَـاقِـرَه!

وتقولُ حيّةٌ أُخرى: إنّي كنتُ أسكُنُ في دار الحَسَن البَصْريّ فيتلو القرآنَ لَيلاً، فَتَلَقَّيتُ منه الكتابَ من أوّله إلى آخره.

فيقولُ، لا زالَ الرُّشدُ قَريناً لمحَلّه: فكيفَ سمِعتِهِ يقرأ: ﴿فالِقُ الإصباح﴾[1]؟ فإنّهُ يُروَى عنهُ بفتح الهمزة كأنّه جمع صُبح، وكذلك: ﴿بالعَشِيّ والإبْكار﴾[2] كأنّه جمعُ بَكَر، من قولِهم: لَقيتُهُ بَكَراً، وإذا قُلنا: إنّ أنْعُماً وأشُدّاً جمعُ نعمةٍ وشدّة، على طرحِ الهاء، فيجوز أن تكون الأبكارُ جمعَ بُكرَةٍ، فتكونُ على قولِنا: بُكْرٌ وأبكارٌ، كما يُقال جُندٌ وأجناد.

فتقول: لقد سمعتُهُ يقرأ هذه القراءة، وكنتُ عليها بُرهةً من الدّهر، فلمّا تُوُفّي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، انتَقَلتُ إلى جدارٍ في دار أبي عمرو بن العلاء؛ فسمِعتُهُ يقرأ، فرَغِبتُ عن حروفٍ من قراءةِ الحَسن كهذَينِ الحَرفَينِ، وكقَولِهِ: الأنجيل، بفتح الهمزة. فلمّا توفّي أبو عمرو كرِهتُ المُقامَ، فانتقلتُ إلى الكوفةِ، فأقمتُ في جوارِ حَمزةَ بنِ حَبيبٍ، فسمِعْتُهُ يَقرأ بأشياءَ يُنكِرُها عليهِ أصحابُ العربيّةِ، كخَفضِ الأرحام في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأرْحَامِ﴾[3] وكسرِ الياء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيِّ﴾[4] وكذلك سكونُ الهمزة في قوله تعالى: ﴿اسْتِكْبَاراً في الأرْضِ ومَكْرَ السيّءْ﴾[5] وهذا إغلاقٌ لباب العربيّة، لأنّ (الفُرقان) ليس بمَوضع ضرورةٍ، وإنّما حُكِيَ مثلُ هذا في المنظوم.

ويَهْكِرُ، أزْلَفَهُ ٱللَّهُ مَعَ الأبرارِ المُتّقين، لِما سَمِعَ من تلك الحَيّة، فتقولُ هي: ألا تُقيمُ عندنا بُرهَةً من الدّهر؟ فإنّي إذا شئتُ انتفضتُ من إهابي فصِرْتُ مثلَ أحسن غَواني

(1) سورة الأنعام، الآية 96.

(2) سورة آل عمران، الآية 41.

(3) سورة النساء، الآية الأولى.

(4) سورة إبراهيم، الآية 22.

(5) سورة فاطر، الآية 43.

الجنة، لو تَرَشّفتَ رُضابي لعَلِمتَ أنّه أفضلُ من الدّرياقةِ[1] التي ذكرَها ابنُ مُقبِلٍ في قوله:

سَقَتْني بِصَهْباءَ دِرْياقةٍ مَتى ما تُلَيِّنْ عِظامي تَلِنْ

ولو تَنَفّستُ في وجهِكَ لأعلمتُكَ أنّ صاحبةَ عَنترةَ تَفِلَةٌ[2] صَدوفٌ، ولو أدنَيْتَ وِسادَكَ إلى وِسادي، لَفَضّلتَني على التي يقولُ فيها الأوّلُ:

باتَتْ رَقُوداً وسارَ الرّكبُ مُدّلِجاً، وما الأوانسُ في فِكرٍ لِسارينا
كأنّ رِيقَتَها مِسْكٌ على ضَرَبٍ، شِيبَتْ بأصهَبَ مِنْ بَيعِ الشّآمينا
يا رَبِّ، لا تَسلُبَنّي حُبَّها أبداً، ويَرْحَمُ اللّهُ عَبداً قالَ: آمينا

فيَذْعَرُ منها، جَعَلَ اللّهُ أمنَهُ مُتّصِلاً، والطّالبَ شأوَهُ من تَقصيرٍ مُنتَصِلاً، ويذهبُ مُهَرْوِلاً في الجنّةِ ويقول في نفسه: كيفَ يُركَنُ إلى حَيّةٍ شَرَفُها السُّمُّ، ولها بالفَتكَةِ هَمٌ؟ فتُناديه: هلُمّ إن شئتَ اللّذّةَ، فإنّي لأفضَلُ من حَيّةِ ابنةِ مالكٍ التي ذكرَها العَبسِيُّ في قوله:

ما وَلّدَتْني حَيّةُ ابنةُ مالِكٍ سِفاحاً، ولا قَولي أحاديثُ كاذِبِ

وأحمَدُ عِشاراً من حَيّةَ ابنةِ أزهَرَ التي يقول فيها القائلُ:

إذا ما شَرِبْنا ماءَ مُزْنٍ بِقَهْوَةٍ ذَكَرنا عليها حَيّةَ ابنةَ أزهَرا

ولو أقمتَ عندَنا إلى أن تَخبُرَ وُدّنا وإنصافَنا، لَنَدِمتَ إن كنتَ في الدّار العاجلةِ قَتَلتَ حَيّةً أو عثماناً[3]!

فيقول وهو يَسمعُ خِطابَها الرّائقَ: لقد ضيّقَ اللّهُ عليّ مَراشِفَ الحُور الحِسانِ، إن رَضِيتُ بِتَرَشُّفِ هذه الحَيّة.

العودة إلى الحور عين

فإذا ضَرَبَ في غِيطانِ الجَنّةِ، لَقِيَتهُ الجاريةُ التي خرجتْ من تلكَ الثّمَرةِ فتقولُ: إنّي لأنتَظِرُكَ منذ حينٍ فما الذي شَجَنَك عن المزار؟ ما طالَتِ الإقامةُ معك، فأَمِلَّ

---

(1) اسم للخمرة.

(2) كريهة رائحة الفم.

(3) ثعبان.

بالمُحاوَرَةِ مَسمَعَك، قد كان يحقّ لي أن أُوثَرَ لديكَ على حَسَبِ ما تَنفَرِدُ به العَرُوسُ، يَخُصّها الرّجلُ بشيء دونَ الأزواجِ.

فيقولُ: كانت في نَفسي مآربُ من مُخاطبَةِ أهلِ النّار، فلمّا قضيتُ من ذلك وَطَراً عدتُ إليك، فاتّبعيني بين كُثُبِ العَنبرِ وأنقاءِ المِسكِ.

فَيَتَخلّلُ بها أهاضيبَ الفِردَوسِ ورِمالَ الجِنانِ؛ فتقولُ: أيّها العبدُ المرحومُ، أظُنّكَ تَحتَذِي بي فِعالَ الكِنديّ في قوله:

فقُمتُ بها أمشي، تَجُرّ وَراءَنا	على إثْرِنا أذيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فلمّا أجزنا ساحةَ الحَيّ، وانتحى	بنا بَطنُ خَبتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ
هَصَرْتُ بِفَوْدَيْ رَأسِها، فتمايلتْ	عليّ هَضِيمَ الكَشحِ رَيّا المُخَلْخَلِ

فيقولُ: العَجَبُ لقدرةِ الله! لقد أصَبْتِ ما خطرَ في السُّوَيداء، فمن أينَ لكِ عِلمٌ بالكِنديّ وإنّما نشأتِ في ثَمَرَةٍ تُبعِدُكَ من جِنّ وأنيس؟ فتقول: إنّ اللّهَ على كلّ شيءٍ قديرٌ.

ويَعرِضُ له حَديثُ امرىء القيس في دارةِ جُلجُلٍ، فيُنشِىءُ اللّهُ، جلّتْ عَظَمَتُهُ، حُوراً عِيناً يَتَماقَلْنَ في نهرٍ من أنهار الجنّة، وفيهِنّ مَن تَفضُلُهُنّ كصاحبة امرىءِ القيسِ، فيَترَامَيْنَ بالتُّرْمُدِ، وإنّما هو كأجَلِّ طِيبِ الجنّة، ويَعقِرُ لهُنّ الرّاحلةَ، فيأكُلُ ويأكُلنَ من بَضِيعِها ما ليسَ تقعُ الصّفَةُ عليهِ من إمْتاعٍ ولَذاذةٍ.

جنة الرُّجز:

ويَمُرّ بأبياتٍ ليس لها سُمُوقُ أبياتِ الجنّةِ، فيسألُ عنها فيُقال له: هذه جنّةُ الرُّجزِ، يكون فيها: أغلبُ بني عِجلٍ والعَجّاجُ ورُؤبةُ وأبو النّجم وحُمَيدٌ الأرقطُ وعُذافرُ بنُ أوسٍ وأبو نُخَيلَةَ وكلُّ مَن غُفِرَ له من الرُّجّاز، فيقولُ: تَبارَكَ العزيزُ الوَهّابُ! لقد صدقَ الحديثُ المَروِيّ: «إنّ اللّهَ يُحِبّ مَعاليَ الأمورِ ويَكرَهُ سَفسافَها»؛ وإنّ الرّجزَ لمن سَفْسافِ القَريض، قَصّرتُم أيّها النّفرُ فقُصّرَ بكم.

ويَعرِضُ له رُؤبةُ فيقول: يا أبا الجحّافِ، ما كان أكلفَكَ بقوافٍ لَيستْ بالمُعجِبَةِ تَصنَعُ رَجَزاً على الغين ورجزاً على الطاء وعلى الظاء، وعلى غير ذلك من الحروف

النّافرة، ولم تكن صاحبَ مَثَلٍ مذكورٍ، ولا لفظٍ يُستَحسَنُ عَذْبٍ.

فَيَغضَبُ رُؤْبَةُ ويقول: ألي تقولُ هذا وعَنّي أخذَ الخَليلُ، وكذلك أبو عَمرو بن العلاء، وقد غَبَرْتَ[1] في الدّار السّالفةِ تَفتَخِرُ باللّفظةِ تَقعُ إليكَ ممّا نَقَلَه أُولئك عنّي وعن أشباهي؟

فإذا رأى، لا زالَ خَصمُهُ مُغَلَّباً، ما في رؤبةَ من الانتخاء قال: لو سُبِكَ رَجزُكَ ورجَزُ أبيكَ، لم تخرجْ منه قصيدةٌ مُستَحسَنَةٌ، ولقد بَلَغَني أنّ أبا مُسلِمٍ كلَّمَكَ بكلامٍ فيه ابنُ ثَأداءَ، فلم تَعرِفْها حتى سألتَ عنها بالحيّ، ولقد كنتَ تأخُذُ جوائزَ الملوكِ بغير استحقاقٍ، وإنّ غيرَكَ أَولى بالأعطِيَةِ والصِّلاتِ.

فيقولُ رُؤبةُ: ألَيسَ رَئيسكُم في القديمِ، والذي ضَهَلَتْ[2] إليه المقاييسُ، كان يَستَشهِدُ بقَولي ويَجعَلُني له كالإمام؟ فيقول، وهو بالقولِ مُنطَقٌ: لا فَخرَ لكَ أن استُشهِدَ بكلامِكَ، فقد وجدناهم يَستَشهِدونَ بكلامِ أمَةٍ وَكْعاء[3] يحمِلُ القُطْلَ إلى النّارِ المُوقَدَةِ في السَّبْرَةِ التي نَفَضَ عليها الشَّبَمُ ريشَه، وهَدَمَ لها الشّيخُ عريشَه، تأخُذُ خَشَبَةً للوَقود، كيما يَصِلَ إلى الرُّقودِ، وأجَلُّ أيّامِها أن تَجنيَ عَساقِلَ[4] ومُغرودا، وتَتلوَ نَعَماً مَطرودا، وإنّ بَعلَها في المهنَةِ لَسَيّءُ العَذير، غَلُظَ عن الفَطَنِ والتّحذير، وكم روى النُّحاةُ عن طِفلٍ، ما لَهُ في الأدب من كِفلٍ، وعن امرأةٍ، لم تُعَدَّ يوماً في الدَّرَأة.

فيقول رؤبة: أجِئتَ لِخِصامِنا في هذا المنزِلِ؟ فامضِ لِطِيّتِك، فقد أخَذْتَ بكلامنا ما شاء الله. فيقول، أسكَتَ الله مُجادِلَه: أقسمتُ ما يَصلُحُ كلامُكم للثّناء، ولا يَفضُلُ عن الهِناء[5]، تَصُكّونَ مَسامِعَ الممتدَحِ بالجَندَلِ[6]، وإنّما يُطرَبُ إلى المَندَل، ومتى خرَجتم عن صِفةِ جَمَلٍ، تَرْثونَ له من طول العَمَل، إلى صفةِ فرسٍ سابحٍ، أو كلبٍ للقَنَصِ نابحٍ، فإنّكم غيرُ الرّاشدين. فيقول رؤبةُ: إنّ اللّهَ سبحانه وتعالى قال:

---

(1) مكثت.

(2) رجعت.

(3) حمقاء.

(4) سماة.

(5) القطران.

(6) الحجارة.

﴿يَتَنازَعُونَ فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ﴾[1]. وإنّ كلامكَ لَمِنَ اللَّغْوِ، ما أنْتَ إلى النَّصَفَةِ بذي صَغْو.

فإذا طالَتِ المُخاطَبَةُ بَيْنَه وبينَ رؤبةَ، سَمِعَ العَجّاجُ فجاءَ يَسأل المُحاجَزَةَ.

ويَذْكُرُ، أذكَرَه اللّهُ بالصَّالحاتِ، ما كانَ يلحق أخا النّدام، من فُتورٍ في الجَسَد من المُدام، فيَختار أن يَعرِضَ له ذلك من غير أن يُنزَفَ له لُبٌّ، ولا يَتَغَيَّرَ عليه حُبٌّ، فإذا هو يَخال في العِظامِ النّاعمةِ دَبيبَ نَملٍ، أسرَى في المُقيمَرَةِ على رَمْلٍ، فيترَنَّم بقول إياس بن الأرَتّ:

أعاذِلَ لَوْ شَرِبتِ الخمرَ حتى ... يَظَلَّ لِكُلِّ أُنْمُلَةٍ دَبِيبُ
إذاً لَعَذَرْتِنِي وعلِمتِ أنّي ... لِما أتلفتُ من مالي مُصِيبُ

ويتّكِىءُ على مَفْرَشٍ من السُّنْدُسِ، ويأمُرُ الحُورَ العِينَ أن يحمِلنَ ذلك المَفْرَشَ فيَضعْنَهُ على سريرٍ من سُرُرِ أهل الجنّة، وإنّما هو زَبَرْجَدٌ أو عَسْجَدٌ، ويَكُونُ البارىءُ فيه حَلَقاً من الذّهبِ تُطيفُ به من كلّ الأشراء[2] حتى يأخُذَ كلُّ واحدٍ من الغِلْمانِ وكلُّ واحدة من الجواري المشبّهة بالجُمان[3]، واحدةً من تلك الحَلَقِ، فيُحمَلُ على تلك الحال إلى مَحلّه المُشَيّدِ بدار الخُلُود، فكلّما مرّ بشجرةٍ نَضَحَتْهُ أغصانُها بماءِ الورد قد خُلِطَ بماءِ الكافُور، وبمسكٍ ما جُنِيَ من دماءِ الفُور[4]، بل هو بتقدير الله الكريم.

وتُناديهِ الثّمَراتُ من كلّ أوْبٍ وهو مُستلقٍ على الظّهر: هل لك يا أبا الحَسَن، هل لك؟ فإذا أراد عنقوداً من العنبِ أو غيره انقضَبَ[5] من الشّجرةِ بمَشيئَةِ الله، وحَمَلَتْهُ القُدرةُ إلى فِيهِ، وأهلُ الجنّة يَلقَوْنَهُ بأصنافِ التّحيّةِ ﴿وآخِرُ دَعْواهُمْ أنِ الحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾[6]. لا يزالُ كذلكَ أبداً سَرمداً، ناعِماً في الوقتِ المُتَطاوِلِ مُنَعَّماً، لا تَجِدُ الغِيَرُ فِيهِ مَزْعَماً.

وقد أطَلْتُ في هذا الفصل، ونَعودُ الآن إلى الإجابة عن الرّسالة:

---

(1) سورة الطور، الآية 23.
(2) الأنحاء.
(3) اللؤلؤ.
(4) الظباء.
(5) انقطع.
(6) سورة يونس، الآية 10.

ملحق ١

أبيات الشك والتحدي

مختارات من اللزوميات
أبو العلاء المعرّي

العقل

وكم غرت الدنيا بنيها وساءني — مع الناس مَيْنٌ في الأحاديث والنقل
سأتبع من يدعو إلى الخير جاهذا — وأرحل عنها، ما أمامي سوى عقلي

أيها الغر إن خصصت بعقل — فاسألنه فكل عقل نبيّ

والعقل يعجب للشروع تمجّس — وتحنّف وتنصّر وتهوّد

وهيهات البرية في ضلال — وقد فطن اللبيب لما اعتراها
إذا رجع الحصيف إلى حجاه — تهاون بالشرائع وازدراها
فخذ منها بما أداه لبّ — ولا يغمسك جهل في صراها

يتلون اسفارهم والحق يخبرني — بأنّ آخرها مَين وأولها
صدقت يا عقل فليسعد أخا سفه — صاغ الأحاديث أفكا أو تأولها

تستروا بأمور في ديانتهم — وإنما دينهم دين الزناديق

نكذب العقل في تصديق كاذبهم ... والعقل أولى بإكرام وتصديقِ

ومتى ركبت إلى الديانة غالها ... فِكَرٌ على حسن الضمير دسائسُ
والعقل يعجب، والشرائع كلها ... خبرٌ يُقلّد لم يَقِسه قائس

وأشعر أن العقل يصحب تارةً ... وينفر أخرى، وهو غير عليمِ
وقال أناس: ليس عيسى مقربا ... فقيل: ولا موساكم بكليمِ

عليك العقل وافعل ما رآه ... جميلاً، فهو مشتار الشوار
ولا تقبل من التوراة حكما ... فإن الحق عنها في توار
أرى أسفارها ليهود أضحت ... بواري قد حسبن من البوار

في كل أمرك تقليد رضيت به ... حتى مقالك ربي واحد أحد
وقد أمرنا بفكر في بدائعه ... وأن تفكر فيه معشر لحدوا
وأهل كل جدال يمسكون به ... إذا رأوا نور حق ظاهر جحدوا
والعقل زينٌ ولكن فوقه قدرٌ ... فما له في ابتغاء الرزق تأثيرُ

نهاني عقلي عن أمور كثيرة ... وطبعي إليها بالغريزة جاذبي
ومما أدام الرزء تكذيب صادق ... على خبرة منا وتصديق كاذب

الإله

في كل امرك تقليد رضيت به ... حتى مقالك ربي واحد أحد
وقد أمرنا بفكر في بدائعه ... وأن تفكر فيه معشر لحدوا
وأهل كل جدال يمسكون به ... إذا رأوا نور حق ظاهر جحدوا

إذا كان لا يحظى برزقك عاقلٌ | وترزق مجنونا وترزق أحمقا[1]
فلا ذنب يا رب السماء على امرىءٍ | رأى منك ما لا يشتهي فتزندقا

سبحان ربِّكَ! هل يزول كغيره | شرفُ النجوم وسؤدد الأقمار
فكأن من خلق النفوس رأى لها | ظلماً فعالجها بسوء دمار

ريب الزمان مفرق الإلفَين | فاحكم إلهي بين ذاك وبيني[2]
أنَهَيت عن قتل النفوس تعمدا | وبعثت أنت لقتلها ملكين
وزعمت أن لها معادا ثانياً | ما كان أغنانا عن الحالين

كل الذي تحكون عن مولاكم | كذب أتاكم عن يهود يحبَّر
رامت به الأحبار نيل معيشة | في الدهر والعمل القبيح يتبّر
كذب يقال على المنابر دائماً | أفلا يميد، لما يُقالُ، المنبر

الله يقدر أن يفني بريته | من غير سقم ولكن جنده العلل

والله ما اختار البقاء وطوله | إلا لشر عباده إبليساً[3]

يخبّرونك عن رب العلى كذبا | فما درى بشؤون الله إنسان

قلتم لنا خالق حكيم | قلنا صدقتم كذا نقول
زعمتموه بلا مكان | ولا زمان ألا فقولوا:
هذا كلام له خبيء | معناه ليست لنا عقول

(1) رواه ياقوت ورواه القفطي: انباه الرواة على أنباه النحاة.

(2) ذكرها ياقوت الحموي في إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب.

(3) ربما اقتبس هذه العبارة من خطبة للحجاج بن يوسف.

فسادٌ وكونٌ حادثان، كلاهما شهيد بان الخلق صنع حكيم

أما الإله فأمر لست أعرفه فا حذر لجيلك، فوق الأرض، اسخاطا

رضاً بقضاء ربّك، فهو حتم ولا تظهر لحادثة وجوما
ولم زُحلاً، أو المرّيخَ فيها ولا تلم الذي خلق النجوما

رأيت سجايا الناس فيها تظالمٌ ولا ريب في عدل الذي خلق الظلما

الموت والبعث

واعجب ما نخشاه دعوة هاتف أُتيتم فهبوا يا أنام إلى الحشر
فيا ليتنا عشنا حياة بلا ردى مدى الدهر أو متنا مماتاً بلا نشر

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً وحقّ لسكان البرية أن يبكوا
يحطمنا رب الوجود كأننا زجاجٌ ولكن لا يعاد له سبكُ[1]

يقولون إن الجسم ينقل روحه إلى غيره حتى يهذبه النقل
فلا تقبلن ما يخبرونك ضلّة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل
وليس جسوم كالنخيل وإن سما بها الفرع إلا مثل ما ينبت البقل
فعش وادعا وارفق بنفسك طالباً فإن حسام الهند ينهكه الصقل

اتترك ههنا الصهباء نقدا لما وعدوك من لبن وخمرِ
حياة ثم موت ثم حشر حديث خرافة يا أم عمرو

---

(1) في بعض النسخ: يحطمنا ريب الزمان، وفي بعضها الآخر: تحطمنا الأيام... وذلك لتفادي انكار البعث! ولا نرى أن المعنى يتغير على أية حال. وتفسير ذلك على أنه يقول إن الزجاج لا يعاد له سبك بخلاف الأجساد لا مبرر له.

خذ المرآة واستخبر نجوماً تمرّ بمطعم الأري المشور
تدل على الممات بلا ارتياب ولكن لا تدل على النشور

ونوميَ موتٌ قريب النشور وموتيَ نومٌ طويل الكرى
نزول كما زال أجدادنا ويبقى الزمان على ما نرى
نهارٌ يضيء وليلٌ يجيءُ ونجمٌ يغورُ ونجم يُرى

الروح تنأى فلا يدري بها أحد وفي التراب، لعمري، يرفت الجسد
وقد علمنا بأنا في عواقبنا إلى الزوال ففيم الضغن والحسد

والله صوّرَ أشباحاً لها خبر والشخص بعد وجود يقتضي عدما

وجسمي شمعةٌ والنفس نارٌ إذا حان الردى خمدت بأفْ

بوحدانية الخلاق دنّا فذرني اقطع الأيام وحدي
سالت عن الحقاق كل يوم فما ألفيت إلا حروف جحد
سوى أني أزول بغير شك ففي أي البلاد يكن لحدي

زعموا أنني سأبعث حيا بعد طول المقام في الأرماس[1]
وأجوز الجنان أرتع فيها بين حورٍ وولدةٍ أكياس
أي شي أصاب عقلك يا مسكين حتى رميت بالوسواس

---

(1) رواها أبو الفدا في المختصر من تاريخ البشر. في اللزوميات نجدها تختلف عن ذلك. ورأينا أن رواية أبي الفداء أفضل من ناحيتي المعنى والتركيب:

زعموا أنني سأرجع شرخا كيف لي، وذاك التماسي
وازور الجنان أحبر فيها بعد طول الهمود في الأرماس
أيما طارق أصابك يا طا رق حتى مساك للغي ماسي

إذا انتقلت عن الأوصال نفسي … فما للجسم علم بانتقال
أسير فلا أعود، وما رجوعي! … وقد كان الرحيل رحيل قال
أمور يلتبسن على البرايا … كأنّ العقل منها في عقال

وروح الفتى أشبهت طائرا … أُطيرَ، فما عاد لما نفر
هنيئاً لجسمي إذا ما استقرّ … وصار بعنصره في العَفر
ولست أبالي إذا ما بُليت … ومن وطء القبر أو من حفر

الأديان والمذاهب:

وجدنا اختلافا بيننا في الهنا … وفي غيره عزّ الذي جلّ واتحد
لنا جمعة والسبت يدعى لامة … أطافت بموسى والنصارى لها الأحد
فهل لبواقي السبعة الزهر معشر … يجلونها ممن تنسّك أو زهد

فكّروا بالأمور يُكشف لكم … بعض الذي تجهلون بالتفكيرِ
حرق الهند من يموت فما … زادوه في روحه ولا تكبير
واستراحوا من ضغطة القبر ميتاً … وسؤال لمنكر ونكير
لا ذكور ولا إناث من العالم … يهدى للرشد بالتذكير

يحرّق نفسه الهنديّ خوفاً … ويقصر دون ما فعل الجهاد
وما فعلته عبّاد النصارى … ولا شرعية صبأوا وهادوا
يقرب جسمه للنار عمداً … وذلك منه دين واجتهاد
نودّع بالصلاة وداع بأسٍ … ونُترك في التراب فلا نهاد
أهال من الثرى والأرض أمّ … وأمك حجرها نعم المهاد
إذا الروح اللطيفة فارقتني … فلا هطلت على الرسم العهاد

إذا حرق الهنديُ بالنار نفسه … فلم يبق نخض[1] للتراب ولا عظم

---

(1) النخض: اللحم.

فهل هو خاشٍ من نكير ومنكر وضغطة قبرٍ لا يقام لها نظمُ؟

مساجدكم ومواخيركم سواء فبئسا لكم من بشر
وما أنتم بالنبات الحميد ولا بالنخيل ولا بالعشر

مسيحية من قبلها موسوية حكت لنا انباءً بعيد ثبوتها
وفارس قد شبَّت لها النار وادعت لنيرانها ألا يجوز خبوتها
فما هذه الأيام إلا نظائر تساوت بها آحادها وسبوتها

والعقل يعجب للشروع تمجّس وتحنّف وتنصّر وتهوّد

تفوّه دهركم عجباً فاصغوا إلى ما ظل يخبر يا شهود
إذا افتكر الذين لهم عقول رأوا نبأً يحق له السهود
غدا أهل الشرائع في اختلاف تُقضّ له المضاجع والمهود
فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهود
ولم تستحدث[1] الأيام خلقا ولا حالت من الزمن العهود

وهيهات البرية في ضلال وقد فطن اللبيب لما اعتراها
إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشرائع وازدراها
فخذ منها بما أدّاه لبّ ولا يغمسك جهل في صراها[2]
وهت أديانهم في كل وجه فهل عقل يشد به عراها
تقدم صاحب التوراة موسى وأوقع في الخسار من اقتراها
فقال رجاله وحيٌ أتاه وقال الناظرون[3] بل افتراها

---

(1) الاستحداث يشير إلى الإسلام.

(2) الصرى هو المستنقع.

(3) في بعض النسخ ترد كلمة «الظالمون». ولا نرى أن في ذلك يستقيم المعنى. فإن أبا العلاء، في هذا البيت، كما في غيره يحط من قدر موسى.

أعبريٌّ تهوّك[1] في حديث
فباع المشكلات كما اشتراها

أرى أمّ القرى ضجّت بهجر
وسارت نمل مكة في قراها

وكم سرت الرفاق إلى صلاحٍ
فمارست الشدائد في سراها

يوافون البنيّة كل عام
ليلقوا المخزيات على قَرَاها[2]

ضيوفٌ ما قراها الله عفوا
ولكن من نوائبها قراها[3]

وما سيري إلى أحجار بيتٍ
كؤوس الخمر تُشرب في ذراها

أتوكم بإقبالهم والحسام
فشذّ به زاعمٌ ما زعم

تلَوا باطلاً وجلَوا صارماً
وقالوا صدقنا، فقلنا نعمْ

لا تبدأوني بالعداوة منكمُ
فمسيحكم عندي نظير محمدِ

أيعيث ضوء الصبح ناظر دالدج[4]
أم نحن أجمع في ظلام سرمدي

يتلون اسفارهم والحق يخبرني
بأن آخرها مَيْن وأولها

صدقت يا عقل فليسعد أخا سفه
صاغ الأحاديث أفكاً أو تأولها

وليس حبر ببدع في صحبته
إن سام نفعاً بأخيار تقولها

وإنما رام نسواناً تزوجها
بما افتراه وأموالاً تموّلها

وصاحب الشرع كان القدس قبلته
صلى عليها زماناً ثم حولها

لا يخدعنّك داعٍ قام في ملإٍ
في ذي مقال على ناس تحوّلها[5]

بنت النصارى للمسيح كنائسا
كادت تعيب الفعل من منتابها

ومتى ذكرت محمداً وكتابه
جاءت يهود بجحدها وكتابها

---

(1) تهوّك: تردّى واحتار.

(2) يوافون البنية أي يأتون إلى مكة. على قراها: على ظهرها.

(3) الضيوف إشارة إلى الحجاج. ما قراها أي لم يضيّفها فيعفوا عنها.

(4) الدالج أو المدلج هو السائر ليلاً.

(5) من الاحتيال.

أفملّة الإسلام ينكر منكر | وقضاء ربك صاغها وأتى بها؟

أجاز الشافعي فعال شيء | وقال أبو حنيفة لا يجوز
فضل الشيب والفتيان منا | ولا اهتدت الفتاة ولا العجوز

وينشأ ناشىء الفتيان منّا | على ما كان عوّده أبوهُ
وما دان الفتى بحجاً ولكن | يعلمه التديّن اقربوه
وطفل الفارسي له ولاة | بأفعال التمجس دربوه
وجاءتنا شرائع كل قوم | على آثار شيء رتّبوه
وغيّر بعضهم أقوال بعض | وأبطلت النّهى ما أوجبوه
ويذّل ظاهر الإسلام رِهط | أرادوا الطعن فيه وشذبوه
ويذكر أن في الأيام يوماً | يقوم من التراب مغيبوه
وما يحدث، فإنا أهل عصر | قليلٍ في المعاشر منجبوه
إذا أصحاب دينٍ حكّموه | أزالوا ما سواه وخربوه

قد ترامت إلى الفساد البرايا | واستوت في الضلالة الأديان

إذا سألوا عن مذهبي فهو بيّنٌ | وهل أنا إلا مثل غيريَ أبلهُ
خلقت من الدنيا وعشت كأهلها | أجدّ كما جدوا وألهو كما لهوا
وأشهد أني بالقضاء حللتها | وأرحل عنها خائفاً اتألّه

قد حجب النور والضياء | وإنما ديننا رياءُ
وهل يجود الحيا أناسا | منطويا عنهم الحياء
يا عالم السوء ما علمنا | إن مصليك أتقياء
لا يكذبن امرؤ جهول | ما فيك والله أتقياء
كم وعظ الواعظون منا | وقام في الناس أنبياء
فانصرفوا والبلاء باق | ولم يزل داؤك العياء

حكم جرى للمليك فينا ... ونحن في الأصل أغبياء
أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ... دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا ... فبادوا وماتت سنة اللؤماء
يقولون إن الدهر قد حان موته ... ولم يبق في الأيام غير ذماء
وقد كذبوا ما يعرفون انقضاءه ... فلا تسمعوا من كاذب الزعماء

عجبت لكسرى وأشياعه ... وغسل الوجوه ببول البقر[1]
وقول النصارى إله يضام ... ويظلم حيا ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب ... رشاش الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلاد ... لرمي الجمار ولثم الحجر
فوا عجبي من مقالاتهم ... أيعمى عن الحق كل البشر

في اللاذقية فتنة ... ما بين أحمد والمسيح
هذا بناقوس يدق ... وذا بمأذنة يصيح
كل يزيد دينه ... يا ليت عمري ما الصحيح

قد عشت عمراً طويلاً ما علمت به ... حسّاً يحسّ لجنيّ ولا ملكا

وجدت الناس في هرج ومرج ... غواة بين معتزل ومرجي
فشأن قلوبهم عزف ونزف ... وأصحاب الأمور جباة خرج

قال افتكار بالحواث صادقٌ ... جعلَ الصّعابَ من الحذارِ مذلّله:
هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهود حارت والمجوس مضلّله
اثنان أهل الأرض ذو دين بلا ... عقل وآخرُ دينٌ لا عقل له

(1) رواها أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر.

www.liilas.com/vb3 ARAYAHEEN

وكم من فقيه خالط في ضلالة ... وحجته فيها الكتابُ المنزّلُ
وما أرى كلّ قوم ضل رشدهم ... إلا نظير النصارى أعظموا الصُّلُبا
يا آل إسرائيل هل يرجى مسيحكم ... هيهات قد ميّز الأشياء من خلبا
قلنا أتانا ولم يصلب وقولكم ... لم يأت بعد وقالت أمة صُلبا
جلبتم باطل التوراة عن شحطٍ ... وربّ شرّ بعيد للفتى جُلبا
بالخلف قام عمود الدين، طائفةٌ ... تبني الصّروح وأخرى تحفر القُلُبا[1]

عجبا للمسيح بين أناس ... وإلى غير والد نسبوه
يشفق الحازم اللبيب على الطفـ ... ـل إذا ما لداته ضربوه
كيف خلى وليده للأعادي ... أم يظنون أنهم غلبوه
أسلمته إلى اليهود النصارى ... وأقروا بأنهم صلبوه
وإذا كان ما يقولون في عيـ ... ـسى صحيحاً فأين كان أبوه
وإذا ما سألت أصحاب دينٍ ... غيّروا بالقياس ما رتّبوه
لا يدينون بالعقول ولكن ... بأباطيل زخرف كَذَّبوه

والدين متجر ميّتٍ فلذاك لا ... تلفيه في الأحياء إلا كاسدا

دين وكفر وأنباءٌ تُقصّ وفرقـ ... ـانٌ ينص وتوراةٌ وانجيلُ
في كل جيل أباطيلٌ يُدانُ بها ... فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل

الدهر ينسخُ أولاه أواخرُه ... فلا تطيلنّ بهذا اللوم إنصابي
داء الحياة قديمٌ لا دواء له ... لم يخلُ بُقراط من سقم وأوصاب
تلك اليهود، فهل من هائد لهمُ ... والصابئون، وكلّ جاهلٌ صابي
لم يثبتوا بقياس أصل دينهم ... فيحكموا بين رقّاص ونصّاب
ما الركن في قول ناس لست أذكرهم ... إلا بقية أوثان وانصاب

---

(1) القلب هي الآبار؟

وصاح بكم داعي الضلال فما لكم ... أجبتم، على ما خيّلت، كل صائح
متى ما كشفتم عن حقائق دينكم ... تكشفتم عن مخزيات الفضائح

توافقت اليهود مع النصارى ... على قتل المسيح بلا اختلاف
وما اصطلحت على ترك الدنايا ... بل اصطلحوا على شرب السلاف
تلافيناهم بالقول فيه ... فجائهم التلافي بالتلاف
تخير خلقنا والشر طبع ... فما نحتاج فيه إلى اختلاف
ترفق إنّ ديني ليس نبعا ... ولكن بالخلاف من الخلاف[1]

أحسن بهذا الشرع من ملة ... يثبت لا ينسخ فيما نسخ
جاءت أعاجيب فويح لنا ... كأننا في عالم قد مسخ
والجسم كالثوب على روحه ... ينزع أن يخلقَ أو يتسخ
والنجل إن برا وإن فاجرا ... كالغصن من أصل أبيه فسخ

عاشوا كما عاش آباءٌ لهم سلفوا ... وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ... ولا يبالون من غيّ لمن سجدوا

ضلّت يهودُ وإنما توراتها ... كذب من العلماء والأحبار
قد أسندوا عن مثلهم ثم اعتلوا ... فنمَوا بإسنادٍ إلى الجبّار
وإذا غلبت مناضلاً عن دينه ... ألقى مقالده إلى الأخبار
أقسام لفظك ستة، وجميعها ... لا مَينَ يلحقه، سوى الإخبار[2]

ومتى ركبت إلى الديانة غالها ... فِكَرٌ على حسن الضمير دسائسُ
والعقل يعجب، والشرائع كلها ... خبرٌ يُقلّد لم يَقِسه قائس

---

(1) شجر النبع صلب عوده، وشجر الخلاف، أي الصفصاف، عوده هش ولين.

(2) أقسام الكلام الستة هي الأمر والنهي والاستفهام والدعاء والتمني والتعجب، والإخبار يقصد النقل.

متمجّسون ومسلمون ومعشر ... متنصّرون وهائدون رسائس[1]
وبيوت نيران تُزار تعبداً ... ومساجدٌ معمورةٌ وكنائس
والصابئون يعظمون كواكبا ... وطباع كلٍ في الشرور حبائس
أنّا ينال أخو الديانة سؤددا ... ومآرب الرجل الشريف خسائس
وإذا الرئاسة لم تُعَنْ بسياسة ... عقليّةٍ، خطىءَ الصوابَ السائسُ

تألُفُ غيّ الناس شرقاً ومغرباً ... تكامل فيهم باختلاف المذاهبِ
دعا موسى فزال وقام عيسى ... وجاء محمد بصلاة خمس
وقيل يجيء دين بعد هذا ... وأودى الناس بين غد وأمس

قالت معاشر لم يبعث الهكم ... إلى البرية عيساها ولا موسى
وإنما جعلوا الرحمان مأكلة ... وصيروا دينهم للملك ناموسا[2]
ولو قدرت لعاقبت الذين طغوا ... حتى يعود حليف الغيّ مرموسا

وقد شهد النصارى أن عيسى ... توخته اليهود ليصلبوه
وما ابهوا وقد جعلوه ربا ... لئلا ينقصوه ويحدبوه
تمجّ قلوبهم ما أودعته ... لسوء في الغرائز أشربوه
ونُبِّيء في بني يعقوب موسى ... بشرع ما تخلّص متعَبوه

ولا تحسب مقال الرسل حقاً ... ولكن قول زور سطّروه
وكان الناس في عيش رغيد ... فجاؤا بالمحال فكدروه[3]

---

(1) رسائس: بقايا مدفونة، فاسدة.

(2) وردت في أكثر النسخ: «وإنما جعلوا للقوم مأكلة وصيروا، لجميع الناس ناموساً» وقد فضلنا ما جاء في نسخة قديمة: «وإنما جعلوا الرحمن مأكلة» إشارة إلى الخبز والخمر كلحم ودمِ المسيح. ونظن أن أبا العلاء أراد الإشارة إلى طقس يَعدُّه غريب على العقل.

(3) ياقوت الحموي، إرشاد الأريب.

ما للأنام؟ وجدتهم من جهلهم بالدين أشباه النَّعامِ أوِ النَّعمْ
لو قال سيد غضى[1]: بُعِثت بملّةٍ من عند ربّي قال بعضهمُ نعمْ

عجبت لرقٍّ ضُمّنَ المَينَ بعدما تخيَّره قومٌ لتوراتهم سفرا

ثلاثة أيامٍ لأهل تنافر ولكن قول المسلمين هو الثبت
يرى الأحد النصري عيداً لأهله وجمعتنا عيد لنا، ولك السبت
إذا افتكر الإنسان في أمر دينه بدا نبأ يَثني الحجا وبه كبت

يا آل يعقوب خذوا حذركم في الدهر من حبرٍ وديّان[2]
يزعم: نارٌ من سماء هوت تأكل ذا أفك وطغيان[3]
لو كنتَ فيما قلتَه صادقاً لم تعدُ للشرّ بهيمان[4]
ولم تكن ترغب في زيّفٍ[5] تؤخذ من عرج وعميان

ما أسلَمَ المسلمون شرّهُم ولا يهودَ لتوبة هادوا
ولا النصارى لدينهم نصروا وكلّهم لي بذاك أشهاد
ترجو يهودَ المسيحَ يأتي وتأمل الدهر أن يهودا
وكيف تُرعى لهم عهود من بعد ما ضيعوا العهودا
وكل ما عندهم دعاوٍ حتى يقيموا به الشهودا
غدوا، وأشياخهم، لجهل كولدةٍ أوطنوا المهودا

---

(1) سيد غضى: الذئب.
(2) الديان: قاضي اليهود.
(3) يقصد حكاية ايليا وانزال النار على كهنة البعل (سفر الملوك الأول 18)، أو انزاله النار على أعدائه (الملوك الثاني 1).
(4) الهيمان هو الزنار الذي يحتوي على الدراهم.
(5) الزيّف هو الدرهم الذي دخله الغش.

يا آل يعقوبَ! ما توراتكم نبأ — من وَرْيِ زَنْدٍ، ولكن وَرْيِ أكبادِ[1]
إن كان لم يبدُ للأغمار سرُّكُم — فإنه ليَ، في إكنانه، بادي[2]
لقد أكلتم بأمر كلّه كذبٌ — على تقادم أزمانٍ وآباد[3]
ورابني أنّ أحباراً لكم رسخوا — في العلم ليسوا، على حالٍ، بعبّاد

عليك العقل وافعل ما رآه — جميلاً، فهو مشتار الشوّار
ولا تقبل من التوراة حكماً — فإن الحق عنها في توار
أرى أسفارها ليهود أضحت — بواري قد حسبن من البوار
غسل المليك بلاده من أهلها[4] — بالماء إذ جاؤوا بسوء شنار
ويقال إن الله، جلّ ثناؤه — يوماً يُطهّر أرضه بالنار
كم مسلم عبد الهوى فوجدته — فيما يحلّ كعاقد الزنار[5]
كذبوا إن ادّعوا الهدى فجميعهم — يسعون في تيه بغير منار
فاهرب بدينك من أولئك إنهم — حَرَبوك واحتربوا على الدينار[6]
وارتقب من مؤذن القوم فتكا — فالنصارى يشكون فعل الأبيلِ[7]
ولحبر اليهود في درسه التو — راةَ فنٌّ، والهمُّ في التدبيل[8]
كذبٌ لا يزال يطعم خبزا — نُصّ عن آدمٍ وعن قابيل[9]

---

(1) وري الزند أي اشتعال النار، ربما يقصد بها النار التي رآها موسى على الجبل عند استلامه الواح الشريعة من إلهه. وري الأكباد هو حرقة الكبد أو المرض والجهل.
(2) الأغمار هنا تعني البسطاء من الناس.
(3) قوله «أكلتم بأمر» يعني شريعة التحريم والتحليل في الطعام عند اليهود.
(4) إشارة إلى طوفان نوح.
(5) عاقد الزنار أي النصراني.
(6) حربوك أي اغتصبوا مالك.
(7) الأبيل هو الضارب الناقوس.
(8) التدبيل: تعظيم لقمة الطعام وابتلاعها.
(9) إشارة إلى توراة اليهود.

في الفلسفة والأخلاق والمجتمع :

بحسن مرأى لبني آدم … وكلهم في الذوق لا يعذب
ما فيهم بز ولا ناسك … إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرةٌ … لا تظلم الناس ولا تكذب

أنا الجائر الظالمُ … ومولايَ بيَ عالمُ
فيا لك من يقظة … كأني بها حالم

أما الصحاب فقد مروا وما عادوا … وبيننا بلقاء الموت ميعادُ
سرٌ قديم وأمر غير متضحٍ … فهل على كشفنا للحق إسعاد؟

توهمت يا مغرور أنك ديّن … عليَّ يمين الله ما لك دينُ
تسير إلى البيت الحرام تنسكا … ويشكوكِ جار بائس وحزين

سبح وصلّ وطف بمكة زائراً … سبعين لا سبعاً فلست بناسكِ
جهل الديانة من إذا عرضت له … أطماعه لم يلف بالمتماسك

ما الخير صوم يذوب الصائمون له … ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وإنما هو ترك الشر مطّرحاً … ونفضك الصدر من غل ومن حسد
ما دامت الوحش والأنعام خائفةً … فَرْساً، فما صحّ أمرُ النُسك للأسد

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها … فتاركها عمداً إلى الله أقرب

إذا القوم صاموا وعافوا الطعام … وقالوا المحال فقد أفطروا

وقد عدم التيقن في زمان … حصلنا من حجاه على التظني
فقلنا للهزبر أأنت ليث … فشكّ وقال علّي أو كأني

لعمري لقد طال هذا السَفَر ... عليّ وأصبحت أحدو النفر
أأخرج من تحت هذي السماء ... فكيف الأباق، وأين المفر؟
وكم عشت من سنة في الزمان ... وجاوزت من رجب أو صفر
وما جُعلت لأسود العرين ... أظافر إلا ابتغاء الظَفَر
لحا الله قوماً إذا جئتهم ... بصدق الأحاديث قالوا كفر
وإن غُفِرت موبقات الذنوب ... فكل مصائبهم تغتفر

يسمّى غويٌ من يخالف كافراً ... له الويل أي الناس خالٍ من الكفر

ودينك ما عليّ الحكم فيه ... فابغي للذي أخفيت بغيا
إذا الإنسان كفّ الشرّ عني ... فسقياً في الحياة له ورعيا
ويدرس إن يشاء كتاب موسى ... ويضمر إن أحب ولاء شعيا

كلٌ يقدس فأسمع التقديس في ... صوت الغراب وفي صياح الجدجد

وقد فتشت عن أصحاب دين ... لهم نسك وليس لهم رياءُ
فألفيت البهائم لا عقول ... تقيم لها الدليل ولا ضياء
وأصحاب الفطانة في اختيال ... كأنهم لقوم أنبياء
فأما هؤلاء فأهل مكر ... وأما الآخرون فأغبياء
فإن كان التقى بلها وعيّا ... فأعيار المذلة أتقياء

وجدت الناس في هرج ومرج ... غواة بين معتزل ومرجي
فشأن قلوبهم عزف ونزف ... وأصحاب الأمور جباة خرج

أحسن بهذا الشرع من ملة ... يثبت لا ينسخ فيما نسخ
جاءت أعاجيب فويح لنا ... كأننا في عالم قد مسخ
والجسم كالثوب على روحه ... ينزع أن يخلقَ أو يتسخ

والنجل إن برا وإن فاجرا كالغصن من أصل أبيه فسخ

غدوت مريض العقل والدين فالقني لتسمع أنباء الأمور الصحائحِ
فلا تأكلن ما أخرج البحر طالباً ولا تبغِ قوتاً من غريض الذبائح
ولا بيض أمات أرادت صحيحة لأطفالها دون الغواني الصرائح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت والظلم شر القبائح
ودع ضرب النحل التي بكرت له كواسب من أزهار نبت فوائح
فما أحرزته كي يكون لغيرها ولا جمعته للندى والمنائح
مسحت يدي من كل هذا فليتني تنبهت شأني قبل شيب السوائح
بني زمني هل تعلمون سرائرا علمت ولكني بها غير بائح
سريتم على غيّ فما إهتديتم بما أخبرتكم صافيات القرائح

ارائيك فليغفر لي الله زلتي بذاك ودين العالمين رياء

الروح تنأى فلا يدري بها أحد وفي التراب، لعمري، يرفت الجسد
وقد علمنا بأنا في عواقبنا إلى الزوال ففيم الضغن والحسد

لا يفخرنّ الهاشميّ على امرىء من آل بربر
فالحق يحلف ما علـيٌّ عنده إلا كقنبر[1]

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

قد طال في العيش تقييدي وإرسالي من اتقى الله فهو السالم السالي
فأرقب إلهك في عسر وفي يسر وأترك جدالك في بعث وإرسال

أهوى الحياة وحسبي من معايبها أني أعيش بتمويه وتدليس

---

(1) قنبر من موالي علي بن أبي طالب.

فاكتم حديثك لا يشعر به أحد   من رهط جبريل أو من رهط إبليس

وليس على الحقائق كل قولي   ولكن فيه أصناف المجاز

لعمري لقد طال هذا السَّفَر   عليّ وأصبحت أحدو النَّفر
أأخرج من تحت هذي السماء   فكيف الأباق، وأين المفر؟
وكم عشت من سنة في الزمان   وجاوزت من رجب أو صفر
وما جُعلت لأسود العرين   أظافر إلا ابتغاء الظَّفَر
لحا الله قوماً إذا جئتهم   بصدق الأحاديث قالوا كفر
وأن غُفِرت موبقات الذنوب   فكل مصائبهم تغتفر
وروح الفتى أشبهت طائرا   أُطيرَ، فما عاد لما نفر
هنيئاً لجسمي إذا ما استقر   وصار بعنصره في العفر
ولست أبالي إذا ما بُليت   ومن وطىء القبرَ أو من حفر

خذي رأيي وحسبك ذاك مني   على ما فيّ من عوج وأمت[1]
وماذا يبتغي الجلساء مني   أرادوا منطقي وأردت صمتي
ويوجد بيننا أمد بعيد   فاموا سمتهم وأممت سمتي

اختلاف من عنصر ذي اتفاق   وتساوى الزنجي والعربيُّ

قالوا العمى منظره قبيح   قلت بفقدانكم يهون
والله ما في الحياة شيء   تأسى على فقده العيون
تسود الناس زيد بعد عمرو   كذاك تُقلّب الدولات دوله
ورُبَّ شهادةٍ وردت بزورٍ   أقام لنصّها القاضي عدوله
.ومن شر البلية رَبُّ ملكٍ   يريد رعيّةً أن يسجدوا له

---

(1) الأمت: الضعف.

يستأسد النبت الغضيض فلا تلم / رجلا متى ابصرته مستأسدا
فإن شكر فضيلة / أن لا تؤاخذ في الإساءة حاسدا
ومن الرزية أن تبيت مكلفا / إصلاح من صحب الغريزة فاسدا

والدين متجر ميّتٍ فلذاك لا / تلفيه في الأحياء إلا كاسدا

تشابهت الخلائق والبرايا / وإن مازتهم صور ركسنه[1]
وجرم في الحقيقة مثل جمر / ولكنّ الحروف به عكسنه
غنى زيد يكون لفقر عمرو / وأحكام الحوادث لا يقسنه
وليت نفوسنا والحق آت / ذهبن كما أتين وما أحسنه
قدمنا والقوابل ضاحكات / وسرنا والمدامع ينبجسنه
ألم ترني حميت بنات صدري / فما زوجتهن وقد عنسنه
ولا أبرزتهن إلى أنيس / إذا نور الوحوش به أنسنه
وقال الفارسون حليف زهد / وأخطأت الظنون بما فرسنه
ورُضتُ صعاب آمالي فكانت / خيولاً في مراتعها شمسنه
ولم أعرض عن اللذات إلا / لأن خيارها عني خنسنه[2]
ولم أرَ في جلاس الناس خيرا / فمن لي بالنوافر أن كنسنه[3]
وقد غابت نجوم الهدي عنا / فماج الناس في ظُلُم دمسنه
وتقسم حظوة حتى صخور / يُزرنَ فيستلمن ويلتمسنه
كذات القدس أو ركنا قريش / واسرتهن أحجاز لطسنه[4]
بحج مقام إبراهيم وفد / وكم أمثال موقفه وطسنه[5]

---

(1) صور ركسنه: أي صور تغيرت وانقلبت (بالموت).
(2) خنس: ابتعد أو تأخر.
(3) الكنس بيت الظبي.
(4) ذات القدس هي صخرة بيت المقدس، وركنا قريش يريد بها ركني الكعبة، وأحجار لطسنه أي كسرت، يقصد بذلك أن كل هذه المقدسات ما هي إلا حجارة تكسر مثل سواها.
(5) وطس أي وطأ بالأقدام. أي مقام إبراهيم (الكعبة) مثل سواه من الأماكن.

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومنّ للأقوام تهذيبا
ولا تصدّق بما البرهان يبطله فتستفيد من التصديق تكذيبا

سلى الله ربك إحسانه فإنك إن تنظري تالمي
وليس اعتقادي خلود النجوم ولا مذهبي قدم العالم

داران ـ أما هذه فمسيئةٌ جداً ولا خيرٌ لتلك الدارِ
بني الدهر مهلا إن ذممت فعالكم فإني بنفسي لا محالة أبدأ
متى يتقضى الوقت والله قادر فنسكن في هذا التراب ونهدأ
تجاوَرَ هذا الجسم والروح برهة فما برحت تأذى بذاك وتهدأ

وجدت غنائم الإسلام نهبا لأصحاب المعازف والملاهي
وكيف يصح إجماع البرايا وهم لا يجمعون على الإله
تنازعني إلى الشهوات نفسي فلا أنا مُنجَح أبداً ولا هي

اقيمي، لا أعد الحج فرضاً على عُجَز النساء ولا العذارى
ففي بطحاء مكة سرُّ قوم وليسوا بالحماة ولا الغيارى
وإنَّ رجال شيبة سادنيها إذا راحت لكعبتها الجمارا
قيام يدفعون الوفد شفعا إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزوالف أولجوهم ولو كانوا اليهود أو النصارى

وجدت الشرّ ينفع كل حينٍ ومن نفعٍ به حُمل الحسامُ
وليس الخير في وسع الليالي فكيف نسومها ما لا يسام

القدس لم يفرض عليك مزاره فاسجد لربك في الحياة مقدسا
أصبحت في يومي أسائل عن غدي متحيراً عن حاله متندسا
أما اليقين فلا يقين وإنما اقصى جهودي أن أظن وأحدسا

ولتفعلِ النفسُ الجميلَ لأنه ... خيرٌ وأحسنُ، لا لأجل ثوابها

تناقضٌ ما لنا إلا السكوت له ... وأن نعوذ بمولانا من النار
يد بخمس مئين عسجد فُديت ... ما بالها قطعت في ربع دينار
ولا ألومُ أخا الإلحاد، بل رجلاً ... يخشى السُّعيرَ، وما ينفكُّ في سُعُرِ (1)

إن كان من فَعَل الكبائرَ مجبراً ... فعقابه ظلم على ما يفعل

وما آدمٌ في مذهب العقل واحدٌ ... ولكنه عند القياس أوادمُ

رويدكِ يا سحائب لا تجودي ... على السبخات، من جهل هميتِ
طلبتِ ديانةً بين البرايا ... لقد أشوَتْ سهامك إذ رميت
تزيوا بالتصوّف عن خداع ... فهل زرت الرجال أو اعتميت
وقاموا في تواجدهم وداروا ... كأنهم ثمال من كميت
وما رقصوا حذارا من إله ... ولا يبغون إلا ما حميت

زعموا رجالاً كالنخيل جسومهم ... ومعاشراً، قاماتهم أشبارُ
أن يصغروا أو يعظموا فبقدرةٍ ... ولربنا الاعظام والاكبار
يُستصغَرُ الحي الحقير، وتحته ... أمَمٌ توهَمُ أنه جبّار

رأيت قضاء الله أوجبَ خلقَه ... وعاد عليهم في تصرفه سلبا
وقد غَلَبَ الأحياءَ في كل وجهة ... هواهم وإن كانوا غطارفة غلبا
كلاب تغاوت أو تعاوت لجيفة ... وأحسب أني صرت ألأمها كلبا
أبينا سوى غشّ الصدور وإنما ... ينال ثواب الله أسلمنا قلبا
وأيّ بني الأيام يحمد قائلٌ ... ومن جرّب الأيام أوسعهم ثلبا

---

(1) السُّعر: الخبل أو الجنون.

تـعـالـى الله فـهـو بـنـا خـبـيـر ... قـد اضطـرت إلى الكـذب العقـول
نقول على المجاز وقد علمنا ... بـأن الأمـر لـيـس كـمـا نـقـول

أرى عالماً يرجون عفو مليكهم ... بتقبيل ركن واتخاذ صليب
فغفرانك اللهم هل أنا طارح ... بمكة في وفد ثياب سليب

ثيابيَ أكفاني ورمسيَ منزلي ... وعيشي حمامي والمنية لي بعثُ

رأيت بني الدهر في غفلة ... وليس جهالتهم بالأمم
فنسك أناسٍ لضعف العقول ... ونسك أناس لبعد الهمم

إنما نحن في ضلال وتعليـ ... ـلٍ فإن كنت ذا يقين فهاته
ولحبّ الصحيح آثرت الرو ... م انتساب الفتى إلى أمهاته
جهلوا من أبوه إلا ظنونا ... وطلا الوحش لاحق بمهاته

نهاني عقلي عن أمور كثيرة ... وطبعي إليها بالغريزة جاذبي
ومما أدام الرزء تكذيب صادق ... على خبرة منا وتصديق كاذب

أصدُق إلى أن تظن الصدق مهلكة ... وعند ذلك فاقعد كاذبا وقمِ
فالمين مينة مضطر ألم بها ... والحق كالماء يخفي خيفة السقم

ربي متى أرحل عن هذه الـ ... ـدنيا فإني قد أطلت المقام
لم أدرِ ما نجمي ولكنه ... في النحس مذ كان جرى واستقام
فلا صديقي يترجى يدي ... ولا عدوّي يتخشى انتقام
والعين سقم للفتى منصِبٌ ... والموت يأتي بشفاء السقام
والترب مثواي ومثواهم ... وما رأينا أحداً منهم قام

خالق لا يُشكّ فيه قديمٌ ... وزمان على الأنام تقادم
جائزٌ أن يكون آدم هذا ... قبله آدم على إثر آدم

قال قوم، ولا أدين بما قا ... لوه إن ابن آدم كابن عِرسِ
جهل الناس ما أبوه على الـ ... ـدهر ولكنه مسمى بحرس
في حديث رواه قومٌ لقومٍ ... رهن طرسٍ مستنسخٍ بعد طرسِ

والأرض غذّتنا بألطافها ... ثم تغذتنا، فهل انصفت؟
تأكل من دب على ظهرها ... وهي على رغبتها ما اكتفت

لعمرك ما أُسرُّ بيوم فطر ... ولا أضحى ولا بغدير خمّ[1]
وكم أبدى تشيّعه غويٌّ ... لأجل تَنَشُّبٍ ببلاد قمّ[2]

طلب الخسائس وارتقى في منبر ... يصف الحساب لامة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة ... أمسى يمثل في النفوس ذهولها
ووجدت ليل الغي ألبسَ مُردَها ... وشيوخَها وشبابَها وكهولَها
لو قام أموات العواصم وحدها ... ملأوا البلاد حزونها وسهولها
فخذ الذي قال اللبيب وعش به ... ودع الغواة كَذوبها وجَهولها

الجسم والروح من قبل اجتماعهما ... كانا وديعين لا همّا ولا سقما
تفرُّدُ الشيء خيرٌ من تألُّفه ... بغيره، وتجرُّ الإلفة النقما

إذا انتقلت عن الأوصال نفسي ... فما للجسم علم بانتقال
أسير فلا أعود، وما رجوعي! ... وقد كان الرحيل رحيل قال

---

(1) غدير خم مكان بين مكة والمدينة وتقول الشيعة إن الرسول قال عنده: من كنت مولاه فعلي مولاه: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه.

(2) قم هي المدينة المشهورة في بلاد فارس.

أمـور يـلـتـبـسـن عـلـى الـبـرايـا ... كـأنّ الـعـقـل مـنـهـا فـي عـقـال

قد أسلم الرجل النصران مرتغبا ... ولـيـس ذلـك مـن حـبٍّ لإسلام
وإنـمـا رام عـزا فـي مـعـيـشـتـه ... أو خاف ضربة ماضي الحدّ قلاّم
أو شاء تزويج مثلِ الظبي مُعْلِمةٍ ... لـلـنـاظـريـن بـإسـوار وعُـلاّم[1]
قد حاول الناس رزق الله فابتكروا ... مـجـاهـديـن بـأرمـاحٍ وأقـلام

ما للأنام؟ وجدتهم من جهلهم ... بـالـديـن أشباه النعامِ أوِ النعمْ
لو قال سِيْدُ غضىً[2]: بُعِثت بملّةٍ ... من عندِ ربّي قال بعضهمُ نعمْ

تسريح كفّيَ برغوثا حظيت به ... أبرُّ من درهمٍ تعطيه محتاجا

خيرٌ وشرٌّ، وليل بعده وضحٌ ... والناس في الدهر مثل الدهر قسمان
واللب حارب تركيبا يجاهده ... فالعقل والطبع، حتى الموت، خصمان
هل ألحد السيفُ أو قلّت ديانته ... أو كان صاحب توحيد وإيمان
ورابني منه ترك الجاحدين سدى ... لم يُفْجَعوا برؤوس منذ أزمان

وجدنا اتّباع الشرع حزما لذي النهى ... ومن جرب الأيام لم ينكر النسخا
فما بال هذا العصر ما فيه آيةٌ ... من المسخ إن كانت يهود رأت مسخا[3]
وقال بأحكام التناسخ معشرٌ ... غلوا فأجازوا الفسخ في ذاك والرسخا[4]

---

(1) العلاّم هو الحناء.

(2) الذئب.

(3) الإشارة إلى اليهود تعود إلى ما جاء في القرآن (البقرة 65) عن الذين اعتدوا في السبت فمسخوا قروداً.

(4) التناسخ حلول الروح في جسم إنسان آخر بعد الموت، والفسخ حلول الروح في حشرة، والرسخ انقلابه نباتا، والمسخ انقلابه حيواناً. . والذين يعتقدون بالتناسخ يرون أن ما جاء في القرآن (النساء 56): ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ يؤيد نظريتهم.

لا تخبرنْ بكنه دينك معشراً ... شُطُراً، وإن تفعل فأنت مغرر
واصمت فإن الصمت يكفي أهله ... والنطق يُظهر كامناً ويقرّر

متى يخلص التقوى لمولاه، لا تغض ... عطاياه من صلّى وقبلته الشرق
أرى حيوان الأرض يرهب حتفه ... ويفزعه رعدٌ، ويطمعه برق
فيا طائرُ ائمنّي، ويا ظبي لا تخف ... شذاي، فما بيني وبينكما فرق

ناديتُ حتى بدا في المنطق الصّحل[1] ... تخالف الناس والأغراض والنّحلُ
رجَوا إماماً، بحقّ، أن يقوم لهم ... هيهاتَ، لا بلْ حلولٌ ثمّ مُرتَحلُ
ولن يزالوا بشرٌ في زمانهم ... ما دام فوقهمُ المرّيخ، أو زحل[2]

ما بال مكة فيها معشر سدن ... من يطرق البيت يؤثرهم بأجعال

والله صوّرَ أشباحاً لها خبر ... والشخص بعد وجود يقتضي عدما

حيران أنت فأيُّ الناس تتّبعُ ... تجري الحظوظ وكلٌ جاهلٌ طَبَعُ
والأمّ بالسدس عادت وهي أرأف من ... بنت لها النصفُ أو عِرسٍ لها الرُّبُع

نفضت عنّي تراباً وهو لي نسبٌ ... وذاك يحسب من قطع الفتى الرّحما
يا هون ما أوعد الله العباد به ... إن صار جسميَ في تحريقه فَحَما
وإنما هو تخليدٌ بلا أمدٍ ... تمضي الدهورُ وصالي النّارِ ما رحما

رضاً بقضاء ربّك، فهو حتم ... ولا تظهر لحادثة وجوما
ولمْ زحلاً، أو المرّيخَ فيها ... ولا تلمِ الذي خلق النجوما

---

(1) بحّة الصوت.

(2) المريخ يشير إلى الحرب، وزحل إلى الشؤم والنحس.

الراهبَ المسجونَ، فرطَ عبادةٍ — من حبِّ دنياه الكذوبِ مولّه
أعرفتمُ أصحابكم بحقيقة — أم كلكم عنهم غبيٌّ أبلهُ
ذُكِرَ التألّه فادّعوه تخرصاً — ما هذه أفعال من يتألّه

فاخشَ المليكَ ولا توجَد على رهبٍ — إن أنت بالجِنّ في الظلماء خُشيتا
فإنما تلك أخبارٌ ملفقةٌ — لخدعة الغافل الحشويّ حوشيتا

لا تمدحنّ ولا تذمنّ امرأً — فينا فغير مقصّرٍ كمقصِّرِ

خرجت إلى ذي الدار كرهاً ورحلتي — إلى غيرها بالرغم والله شاهدُ
فهل أنا فيما بين ذينيك مُجبرٌ — على عملٍ أم مستطيعٌ فجاهِدُ
عدمتك يا دنيا فأهلك أجمعوا — على الجهلِ طاغٍ مسلمٌ ومعاهدُ

ملحق ٢

مختارات من رسالة الملائكة

في رسالة الملائكة، تصور المعري نفسه كأنه أشرف على الموت، وجاءه ملاك الموت، فأراد أبو العلاء أن يدفعه عنه فحاوره في أصل كلمة «ملك» واشتقاقاته، ثم يدور له حديث مع منكر ونكير ومن ثم مع رضوان خازن الجنة. وكما في رسالة الغفران يتخذ المعري من الأدب والصرف والنحو سلاحاً كي يلج الجنة ويصور الملائكة غير عارفين بهذه الأمور غمزاً منه بلا أهمية هذه التفاصيل والسفسطات. وفي ما يلي بعض المقاطع من كتاب رسالة الملائكة، تحقيق محمد سليم الجندي، مطبعة الرقي بدمشق، 1944.

نبذة من رسالة الملائكة:

«فيقول الملك (الملاك) من ابن أبي ربيعة ومن أبو عبيدة، وما هذه الأباطيل؟ إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد وإلا فاخسأ وراءك. فأقول أمهلني ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل فأقيم الدليل أن الهمزة زائدة فيه. فيقول الملك هيهات ليس الأمر إلي إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. أم تراني أداري منكراً ونكيراً فأقول كيف جاء اسماكما عربيين منصرفين وأسماء الملائكة أكثرها من الأعجمية مثل إسرافيل وجبريل وميكاييل، فيقولان هات حجتك وخل الزخرف عنك. فأقول متقرباً إليهما: قد كان ينبغي لكما أن تعرفا ما وزن ميكاييل وجبريل على اختلاف اللغات فيهما إذ كانا أخويكما في عبادة الله فلا يزيدهما ذلك على الأغلظة (الإغاظة؟) ولو علمت أنهما

يرغبان في مثل هذه العلل لأعددت لهما شيئاً كثيراً من ذلك ولقلت لهما ما تريان في وزن موسى كليم الله الذي سألتماه عن دينه وحجته فأبان وأوضح. فإن قالا موسى اسم أعجمي إلا أنه يوافق من العربية وزن مفعل وفُعلى أما مفعل فإذا كان من ذوات الواو مثل أوسيت وأوريت فإنك تقول موسى وموزى (؟) وإن كان من ذوات الهمزة فإنك تخفف حتى تكون الواو خالصة من مُفعل، تقول آتيت العشاء فهو مؤتي، فإن خففت قلت موتي. قال الحطيئة:

وآتيت العشاء إلى سهيل أو الشعرى فطال بي الأناء

ويروى «أكريت العشاء».

وقد حكى بعضهم همز مؤسى إذا كان إسماً وزعم النحويون أن ذلك لمجاورة الواو والضمة لأن الواو إذا كانت مضمومة ضماً لغير إعراب وغير ما يشابه الإعراب جاز أن تُحول همزة كما قالوا وقتت وأقتت وحمائم ورقٌ وأرقٌ ووشحت وأشحت. قال الهذلي:

أبا معقلٍ إن كنتَ أشحتَ حلة أبا معقل فانظر بسهمك من ترمي

وقال حميد بن ثور:

وما هاج هذا الشوق إلا حمامةٌ دعت ساق حرٌ ترحةً وترنما

من الأرق حمّاء العلاطين باكرت عسيب أشاء مطلع الشمس اسحما

وقد ذكر الفارسي هذا البيت مهموزا:

أحبُ المؤقدين إليَّ موسى وحزرة لو أضاء ليَ الوقود

وعلى مجاورة الضمة جاز الهمز في سوق جمع ساقٍ في قراءة من قرأ كذلك، ويجوز أن يكون جمع على فُعُل مثل أسد فيمن ضم السين ثم هُمِزَت الواو ودخلها السكون بعد أن ذهب فيها حكم الهمز، وإذا قيل أن موسى فُعلى فإن جعل أصله الهمزة وافق فعلى.. الخ.

نبذة أخرى: نفس المصدر، ص 25 وما يليها:

«وهل اجئ في جماعة من جهابذة الأدباء قصرت أعمالهم عن دخول الجنة ولحقهم عفو الله فزحزحوا عن النار، فنقف على باب الجنة فنقول يا رضوَ لنا إليك

حاجة ويقول بعضنا يا رضوُ فيضم الواو فيقول رضوان ﷺ ما هذه المخاطبة التي ما خاطبني بها أحد قبلكم؟ فنقول إنا كُنّا في الدار الأولى نتكلم بكلام العرب وإنهم يرخّمون الإسم الذي في آخره الف ونون فيحذفونهما للترخيم وللعرب في ذلك لغتان تختلف أحكامهما في القياس، قال أبو زيد:

يا عثمَ أدركني فإن ركيّتي   صلدت فاعيت أن تبض بمائها

فيقول رضوان ما حاجتكم فيقول بعضنا إنا لم نصل إلى دخول الجنة لتقصير أعمالنا وأدركنا عفو الله عز وجل فنجونا من النار فبقينا بين الدارين ونحن نسألك أن تكون واسطتنا إلى أهل الجنة فإنهم لا يستغنون عن مثلنا وإنه قبيح بالعبد المؤمن أن ينال هذه النعم وهو إذا سبّح الله لحن. ولا يحسن بساكن الجنان أن يصيب من ثمارها في الخلود وهو لا يعرف حقائق تسميتها. ولعل في الفردوس قوماً لا يدرون أحروف كمّثرى كلها أصلية أم بعضها زائد ولو قيل لهم ما وزن كمثرى على مذهب أهل التصريف لم يعلموا، ووزنه فعْلّى وهذا بناء مستنكر لم يذكر سيبويه له نظيراً وإذا صح قولهم للواحدة كمثراة فألف كمثرى ليست للتأنيث وزعم بعض أهل اللغة أن الكمثرة تداخل الشيء بعضه في بعض فإن صح هذا فمنه اشتقاق الكمثرى.

(ثم يبحث في شجرة الطوبي وتصريف وأوزان الكلمة وغيرها مما يوجد في الجنة).

ومن هو مع الحور العين مخلد هل يدري ما معنى الحور ومن أي شيء اشتقت هذه اللفظة، فإن الناس يختلفون في الحور فيقول بعضهم هو البياض ومنه اشتقاق الحواري من الخبز، والحواريين إذا أريد بهم القصارون والحواريات إذا عني بهن نساء الأمصار وقال قوم الحوَر في العين أن تكون كبها سوداء وذلك لا يكون في الأنس وإنما يكون في الوحوش. . . .

(ثم يمضي طويلاً في تفسير الاستبرق وعبقر)

وإن كان أهل الجنة عارفين بهذه الأشياء فقد ألهمهم الله العلم بما يحتاجون إليه فلن يستغني عن معرفته الولدان المخلدون فإن ذلك لم يقع إليهم وإنّا لنرضى بالقليل مما عندهم جزاء على تعليم الولدان. فيبتسم إليهم رضوان ويقول لهم إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون، فانصرفوا رحمكم

WWW.ilIas.com/ARAYAHEEM

الله فقد أكثرتم الكلام فيما لا منفعة فيه وإنما كانت هذه الأشياء أباطيل زخرفت في الدارَ الفانية فذهبت مع الباطل. فإذا رأوا جده في ذلك قالوا رحمك الله نحن نسألك أن تعرف بعض علمائنا الذين حصلوا في الجنة بإنًا واقفون على الباب نريد أن نخاطبه في أمر. فيقول رضوان من تؤثرون أن أعلم بمكانكم من أهل العلم الذين غفر الله لهم؟ فيشتورون طويلاً ثم يقولون عرف بموقفنا هذا الخليل بن أحمد الفرهودي، فيرسل إليه رضوان بعض أصحابه فيقول له على باب الجنة قوم قد أكثروا الكلام وأنهم يريدون أن يخاطبوك فيشرف عليهم الخليل فيقول أنا الذي سألتم عنه فما الذي تريدون؟ فيعرضون عليه مثل ما عرضوا على رضوان فيقول الخليل إن الله جلّت قدرته جعل من يسكن الجنة ممن يتكلم بكلام العرب ناطقاً بأفصح اللغات كما نطق بها يعرب بن قحطان أو معدّ بن عدنان وأبناؤه لصلبه لا يدركهم الزلل ولا الزيغ، وإنما افتقر الناس في الدار الغرّارة إلى علم اللغة والنحو لأن العربية الأولى أصابها تغيير. فأما الآن فقد رفع عن أهل الجنة كل الخطا والوهم فاذهبوا راشدين إن شاء الله فيذهبون وهم مخفقون مما طلبوه».

ملاحظات حول بعض أعيان رسالة الغفران

الأعشى

الأعشى هو أول الشعراء الذين يتوسع المعري في ذكر شعرهم، وهو أول شاعر يلقاه ابن القارح في تجواله الخيالي في الجنة. ولعل المعري يماشي في هذا الخيار ما كتبه أبو الفرج في كتاب «الأغاني» من أن الأعشى أشعر العرب! والأشعار التي يوردها المعري في الرسالة تبرز أهم ميزة للأعشى ألا وهي وصف مجالس الأنس وشرب الخمر. أما أن الأعشى غفر له لأنه آمن ببعض الأمور الدينية عبر المسيحية فأمر مشكوك فيه إذ هو ما اعترف يوماً بأنه مسيحي على الرغم من أن آثار علاقاته مع أحبار نجران ومسيحيي الحيرة ظاهرة في بعض شعره. وقصة سعيه للقاء النبي ووقوف أعيان قريش عقبة في سبيله وردت في كتاب «الأغاني» وملخصها أن أبا سفيان خشي أن يضع الأعشى موهبته الشعرية الكبرى وصيته الذائع في نصرة الدين الجديد، فلاقاه قبل وصوله إلى محمد وحاوره منبهاً إياه إلى أن الرسول سوف يمنع عنه النكاح والقمار والخمر، ولما لم تنفع هذه مع الأعشى وهبه أبو سفيان مئة ناقة إن هو عاد إلى منزله في اليمامة ومكث هناك حتى ينجلي أمر الصراع بين أعيان قريش ومحمد. فقبل الأعشى ولم يحظ بعد ذلك بفرصة ليدخل في الإسلام.

أما امتناعه عن الخمر في الجنة فمن الأمور الطريفة إذ يروى أن جلسات الشرب كانت تعقد في اليمامة ويمضي المحتفلون إلى قبره يذرفون عليه آخر نقاط الخمر من كؤوسهم!

زهير بن أبي سلمى

ليس من المستعجب أن يضع المعري زهير في الجنة فهذا الأخير دعا دوماً في شعره إلى السلام والأخلاق خاصة في ما نظمه عن نهاية حرب داحس كما أن هناك في شعره أثر إيمانه بالحساب والقيامة كما أشار إلى ذلك ابن قتيبة. وحللت لزهير الخمر لأنه مات قبل الإسلام إلا أن هناك حكاية نعجب أن المعري لا يذكرها ويستفيد من فحواها لطرافتها، والحكاية هي أن زهير بلغ المائة من العمر وسنحت له فرصة مقابلة الرسول الذي صرخ عند رؤيته: «اللهم نجني من هذا الشيطان»!.

عبيد بن الأبرص

يقتصر المعري على ذكر بيت واحد من شعر عبيد ويهمل مادة قصصية هامة في حياة هذا الشاعر الجاهلي. فهو قد وقع ضحية غرابة أمر المنذر ملك الحيرة إذ زاره عبيد في «يوم بؤس» بدل أن يزوره في «يوم نعيم». وخبر ذلك كما جاء في «الأغاني» أن المنذر إغتاظ وهو في حالة السكر من كلام فاه به أحد جليسيه المفضلين فأمر بدفنهما أحياء وكما هو متوقع ندم على فعله في اليوم التالي عندما لم يعد ينفع الندم. فأقام مكان قبريهما نصبين وكان يجلس ليومين كل سنة إلى جانب هذين النصبين: اليوم الأول كان يوم النعيم فمن قابله في ذلك اليوم حظي بمئة ناقة. أما اليوم الثاني فكان يوم البؤس وكان نصيب أول من يلقاه الموت. وذلك كان نصيب عبيد!

عدي بن يزيد

يصدق عدي عندما يزعم في حواره مع ابن القارح أنه كان على دين المسيح، وقد بعثه ملك الحيرة كسفير له إلى القسطنطينية لحوار القيصر. وقد أمضى عدي قسماً من حياته في دمشق والقسم الأكبر في الحيرة. و«هند» التي يذكرها في أول القصيدة التي يُنْشِدُها هي بنت النعمان ملك الحيرة، التي تزوجها عدي بحيلة طريفة وردت في كتاب «الأغاني». وقد كان عدي قد ساعد النعمان على اقتناص العرش دون أخوته فسعى هؤلاء إلى الدس وتبدلت حاله مع النعمان فقتله. وقصة انتقام ابنه له فيها الكثير من الطرافة. فقد أعلن يوماً كسرى عن عزمه على ادراج نساء جدد في حريمه، فيعده زيد بن عدي بأن يسعى إلى النعمان يطلب منه بضع نساء من أهله. فلما جاء زيد إلى

النعمان ومعه رسول كسرى الذي كان لا يلم بالعربية، وأخبره بمراد كسرى هتف النعمان «أما عادت تكفيه مهى فارس!». فلما سأل رسول كسرى زيد عن معنى كلمة «مهى»، ترجمها له زيد بـ «بقر». فلما وصل الخبر إلى كسرى ثارت ثائرته وأرسل بجلب النعمان وأودى بحياته بجعل الفيلة تدوسه!

النابغة الذبياني

في نهاية حواره مع النابغة يذكر ابن القارح قصيدة نسبت إلى النابغة لكن هذا الأخير ينفي أن تكون له ويذكر أن نسبتها له على سبيل «الغلط والتوهم». وقد كان النابغة ضحية «دسائس شعرية» عديدة. فقد زعم في شعره أن غضب النعمان منه ليس مردّه وصفه الدقيق لزوجة النعمان «المتجردة» المذكورة في القصيدة المنحولة، بل بضع أشعار في ذم النعمان نسبها خصوم النابغة إليه. أما غيرة النعمان حول ملكته فلها ما يبررها فقد كانت المتجردة زوجة والد النعمان قبل أن يتخذها هذا الأخير له. ويروى أنها كانت من أجمل النساء وكان النعمان يحبها حباً جماً. أما هي فكانت ولهانة بشاعر آخر يدعى المنخل. وعندما اكتشف النعمان علاقتهما اختفى المنخل حتى ضرب المثل «عندما يعود المنخل» للأمر الغير قابل للحدوث!

لبيد بن ربيعة

عندما يشتكي لبيد «من الحياة وطولها» فهو ولا شك يعني طول حياته فقد كانت ولادته في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ومات بعد تولي معاوية الخلافة عام 661 ميلادي. أما قوله إنه ترك الشعر في الدار الخادعة فهو إشارة إلى أنه عزف عن قول الشعر بعد إسلامه قائلاً إن الله أعطاه القرآن بدلاً من الشعر!

بشار بن برد

بشار بن برد هو أول شاعر يلاقيه ابن القارح بين أهل النار! ولا نظن أن المعري اختار ذلك صدفة، بل هو كصاحب السرد اختار ما يوافق تصورنا لموقف ابن القارح. فهذا الأخير لو سُئِلَ عن رأيه لاختار بشار «الزنديق» ليكون في طليعة من يدفعون إلى النار الآكلة. وموافقة المعري له هي من بابين: الأول صحة التصور القصصي ليكون السرد موافقاً والأفعال متجانسة مع شخصيات القصة، والثاني من باب السخرية فالتوافق

الكامل من حيث وضع بشار بين أهل النار يوازيه ترحم ابن القارح عليه لجودة شعره!

امرىء القيس

ووضع أشهر شعراء الجاهلية في النار أمر لا بد منه! فامرىء القيس كان لا يدين بالوحدانية ويمارس اللهو والمجون كأشهر ما يكون. ولعل علاقته أو مغامرته مع ابنة قيصر بيزنطية هي التي أودت به ضحية الثوب المسموم الذي أهداه إياه القيصر عند رحيله من القسطنطينية! وأشتهر صاحبنا بعبادة الأصنام فكيف لا يصير إلى النار! ألم يسرع بعد وصول نبأ موت أبيه (أو على الأقل بعد سبعة أيام من اللهو والشرب!) إلى وادٍ شمال نجران حيث كان العرب يعبدون صنماً اسمه «ذو الخلاصة» ليرى ما مستقبله ويختار أحد السهام فلما وقع على «النفي» كسر النصال في وجه الصنم لأن رأي الصنم لم يوافق ما في قلبه من طلب الثأر! وكيف يخالف المعري رأي الرسول الذي جعل امرىء القيس قائد الشعراء إلى النار!

علقمة بن عبيدة

ونحتار في أمر إدراج علقمة في النار سوى أنه من الجاهلية ولم يعرف ورعه ولا ثبتت ديانته! وهل جعله المعري في النار لأجل شعره في ذم النساء أم لأن لقبه كان «الفحل»؟!

عمرو بن كلثوم

لعل شجاعة ابن كلثوم لم تكن كافية للتعويض عن حبه للخمرة حتى قيل إنه قضي لشربه الخمرة غير ممزوجة بالماء! ولعل هذه الرواية مرجعها الأبيات الأولى من معلقته حيث يصف الخمرة. وفي «الأغاني» رواية شهيرة عن شجاعته في الدفاع عن أمه ليلى بنت الشاعر المهلهل التي ضرب بها المثل.

الأخطل التغلبي

الأخطل هو الوحيد من الثلاثي الأموي (الأخطل الفرزدق وجرير) الذي أودي في النار! وفي سيرة الأخطل ما ولا شك يبرز ذلك! أما الفرزدق فقد غفر له ربما شفعاً بجده الذي كان يفتدي الأطفال الإناث من الوأد في الجاهلية فسمي «محيي المؤودات»،

وربما بسبب قصيدة في مدح زين العابدين حفيد الإمام علي، أو بسبب ندمه لطلاقه ابنة عمه نوار الذي ضرب فيه المثل إذ يقال «مثل ندم الفرزدق»! أما جرير فلا يقول لنا المعري أين مقامه، ولعله خشي سلاطة لسانه أو أن يسيء إلى شاعر الحجاج بن يوسف!

المهلهل التغلبي

أن يكون المهلهل التغلبي وابن ابنته عمرو بن كلثوم في النار سوية أمر محمود! فكلاهما مثقل تاريخه بالحرب والقتال. فعمرو قتل عمر بن هند ملك الحيرة ثأراً لشرف أمه، والمهلهل قتل بجير إنتقاماً لأخيه كليب.

الشنفرى وتأبط شراً

يدرج المعري هذين الشاعرين سوية فهما في النار خلاّن كما كانا في الحياة. وكيف يغفر للشنفرى وفي ذمته مقتل مئة من قبيلة بنو سلمان وقد قتل آخرهم بعد مماته هو بزمان على ما في الروايات!

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^
مع تحيات منتدى ليـلاس